

السنة الثانية - العدد الثالث مارس ٢٠٠٩م/ ربيع أول ١٤٣٠هـ

www.historicalkan.co.nr

ملف العدد

الحقبة الهوهنشتاوفنية في الإمبراطورية الرومانية المقدسة

Historical Kan Periodical





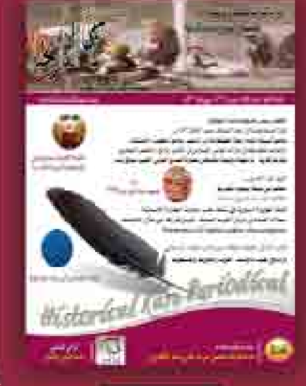
يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم من خلاله مستقبلها، لذا كان من الأهمية بمكان الاهتمام به، والحفاظ عليه، ونقله إلى الأجيال نقلاً صحيحًا، بحيث يكون نبراسًا وهاديًا لهم في حاضرهم ومستقبلهم.

الواقع أن الشعوب التي لا تاريخ لها لا وجود لها، إذ به قوام الأمم، تحيى بوجوده وتموت بانعدامه. ولهذا كانت فكرة تأسيس دورية علمية إلكترونية تاريخية عربية أكاديمية موجهة لطلبة الجامعات العرب و الخريجين منهم و الباحثين و أصحاب الدراسات العليا في فرع التاريخ وهواة القراءات التاريخية في كل أنحاء العالم.

بهاء الدين ماجد
المشرف العام على دورية كان التاريخية
مدير إدارة الخرائط بدار الكتب المصرية



العدد الثالث



دورية كان التاريخية

- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إثراء هذه الدورية بالموضوعات التاريخية.
- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الطلاب والباحثين والكتاب والمتخصصين من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

موضوعات الدورية

- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص طلاب الجامعات العرب و الخريجين منهم وأصحاب الدراسات العليا والباحثين في الدراسات التاريخية والمهتمين بالقراءات التاريخية.
- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

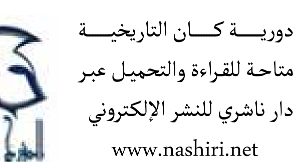
mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت

www.historicalkan.co.nr



دوريــة كــان التاريخيــة
متاحة للقراءة والتحميل عبر
دار ناشري للنشر الإلكتروني
www.nashiri.net



الراعــي الرســمي
سلسلة المؤرخ الصغير
سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف
إلى توفير المعلومة العلمية التاريخية



ترحب الدورية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة ذات الصلة بالدراسات التاريخية، مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقيدة الإسلامية، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح، مع الالتزام بالضوابط التالية:

نشر البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية التي سبق نشرها أو التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في دورية أو مطبوعة أخرى.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع.
- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر. وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، أما إذا كانت تعديلات طفيفة فتقوم الدورية بإجرائها.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر أو القديمة.
- أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- أن يعرض الكاتب ملخصا وافيا لمحتويات الكتاب مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطروحات الجامعية

- يُراعى في الأطروحات (الرسائل) الجامعية موضوع العرض أن تكون حديثة وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد الموضوعات التاريخية.
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث.
- ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته.
- خاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- تنشر الدورية التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات ذات العلاقة بالدراسات التاريخية التي تعقد داخل جمهورية مصر العربية أو خارجها، ويشترط أن يغطي التقرير فعاليات الندوة أو المؤتمر مركزا على الأبحاث العلمية وأوراق العمل المقدمة ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.

هيئة التحرير

- تعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي.
- الحقوق المتعلقة بالأعمال العلمية المنشورة تعود إلى الدورية، ويحق لأصحاب المقالات والأبحاث والعروض والتقارير إعادة نشر أعمالهم في أي دورية مطبوعة أو إلكترونية أخرى.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال بصيغة برنامج "Word".
- يرفق مع العمل نبذة عن الكاتب تتضمن: الاسم، الدرجة العلمية، التخصص الدقيق، البريد الإلكتروني، الموقع الشخصي، المدونة الشخصية، صورة شخصية للنشر مع المقال"إن أمكن".
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر على البريد الإلكتروني لرئيس التحرير mr.ashraf.salih@gmail.com

Historical Kan Periodical

A specialized journal devoted to historical studies and research. Issued quarterly by: Junior Historian Series.

Kan exists to bring together people of all communities who have an interest in the past. It promotes and supports the study and teaching of history at all levels: teacher, student, amateur and professional.

Our Mission is Promote, develop and support the study of history at all levels. We publish a range of material for a wide variety of readers with regard to:

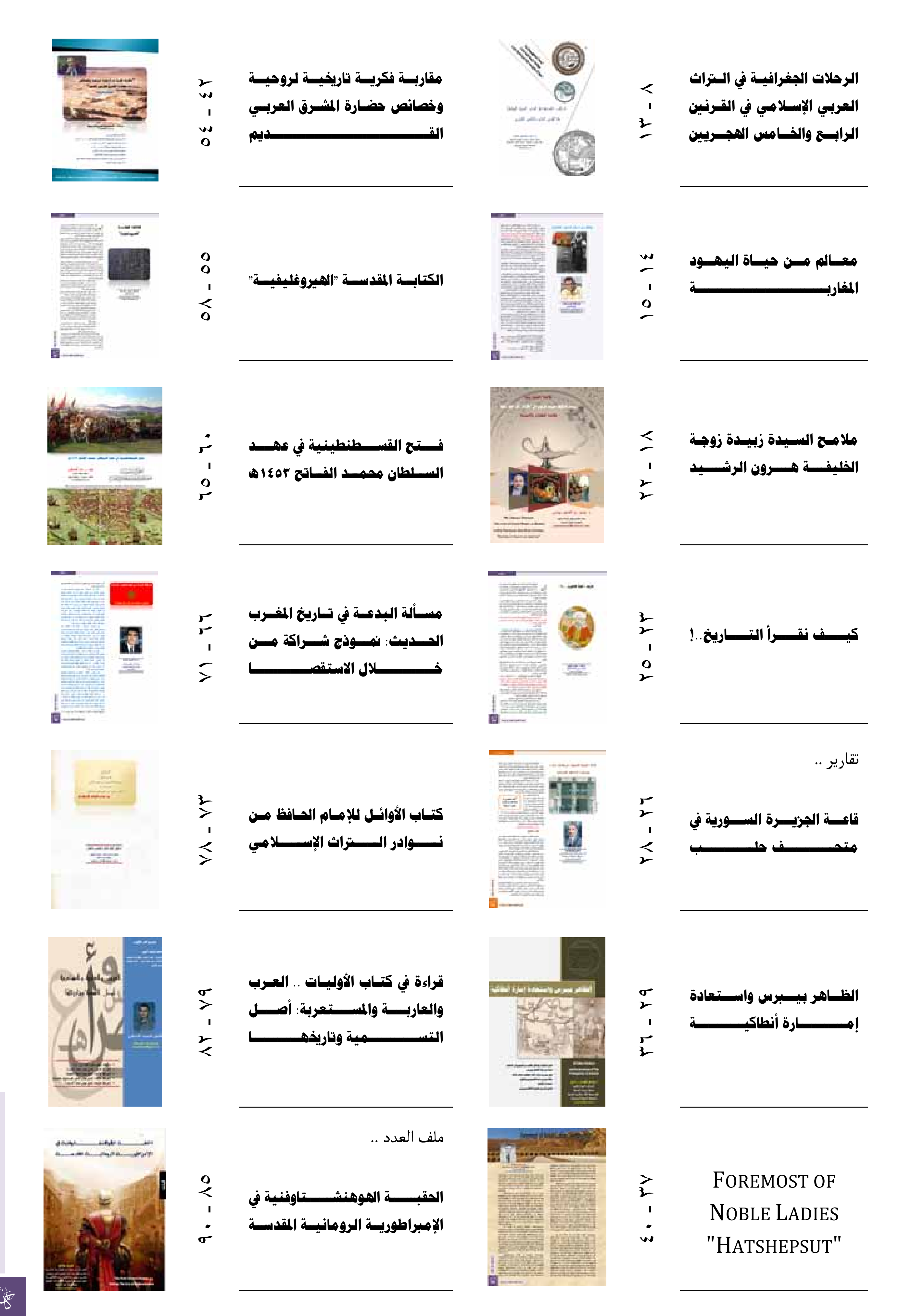
- Historical studies and research.
- Books Review.
- Thesis review.
- Reports of seminars and conferences.

Editorial Board invites all those interested in preserving the history of the Arab world to the enrichment of this periodical historical topic.

They also invite people who are interesting in historical studies to publish their useful writings.

Remark

- Receiving research "Word format "
- Memoir About the author is required include: Name, Degree, specialization, e-mail, personal site, personal blog, a personal image for publication with the article "if possible".
- Correspondence, advertisements and questions should be addressed to chief editor e-mail: mr.ashraf.salih@gmail.com





التاريخ وأثره على ذهنية الإنسان

يشكِّل التاريخ ، بمادته الفكرية أو بموروثه التربوي ، أهم أساس من أسس بنيتنا النفسية والذهنية ؛ ولعل العادات والتقاليد أهم صور مخلَّفات "تاريخنا متفاعلاً مع حاضرنا" ؛ وهنا يكمن جوهر "مشكلتنا الأخلاقية"! وما القيم والمبادئ المنتخَبة" ، أو الباقية ، إلا صورة من صور تجارب الإنسان مع الماضي والحاضر ، وخلاصة من خلاصاته!

وإذا تأمَّلنا جيداً الدور الحقيقي والواقعي للتاريخ في حياتنا التي نعيشها وَجَبَ علينا "لِزاماً" أن ندخل في مشكلة التأريخ لتسخيره "برمته" فيما يصب بمصلحتنا ولتجنّب مضار مخلَّفاته وترسباته! وكما أنه لا يوجد تاريخ نظيف بأكمله ، أو مشرق أو سعيد برمته ، فالآثار كذلك غير إيجابية بمطلقها ما لم يتم التعامل مع منشأها تعاملاً حكيماً دقيقاً! وهنا دور الأصفياء ، المخلصين للإنسانية وخالقها! فالترفع عن نبش الماضي والتعالي عن المخاصمة وإعلان المسامحة وإقرار التودد - مع جماله - لا يكفي وحده لكي يحل مشكلة مخلَّفات التاريخ إذ يجب على الخُلَّص من أصفياء الصالحين مراجعة التاريخ والعمل على وضع حلّ شامل ومناسب لهذا العصر وأهله!

وكما نقرّ بالصعوبة البالغة لإيجاد هكذا حلّ ، ولنجاعة ممارسته "الملحوظة والسريعة" ، فإننا نؤكِّد على عدم استحالته أبداً. فقد كانت الأمور أعقد من ذلك بكثير في الجاهلية "القديمة" فأتى الإسلام وجمع القلوب وطهَّر الأنفس ؛ فإذا كان الإسلام ما زال موجوداً ، وسيرة "نبيه" - ﷺ - الشريفة ماثلة أمام أعيننا ، ودماء المخلصين من شهدائه لم تجف بعد زوداً عنه. فأين الاستحالة إذن ؟!

نستطيع أن نسمع وجهة نظر اليائسين أو المتشائمين ونقدِّر وضعهم ونعمل على تسويته ،ونستطيع أن نصغي إلى منطق العقل ونمضي بالنهج المفترَض ؛ ويمكننا أيضاً أن نسمع ونصغي إلى غير ذلك! بمعنى: إذا عكسنا النظرة التي أشرنا إليها ، وهي الفعل الطبيعي لأي عاقل ، فإنه لن يكون باستطاعتنا فعل شيء ؛ أو إذا بخلنا بالثمن! فلا يوجد شيء مجاني ، ولا يُصنع الأمر العظيم بسهولة ، وطوبى للأبطال!

يحتاج أمْرُ الإصلاح إلى نفوس رضية وقلوب صادقة وصدور واسعة وهمم عالية.. كما يحتاج إلى تضافر الجهود واجتماعها على هذا الهدف النبيل! يجب أن يُنظر إلى المادة التاريخية أو إلى موروثنا الثقافي والتراثي من النواحي العلمية الصرفة كعلم النفس والتركيبة الإنسانية العامة ، ومن الجهة التاريخية البحتة كدراسة تسجيل الوقائع والأحداث مع النظر في ظروف عصر المؤرِّخ نفسه لا الحقبة التي يتحدَّث عنها فحسب ، ومن الناحية الفلسفية بما تفيده من ربط منطقي للأحداث بتسلسلها وتقاطعاتها. أي :يجب أن يُعطى الموضوع ، كل موضوع وكل جهة ، حقه من الدراسة والبحث! إذاً الأمرُ صعب وطريقه شاق ، ولكن ألا يستحق عناق أبناء أعداء الماضي ، أو أعداء الأمس ، كل جهد نبيل وشريف ؟! ألا يستأهل "مجتمع مثالي" التضحية والفداء ؟!

لا أُسهِّل الصعب ، ولا أُهوِّن الأمور ؛ ولكن أنظر بجد إلى الحقائق التاريخية وما صنعه عظماء الإنسانية ، ابتداءً من الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم سيد الخلق "المصطفى" - ﷺ - إلى آخِر المصلحين ، في مجتمعاتهم الضيقة أولاً ثم في الإنسانية جمعاء! يمكن للتاريخ أن يكون في خدمتنا كما يمكن أن يكون في غير صالحنا! الأمر منوط بنا! فإما أن نتفاعل تفاعل المخلصين لإنسانيتهم ودينهم فنقرأ ونهذِّب ونعمل بصدق وإخلاص ، وإما أن نبقى أسرى الجمود في قفص العداء وسجن الهوى والعصبية ، بعيدين عن إنسانيتنا التي فطرنا الله عليها .

يستحق الأمر نظرة تأمل ووقفة صدق مع النفس ، فإما موقف إنساني طاهر يتمثل بوضع جميع الإمكانات في خدمة هذا المشروع الإنساني الراقي والبالغ الأهمية ، من دعوة صالحة بالغيب - وهذا أضعف الإيمان - إلى كلمة طيبة بنيَّة صادقة ، إلى عمل أو مساهمة.. وإما يأس وإحباط فاستسلام وخسارة!

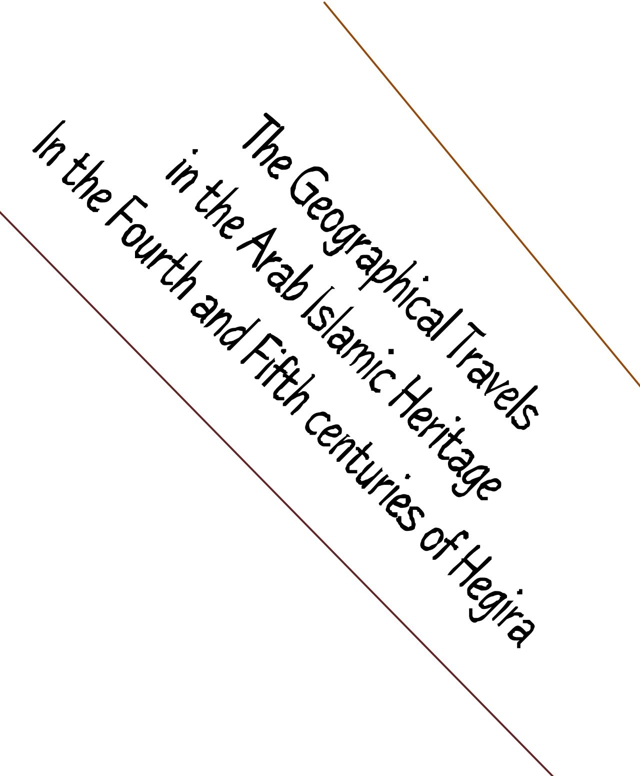
بقلم

د.سام محمد الحامد علي

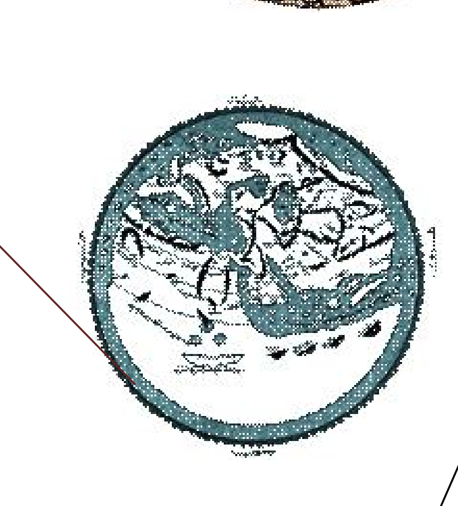
باحث وكاتب ومدير مركز الصفوة للدراسات

دمشق - الجمهورية العربية السورية

Samsafwaweb@yahoo.com

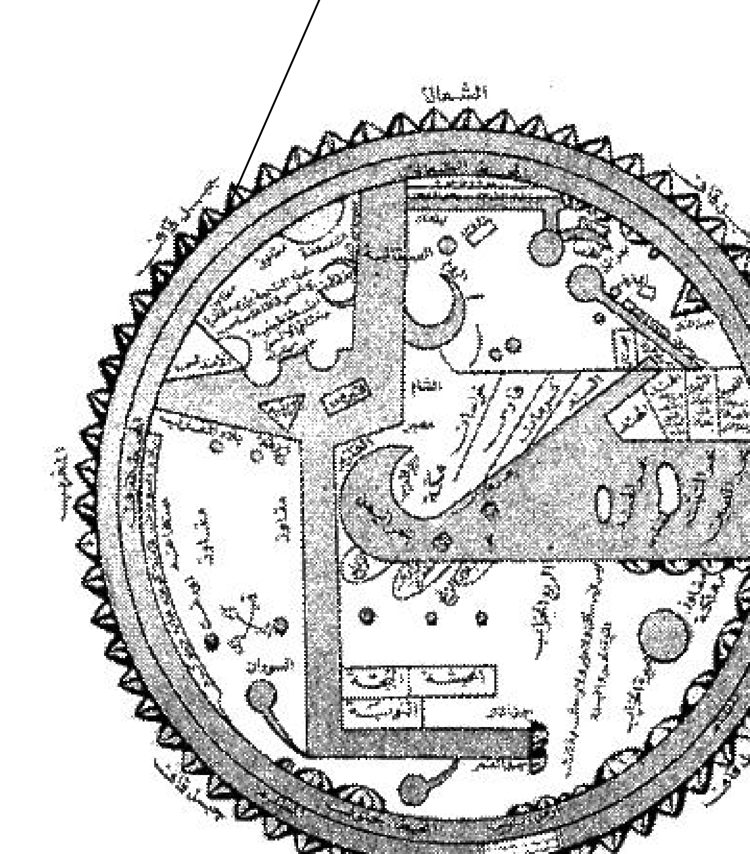


The Geographical Travels in the Arab Islamic Heritage In the Fourth and Fifth centuries of Hegira



الرحلات الجغرافية في التراث العربي الإسلامي

في القرنين الرابع والخامس الهجريين



د.خليف مصطفى غرايبة

استاذ مساعد - قسم العلوم الأساسية

كلية عجلون الجامعية - جامعة البلقاء التطبيقية

المملكة الأردنية الهاشمية

khlaifgh@yahoo.com



الملخص

كان للرحلات الجغرافية التي قام بها ودوّنها الرحالة الجغرافيون العرب والمسلمون في القرنين الرابع والخامس الهجريين مميزات واضحة لاعتمادها على المشاهدة والحس، مما حمل هؤلاء الرحالة على تدوين مشاهداتهم من خلال أسفارهم وتنقلاتهم العلمية أو الدينية أو التجارية، وساعدهم على ذلك اتساع رقعة الدولة الإسلامية التي امتدت من الصين شرقاً إلى سواحل المحيط الأطلسي غرباً ومن وسط أوروبا شمالاً إلى وسط أفريقيا جنوباً.

ومن أشهر هؤلاء الرحالة المسعودي وإبن فضلان والمقدسي وابن حوقل وناصر خسرو، وقد ساهم هؤلاء في إثراء الفكر الجغرافي من خلال إنتاجهم العلمي المتنوع، سواء كان ذلك في مجال الجغرافيا الوصفية أو تأليف المعاجم والموسوعات الجغرافية، أو رسم الخرائط وإنتاج الأطالس. وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور هؤلاء الرحالة في إثراء التراث العربي الإسلامي بالمعارف الجغرافية المتعددة.

مقدمة:

لقد برع العرب المسلمون في كافة العلوم خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وكان لعلم الجغرافيا اهتمام خاص من قبلهم ، ولقد صُرفت جهود كبيرة ومتزايدة الى دراسة الفكر الجغرافي العربي وتطوّره ، واعتاد كثير من كتاب الغرب أن يصفوا جهود المسلمين بأنها متألقة في مجالات عديدة من التخصصات العلمية وفي مقدمتها الرحلات الجغرافية.

وقد نتج ذلك بسبب ما ورثه العرب من معارف قديمة غربية وشرقية التي استخدموها في استحثاث خطوات التقدم العلمي لديهم ، فما كانوا مجرد مقلدين ومنقادين تستعبدهم النماذج الاجنبية ، بل كانت لديهم خصائصهم من العزم والعقل والكفاية مما أبرز الطابع الفريد لتلك الخصائص[(١)] على كل ما تسلموه او استعاروه من الغير.

وقد بلغ الادب الجغرافي العربي الإسلامي ذروته في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، و شكل أدب الرحلات مصدراً هاماً من مصادر المعرفة الجغرافية في التراث العربي الإسلامي بشكل خاص والتراث العالمي عام ، ومن هنا جاءت أهمية هذه الدراسة التي تهدف الى إبراز دور الجغرافيين العرب المسلمين في ازدهار وتقدم الفكر الجغرافي خلال القرنين المذكورين سابقاً ، وستكون هذه الدراسة ضمن المحاور التالية:

أوّلاً: عوامل ازدهار وتقدم الرحلات الجغرافية عند العرب المسلمين
ثانياً: أمثلة لمشاهير الرحالة من الجغرافيين العرب والمسلمين
ثالثاً: جهود الجغرافيين العرب المسلمين من خلال الرحلات الجغرافية
رابعاً: الخاتمة

وسنتناول بشكل موجز هذه المحاور وبما يخدم الهدف الرئيسي للدراسة:

أوّلاً: عوامل ازدهار وتقدم الرحلات الجغرافية عند العرب المسلمين

تتمثّل أهم العوامل التي ساعدت على ظهور وتقدم أدب الرحلات الجغرافية عند العرب المسلمين بمايلي[(٢)] :

١. العامل الديني : ويتمثّل في حث القرآن الكريم المسلمين على التأمّل في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وحركة الشمس اليومية ، وتغيّر أوجه القمر والتعرّف على الأماكن والنظر في مظاهرها والبحث عن مكوناتها فيقول تعالى (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)[(٣)] ، ولذلك فقد كان لهذا العامل الأثر الكبير في تقدم المعرفة الجغرافية عن الأمصار الإسلامية المختلفة.

٢. عامل الفتوحات الإسلامية واتساع أراضي الخلافة: فقد امتدت الفتوحات من حدود الصين شرقاً حتى المحيط الاطلسي غرباً ثم البحر المتوسط بجميع جهاته ، إضافة إلى اسبانيا وفرنسا ووسط أوروبا شمالاً والى وسط افريقيا جنوباً ، وقد شجعت هذه الظروف طلاب العلم وعشاق الأسفار على الرحلات الجغرافية وتدوين مشاهداتهم في كتب زخرت بها المكتبة العربية الإسلامية[(٤)] ، لذلك كانت الفتوحات الإسلامية من العوامل الهامّة التي ساعدت في فترة مبكرة الجغرافيين المسلمين على اكتشاف العلوم الجغرافية وتطوّرها ونشرها.

٣. عامل الحج : حيث كان الحج أحد فرائض الدين الإسلامي ، وعندما يفد المسلمون من جهات العالم كانوا من الطبيعي أن يقضوا أشهراً في سفرهم إلى الديار المقدسة مما يدفعهم إلى التزوّد بالمعلومات الجغرافية عن طبيعة رحلتهم إلى الحج ، كما كانوا يدوّنون الملاحظات الجغرافية من وجهات نظر متعددة عن مشاهداتهم أثناء هذه الرحلة.

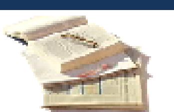
٤. الرحلة في طلب العلم وتأكيد الدين الإسلامي على ذلك.

٥. التجارة ودورها في تشجيع الأسفار ، وكان لاتّساع طرق المواصلات والأمن السائد أثرهما في التشجيع على شدّ الرحال والطواف في البلدان ، وكانوا يشعرون في أي بلد يحلّون فيه كأنهم في بلدهم ، وكانت منتجات الأندلس والمغرب ومصر والحبشة والجزيرة العربية وفارس ومُنتجات الأقطار المُحيطة ببحر قزوين وبضائع الهندوالصين تتدفّق على مكة والمدينة والكوفة والبصرة ودمشق وبغداد والموصل ، كما أنّ قيام المستوطنات الإسلامية قد أحدث مراكز أعمال جديدة وفتح طرقات هامة ، وهذه كلّها عوامل سهّلت حريّة التنقّل والتّرحال في أرجاء العالم المعروف لدى الرّحالة العرب والمسلمين[(٥)].

وقد ساهمت حركة التجارة مُساهمة فعّالة في اتساع مراكز التنقّل والترحال ، وكان للعرب علاقات تجارية واسعة مع الهند والصين وافريقيا الداخلية وشمال أوروبا علاوة على حركتهم البحرية الهائلة عبر البحار والمحيطات المُحايدة لهم ، فاستعملوا موانئ الخليج العربي وميناء عدن وميناء سراف[(٦)] فانتعشت الحياة وتعدّدت مراكز العلم في المشرق.

٦. الاستعداد الفطري لدى العرب النابع من واقع حياتهم في جزيرة العرب ، ويتمثّل هذا الاستعداد في حبّ الاكتشاف للمناطق المجاورة.

٧. الاتّصال بالثقافات الاجنبية عن طريق الترجمة ، حيث أعطى العرب لأنفسهم الحرية الكاملة لاقتباس نتائج وطرق أبحاث الذين سبقوهم من المفكرين سواء كانوا من اليونانيين أو الهنود أو غيرهم ، ولذلك ففي القرن التاسع الميلادي ظهرت أوّل مدرسة جغرافية عربية بمعنى الكلمة ، حيث بدأت في ذلك العصر ترجمة أبحاث كل من بطليموس وأرسطو الى اللغة العربية .



ثانياً:أمثلة لمشاهير الرحالة من الجغرافيين العرب والمسلمين

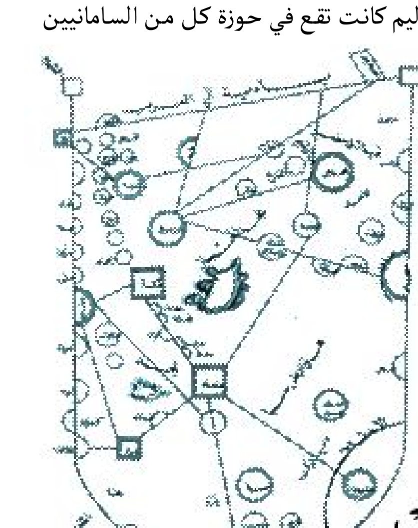
تعدّدت وتنوّعت اهتمامات الرحالة في تدوين وكتابة مشاهداتهم الشخصيّة أثناء تنقّلهم وترحالهم في أرجاء العالم الإسلامي ، ويُمكن القول بأنّ الملاحظة الشخصية كانت أهم مصدر من مصادر المعرفة الجغرافية لدى هؤلاء الرّحالة الذين كثُر عددهم وغزُر إنتاجهم العلمي ، وقد تعدّدت وتنوّعت الأماكن التي ظهر فيها هؤلاء الرحالة من المناطق العربية أو من بلاد فارس أو من بلاد ماوراء النهرين والقوقاز وغيرها ، وفي هذه الدراسة سنُشير الى خمس من الرّحالة العرب والمسلمين الذين كان لهم باع طويل في الرّحلات الجغرافية والنتاج العلمي الذي ترتب عن ذلك وهم[٧] :

١. المسعودي: وهو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، توفي عام ٣٤٦هـ (٩٥٧م) بالفسطاط ، كان كثير الأسفار وقد زار بلاد فارس والهند والسند والبنجاب وسيلان وملبار وأصقاع بحر قزوين والسودان وجنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين واصطخر والروم وانتهى به المطاف إلى الفسطاط[٨] ، وللمسعودي العديد من المؤلفات أهمها "مروج الذهب ومعادن الجوهر"[٩] و"الملاك وأهل الديارات" و"التنبيه والاشراف" و"سرّ الحياة" علاوة على بعض المؤلفات في التاريخ[١٠] .

٢. ابن فضلان: وهو أحمد بن عباس بن رشيد بن حماد من طلائع الجغرافيين الرّحالة ، كتب وصفاً دقيقاً وشيقاً لرحلته كعضو في سفارة الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك الصقالبه والبلاد الاسكندنافية التي زارها بين عامي ٩٢١ و ٩٢٤م ، واشتهر بمؤلفه "رسالة ابن فضلان" في وصف رحلته المشهورة إلى بلاد الترك والخزر والصقالبة والروس واسكندنافيا[١١] .

٣. المقدسي: وهو أبو عبدالله محمد ين أحمد بن أبي بكر البشاري المقدسي وُلد في مدينة القدس عام ٣٦٦هـ (٩٤٧م) ، وقد دُعي ببستة وثلاثين اسماً مثل: مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني وسلمي وغيرها وذلك لاختلاف وتعدّد البلدان التي زارها وكثرة المواضع التي دخلها[١٢] .

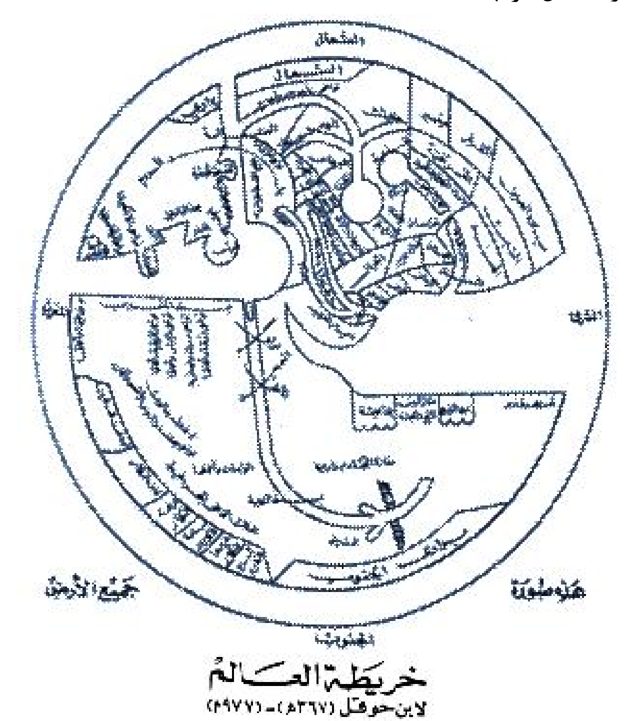
وقد قسم المقدسي الأقاليم التي زارها الى أقاليم العجم وأقاليم العرب ، وقد زار جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب كما زار ارمينيا واذربيجان (الديلم والرحاب) وايران الشمالية (الجبال) وخوزستان وفارس وكرمان والسند والإقليم الأوسط من أقاليم العجم(المفازة) وهذه الأقاليم كانت تقع في حوزة كل من السامانيين والفاطميين[١٣] .



صُورة ديار العَرب
للمقدسي حوالي سنة ٣٧٥هـ - ٩٨٥م

وأشهر مؤلفات المقدسي هو كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم"[١٤] ويُعتبر كتابه هذا من أكثر الكتب أهمية لكل من بحث في الجغرافيا الاقليمية (البشرية أو الاقتصادية أو المناخية أو الطبيعية أو التاريخية)[١٥] ، وقد برع المقدسي في علم الملاحة وبخاصة الخرائط أو المرشدات البحرية وكان يطّلع على ما عند الملاحين من دفاتر ويتدارسها ويتدبرها[١٦] .

٤. ابن حوقل: وهو أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي المشهور بابن حوقل اشتهر برحلاته الواسعة وكان يمضي وقتاً طويلاً في الكتابة عن المناطق والأشياء التي يزورها أو يراها ، أمضى آخر ٣٠ عاماً من حياته مسافراً إلى مناطق نائية في آسيا وأفريقيا ، وقد زار بلاد العرب والبحر الفارسي والمغرب ومصر وسوريا وأراضي الروم وبلاد مابين النهرين وكرمان وبحر قزوين والشعوب التي تقطن حوله ، كما ذكر وشاهد العديد من البحار والمحيطات[١٧] وزار شمال أفريقيا (برقة) وصقلية والأندلس(قرطبة)[١٨] .



خريطة العالم
لابن حوقل (٣٦٧هـ) - (٩٧٧م)

اشتهر ابن حوقل بكتابه "صورة الأرض" الذي تضمّن وصفاً تفصيلياً للأراضي التي سيطر عليها المسلمون في اسبانيا وايطاليا وبلاد الروم والقوقاز وذكر بان عدد اللغات في القوقاز ٣٦٠ لغة[١٩] ، ويذكر ابن حوقل في مقدمة كتابه : "هذا كتاب المسالك والممالك وذكر الأقاليم والبلدان على مرّ الدهور والأزمان وطبائع أهلها وخواص البلاد في نفسها وذكر جباياتها وخراجها ومستغلاتها وذكر الأنهار الكبار واتصالها بشطوط البحار وما على سواحل البحار من المدن والأمصار" ، وقد قسم ابن حوقل كتابه هذا إلى قسمين: الأول منه اشتمل على بحث صورة الارض وديار العرب والبحر الأحمر والعرب والأندلس وصقلية ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق ، في حين اشتمل الثاني على دراسة الأحواز وفارس وكرمان والسند وارمينية واذربيجان والديلم وبحر الخزر ومفازة خراسان وسجستان وماوراء النهر[٢٠] .وتوفي ابن حوقل عام ٣٩٧هـ[٢١] .

٥. ناصر خسرو: رحالة وشاعر وفيلسوف فارسي ولد بجوار بلخ سنة ١٠٠٤ وتوفي عام ١٠٨٨ ، اشتهر بكتابه "كتاب الأسفار" او السفرنامه الذي تم تدوينه بالفارسية وذكر فيه أخبار أسفاره في أرجاء العالم الإسلامي حيث مرّ بفلسطين ومكه وبيت المقدس والهند ، وامتاز بوصفه الدقيق لبيت المقدس ووصفه النادر لأحوال وسط وشرق الجزيرة العربية أيام القرامطة والاخيضريين في القرن الخامس الهجري[٢٢].

ثالثاً:جهود الجغرافيين العرب المسلمين من خلال الرحلات الجغرافية

تُمثل الملاحظة الشخصية أهم مصدر من مصادر المعرفة الجغرافية الى جانب المصادر الاخرى ، كالاعتماد على تراث السلف والحساب الرياضي والرصد الفلكي ، وتمثلت الملاحظة الشخصية بالرحلات التي قام بها الجغرافيون العرب المسلمون وغيرهم من هواة الرحلات وأعضاء الوفود الشرعية ومحترفوا التجارة مع الشرق والغرب ، فكان لهم الفضل في اتّساع معرفة الجغرافيين بأرجاء العالم المعروف[٢٣].

ومن دراسة الرحلات الجغرافية العربية الاسلامية ونتاجها العلمي يمكننا القول بأن الرحالة العرب استطاعوا أن يساهموا في زيادة المعرفة الجغرافية من خلال رحلاتهم في ثلاثة اتجاهات هي[٢٤]:

١. ناحية الشرق الاقصى (آسيا) فقد ازدادت اتصالاتهم بالممالك التي تقع في هذه الجهات فوصلوا إلى الصين والهند وايران وعبور جبال تيان والتوغّل مئات الأميال إلى الشرق منها ، ودرسوا جميع المدن التي مروا بها في وسط آسيا كبخارى وسمرقند وفرغانه وغيرها.

٢. ناحية الأراضي السودانية (افريقيا) حيث استطاع الرّحالة العرب المسلمين التوغل في تلك الأراضي الواقعة الى الجنوب من نطاق الصحراء الكبرى وهم أول الرواد الذين وصلوا الى ساحل ناتال واكتشاف مناطق عديدة مثل مدغشقر.

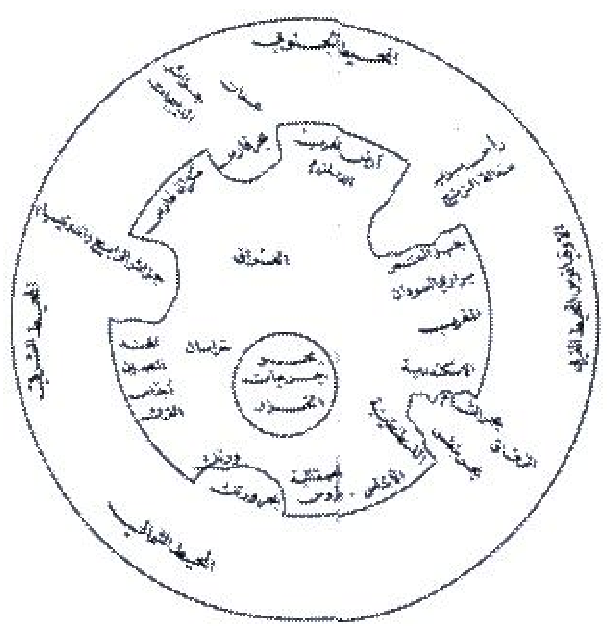
٣. ناحية الاستبس الأوروبية (أوروبا) حيث تمكّنوا من الوصول الى الأراضي الروسية والبولندية ووصلوا شمالاً إلى الدول الاسكندنافية ، ومن دراسة وتحليل النتاج العلمي لهؤلاء الرحالة يمكننا تلخيص جهودهم على النحو التالي :

أولاً –أضاف الرحالة العرب المسلمين إلى خريطة العالم المعروف آنذاك جهات لم تكن معروفة من قبل مثل أواسط وشمال آسيا (كما في رحلة ابن فضلان) في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣١٠هـ (٣٠٩م) ، وفي غرب افريقيا مثل رحلة ابن فاطمه وفي سودان وادي النيل (رحلة ابن سليم الأسواني) في القرن الرابع الهجري ، كما تمّ التعرّف على مراحل المحيط الهندي وجزره والساحل الشرقي لأفريقيا حتى سفالة الزنج (مقابل جزيرة مدغشقر) ورسمها في خرائط[٢٥].

وقد سلك الرحالة العديد من المناطق وقدّموا عنها وصفاً جغرافياً مُفصلاً سهل التعرف عليها ورسم الطرق المؤدية إليها ومنها ورسم الخرائط لها ، وامتازت كتاباتهم بالدقة والتفصيل.

ثانياً –التأليف الجغرافي وقد أضاف هؤلاء الرحالة كماً هائلاً من الإنتاج العلمي عن تفاصيل رحلاتهم ، وقد تعدّدت وتنوعت هذه المؤلفات ونستطيع حصر إنتاجهم العلمي المُستوحى من الرحلات الجغرافية بما يلي:

١. المؤلفات التي امتازت بوصف قطر او إقليم من أقطار وأقاليم العالم العربي أو الإسلامي مثل : البيروني (ابو الريحان محمد بن أحمد) الذي تخصّص في دراسة قطر واحد هو الهند[٢٦] ، وابن الحائك (أبو محمد الحسن أحمد بن يعقوب الهمداني) صاحب كتاب جزيرة العرب(٢٧) ، والمهلبي صاحب كتاب جغرافي عن السودان ألفه عام ٣٧٥هـ ، والإصطخري صاحب كتاب المسالك والممالك الذي درس فيه بلاد العرب بالتفصيل لأنّه اعتبرها مركز العالم الإسلامي[٢٩] ، وناصر خسرو الذي وصف بيت المقدس بالتفصيل[٣٠].



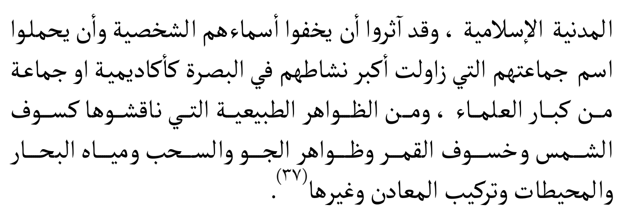
خريطة توزيع البحار للبيروني

٢. المؤلّفات التي امتازت بالوصف الإقليمي لأقطار العالم الإسلامي مثل البلخي صاحب كتاب "صورة الأقاليم والمسالك والممالك"[٣١] ، وابن حوقل الذي تجوّل في أقطار عديدة من العالم الاسلامي وصاحب كتاب صورة الارض كما ألّف كلاً من المقدسي والمسعودي وابن فضلان عن أقطار العالم الإسلامي وقد تم ذكرهم سابقاً ، وقد كتب ابن خرداذبة عن أقطار عديدة من العالم الإسلامي في كتابه المسالك والممالك والطرق المؤدية إليها ومنها[٣٢] ، كما كتب أبو دلف الينبعي (مسعر بن المهلهل الخزرجي) عن أقطار من العالم الإسلامي وهي كشمير وكابل وسستان وسواحل ملبار وذلك في كتابه عجائب البلدان ، وقد كان أبو دلف الينبعي يعمل عند الأمير الساماني نصر بن أحمد بن اسماعيل مابين سنة ٣٠١ -٣٣١هـ[٣٣].

٣. تأليف المعاجم الجغرافية: وأهم هذه المعاجم ماوضعه البكري (ابو عبيدالله عبدالله بن عبدالعزيز) المولود في قرطبة سنة ٤٣٢هـ صاحب المعجم الجغرافي الشهير "معجم ما استعجم" ، وقد اعتمد البكري على مجموعة كتب مثل كتب الجغرافي الأندلسي محمد التاريخي[٣٤] ، وهناك معجم جغرافي آخر شهير للمنجم (اسحق بن حنين الأندلسي) بعنوان "آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان"[٣٥].

٤. المؤلفات التي امتازت بالتخصص في الكتابة عن الظواهر الطبيعية المختلفة: وأكثر من برع في هذا المجال اخوان الصفا الذين عالجوا الظواهر الطبيعية ووضعوا إحدى وخمسين رسالة منها سبعة عشر رسالة تهتم بالجوانب الطبيعية[٣٦] ، وتعتبر مؤلفاتهم من أهم المؤلفات العلمية في القرن الرابع الهجري وأعظمها أثراً في تاريخ





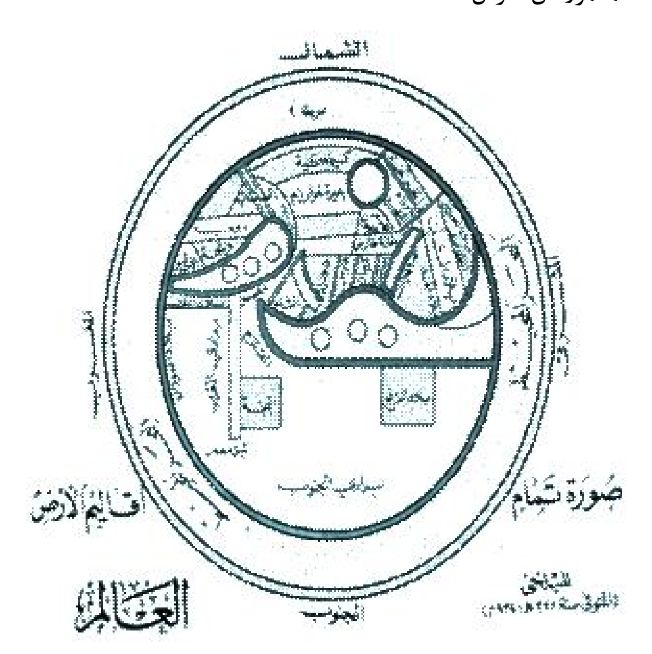
المدنية الإسلامية ، وقد آثروا أن يخفوا أسماءهم الشخصية وأن يحملوا اسم جماعتهم التي زاولت أكبر نشاطهم في البصرة كأكاديمية او جماعة من كبار العلماء ، ومن الظواهر الطبيعية التي ناقشوها كسوف الشمس وخسوف القمر وظواهر الجو والسحب ومياه البحار والمحيطات وتركيب المعادن وغيرها[٣٧].

٥. استعان الرحالة العرب المسلمين أثناء رحلاتهم بالعديد من الآلات والأجهزة العلمية التي ابتكرها من عاصرهم من علماء الجغرافيا وأهم هذه الآلات مايسمى "الاصطرلاب" وأشهر من كتب فيه عبدالرحمن الصوفي المتوفى سنة ٣٧٦هـ والخازن صاحب كتاب "زيج الصفائح" والخوقندي الذي ألّف السداسي الفخري والجبلي والصاغاني والبيروني والسنجاري والزرقابي والبتاني والبوزجاني والمجريطي حيث ساهم هؤلاء في الاضافة العلمية الآلية التي ساعدت الرحالة على سهولة التنقل في اسفارهم[٣٨].



٦. برع الكثير من الرحالة الجغرافيين في علم الملاحة والمُرشدات البحرية مثل المقدسي والمسعودي ، وكان للعرب دور كبير في الملاحة البحرية كما يقول المسيو Guillain بهذا الشأن[٣٩] ، ومن كتب في علوم البحار السرخسي (أحمد بن محمد الطيب) المتوفي سنة ٨٩٩هـ وله رسالة في البحار والمياه والجبال[٤٠].

٧. استعان الرحالة العرب المسلمين أثناء رحلاتهم بالخرائط والأطالس التي وضعها علماء عصرهم من الجغرافيين والرحالة أمثال البلخي[٤١] والإصطخري[٤٢] وابن حوقل[٤٣] والكندي صاحب كتاب "رسم المعمور من الأرض"[٤٤].



رابعاً: الخاتمة

إن الحياة المعاصرة هي حصيلة تظافر جهود حضارية متعددة على مدى عصور متلاحقة ، ومن جملة هذه الجهود الدور الذي لعبه العرب في خدمة الحضارة الإنسانية ، فقد كانت لهم يد طولى في إذكاء الحركة العلمية من خلال الرحلات الجغرافية التي توسّعوا بها خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وقد ساعدهم في ذلك عوامل عديدة من أبرزها العامل الديني الذي يحث على البحث عن العلم والمعرفة أينما كانت ، وقد ساعد دورهم هذا في دفع عجلة التطوّر العلمي محلياً وعالمياً بما أضافوه من علوم جغرافية متعددة قائمة على الملاحظة والمشاهدة .

مما سبق يلاحظ حجم الجهود التي تحقّقت على أيدي الرحالة العرب المسلمين في مجالات الجغرافيا الطبيعية والبشرية ، وقد قام هؤلاء الرحالة بواجبهم خير قيام فأدّوا للنهضة العلمية العالمية خلال القرنين المذكورين سابقاً أعظم الخدمات ، وقادوا الإنسانية في مدارج التقدم والرقي ورعوا أمانة العلم وحفظوا التراث العلمي .

وقد تعدّدت وتنوّعت اهتمامات هؤلاء الرحالة وكثر عددهم وغزر انتاجهم العلمي وفي مقدمتهم المسعودي وابن فضلان والمقدسي وابن حوقل وغيرهم ممّن تجوّلوا في عالم إسلامي واسع ، وكما قال شوقي ضيف "لقد فتح العرب المسلمون الأرض من الهند والصين شرقاً حتى بلاد الأندلس غرباً واهتموا بوصفها وكتبوا عن جغرافيتها وعادات الأمم والشعوب فيها وماعندها من أساطير وخرافات"[٤٥].

إن هؤلاء العلماء العرب قاموا بدورهم في بناء النهضة العلمية وقدّموا لأوروبا والعالم المجاور زاد نهضتهم ، وكانوا كما قال جواهر لال نهرو " آباء العلم الحديث" ، ساعدهم في ذلك[٤٦] : حرية الرأي العلمي ورعاية الحكّام والولاة للعلم والعلماء ، واستعلاء العلماء بعلمهم وزهدهم في الترف والسلطان والاستعداد الذهني لديهم مع الصبر والمثابرة ، وبذلك نستطيع القول : بهذه العوامل والعوامل الأخرى التي ذكرت في سياق البحث تهيّأ المناخ العلمي لسطوع الحضارة العلمية في العصر العربي الإسلامي ، وأتيح للأمّة العربية الإسلامية أن تمثّل حلقة وصل علمي في المسيرة العالمية للعلم خلال العصور الوسطى وخاصّة في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

الهوامش

١. صبري الهيتي وآخرون ، **الفكر الجغرافي وطرق البحث** ، جامعة الموصل ، ١٩٨٥ ، ص ٤٧.

٢. - محمد رشيد الفيل ، **أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب** ، الكويت ، ايلول ١٩٧٩ص٧-١١.

-نفيس أحمد ، **الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي**، ترجمة فتحي عثمان ،دار القلم ، الكويت ، ١٩٧٨ ص٣٨-٤٢.

-مسعود عياد كريم ، **مراحل تطور الفكر الجغرافي**، دار الكتب الوطنية للكتب —بنغازي ، ٢٠٠٧ص ٨٠-٨٨.

٣. سورة الحج ، الآية ٤٦.

٤. عبدالفتاح وهيبة ، **مكانة الجغرافيين من الثقافة الاسلامية** ،جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٩ ص ١٢.

٥. البشير صفر ، **الجغرافية عند العرب :نشأتها وتطورها** ،دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٤٧.

٦. غوستاف لوبون ، **حضارة العرب** ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٥٦ ص ٥٥٣.



٧. كراتشكوفسكي ، **تاريخ الأدب الجغرافي** ، ترجمة صلاح الدين عثمان ، ج١، القاهرة ، ١٩٦٥ ص ١٧٧-١٨٦.
-نقولا زيادة ، **الجغرافية والرحلات عند العرب** ، بيروت ١٩٦٥ ص ١٢٢.
-يسرى الجوهري ، **الكشوف الجغرافية** ، دار المعارف ، القاهرة ،١٩٧٦ ص ٨٠.
٨. Ar.wikipedia.org
٩. المسعودي ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٨.
١٠. —مسعود عياد كريم :المرجع السابق ص ١١٦.
-أحمد ، نفيس : المرجع السابق ص ١٤١-١٤٣.
١١. نفيس أحمد: المرجع السابق ص ٤٦.
١٢. صباح محمود محمد ، **دراسات في التراث الجغرافي العربي** ،دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١ ص ٤٣.
١٣. كارل بروكلمان ، **تاريخ الشعوب الإسلامية** ، تعريب نبيه فارس ومنير البعلبكي ، ط ٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٢٦٥-٢٦٦.
١٤. آدم متز ، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري** ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده ، مطبعة التأليف والترجمة والنشر ط ٣ ، ج ٢ ، ١٩٥٧ ، ص ٢.
١٥. أحمد ابو سعد ، **أدب الرحلات** ، منشورات دار الشروق ، بيروت ، ١٩٦١ ص ٨٠.
١٦. المقدسي ممن اعتقد بأن الأرض كرة يقسمها خط الإستواء إلى نصفين وللمزيد انظر :
Nafis Ahmed: **Muslim Contribution to Geography**, Lahore, 1964, pp34-35.
٧. يسرى الجوهري ، **الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية** ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٤ ، ص ١٠٣-١٠٥.
١٨. مسعود عياد كريم :المرجع السابق ص ١٢٨.
١٩. Swat souck, **A history of inner Asia** , Cambridge university press 2000, p73.
٢٠. -ابن حوقل ، **صورة الارض** ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٧٩.
-الهيتي ، صبري وآخرون ، المرجع السابق ص ٤٩.
٢١. خير الدين الزركلي ، ، **الأعلام** ، ج ٥ ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ ص ١١١.
٢٢. نفيس أحمد ، : المرجع السابق ص ٩١.
٢٣. صبري الهيتي وآخرون ، المرجع السابق ص ٤٦.
٢٤. يسرى الجوهري ، المرجع السابق ص ٦٨-٦٩.
٢٥. صبري الهيتي وآخرون ، المرجع السابق ص ٤٧.
٢٦. حكمت نجيب عبدالرحمن ، **دراسات في تاريخ العلوم عند العرب** ، الموصل ، ١٩٧٦ ، ص ٢١٥.
-عبدالحليم منتصر ، **تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه** ،ط٨،دار المعارف ، القاهرة د.ت ، ص ١٠٢-١٠٣.
٢٧. نفيس أحمد : المرجع السابق ص ٧١.
٢٨. المرجع نفسه ص ٧٩.
٢٩. يسرى الجوهري ، المرجع السابق ص ١٠٠.
٣٠. نفيس أحمد : المرجع السابق ص ٩١.
٣١. صبري الهيتي وآخرون ، المرجع السابق ص ٤٨.
٣٢. يسرى الجوهري ، المرجع السابق ص ٩٩.
٣٣. نفيس أحمد ،: المرجع السابق ص ٦٧.
٣٤. المرجع نفسه ص ٩٢.
٣٥. المرجع نفسه ص ٩٤-٩٥.
٣٦. محمد غلاب ، **اخوان الصفا** ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨ ص ٤.
٣٧. نفيس أحمد : المرجع السابق ص ١٣٨-١٤٠.
٣٨. -المرجع نفسه ص ٢١٠.
-حكمت نجيب عبدالرحمن ، المرجع السابق ص ٢٠٧-٢١٣.
٣٩. حسن صالح شهاب ، **فن الملاحة عند العرب** ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ١٩٨٢ ص ١٨.
٤٠. نفيس أحمد : المرجع السابق ص ٥٦.
٤١. عبدالعال الشامي ، **جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط** ، نشرة الجمعية الجغرافية الكويتية ، الكويت ١٩٨١.
٤٢. ابراهيم شوكة ، **خرائط كتاب الأقاليم للاصطخري** ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ع ١٧ ، بغداد ، ١٩٦٩.
٤٣. ابن حوقل ، المرجع السابق.
٤٤. نفيس أحمد : المرجع السابق ص ٥٦.
٤٥. شوقي ضيف ، **الرحلات** ، دار المعارف ، القاهرة ص ١١-١٢.

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

١. ابن حوقل ، **صورة الارض** ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٧٩
٢. أحمد ابو سعد ، **أدب الرحلات** ، منشورات دار الشروق ، بيروت ، ١٩٦١.
٣. نفيس أحمد ، **الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي** ،ترجمة فتحي عثمان ،دار القلم ، الكويت ، ١٩٧٨.
٤. كارل بروكلمان ، **تاريخ الشعوب الإسلامية** ، تعريب نبيه فارس ومنير البعلبكي ، ط ٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٥.
٥. يسرى الجوهري ، **الكشوف الجغرافية** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦.
٦. يسرى الجوهري ، **الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية** ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٤.
٧. خير الدين الزركلي ، **الأعلام** ، ج ٥ ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠.
٨. نقولازيادة ، **الجغرافية والرحلات عند العرب** ، بيروت ١٩٦٥.
٩. عبدالعال الشامي ، **جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط** ، نشرة الجمعية الجغرافية الكويتية ، الكويت ١٩٨١.
١٠. حسن صالح شهاب ، **فن الملاحة عند العرب** ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ١٩٨٢.
١١. ابراهيم شوكة ، **خرائط كتاب الأقاليم للاصطخري** ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ع ١٧ ، بغداد ، ١٩٦٩.
١٢. ابراهيم صفر ، **الجغرافية عند العرب :نشأتها وتطورها** ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ١٩٨٤.
١٣. شوقي ضيف ، **الرحلات** ، دار المعارف ، القاهرة.
١٤. حكمت نجيب عبدالرحمن ، **دراسات في تاريخ العلوم عند العرب** ، الموصل ، ١٩٧٦.
١٥. محمد غلاب ، **اخوان الصفا** ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨.
١٦. محمد رشيد الفيل ، **أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب** ، الكويت .
١٧. كراتشكوفسكي ، **تاريخ الأدب الجغرافي** ، ترجمة صلاح الدين عثمان ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٦٥.
١٨. مسعود عياد كريم ، **مراحل تطور الفكر الجغرافي** ، دار الكتب الوطنية للكتاب —بنغازي ، ٢٠٠٧.
١٩. غوستاف لوبون ، **حضارة العرب** ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٥٦.
٢٠. آدم متز ، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري** ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده ، مطبعة التأليف والترجمة والنشر ط ٣ ، ج ٢ ، ١٩٥٧.
٢١. صباح محمود محمد ، **دراسات في التراث الجغرافي العربي** ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١.
٢٢. المسعودي ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٨.
٢٣. عبدالحليم منتصر ، **تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه** ، ط٨، دار المعارف ، القاهرة د.ت.
٢٤. صبري الهيتي وآخرون ، **الفكر الجغرافي وطرق البحث** ، جامعة الموصل ، ١٩٨٥
٢٥. عبدالفتاح وهيبة ، **مكانة الجغرافيين من الثقافة الاسلامية** ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٩.

- Ar.wikipedia.org
Nafis Ahmed: **Muslim Contribution to Geography**, Lahore, 1964, - pp34-35.
Swat soucck, **A history of inner Asia** , Cambridge university press - 2000, p73.

معالم من حياة اليهود المغاربة





عبد الله أيت إيشو
عضو هيئة التحرير
أستاذ التاريخ والجغرافيا - المملكة المغربية
abdelah1983@gmail.com

إن محاولة البحث عن التاريخ الحقيقي لاستقرار اليهود بالمغرب ،يكتنفه الغموض ، وذلك نظرا لقدم الاستقرار ولغياب الأدلة الكافية ،ويرجع الباحث حاييم الزعفراني تواجد اليهود بالمغرب إلى عهود سحيقة " فجذور يهودية الغرب الإسلامي تمتد في ماض سحيق ، إذ يعتبر اليهود تاريخيا ، أول مجموعة غير بربرية وفدت على المغرب ، وما تزال تعيش فيه إلى يومنا هذا "[١] ويسانده في هذا الرأي إبراهيم حركات حيث يقول ،"وقد كان مجيئهم إلى الشمال الإفريقي في هجرات متقطعة كانت أولاها صحبة الفينيقيين ، والواقع أن اليهود تمكنوا من معايشة المسلمين في أجزاء كثيرة من المغرب"[٢].

إن هذا الغموض يفسح المجال لعدة فرضيات وأراء تتضارب مضامينها ، فهناك فرضية تعتبر دخول اليهود إلى المغرب كان نتيجة تعقب قائد جيوش الملك داود ،وهو يواب بن سرتيا لسكان فلسطين إلى منطقة شمال إفريقيا وخصوصا منطقة درعة حوالي القرن العاشر قبل الميلاد [٣].

أمام تضارب هذه الفرضيات تضيع حقيقة تاريخ اليهود بالمغرب ، ويبقى الأمر الوحيد المتفق عليه من قبل الباحثين والمؤرخين هو كون اليهود ثاني عنصر بشري استقر بالمغرب بعد الأمازيغ.

لقد انتشر اليهود بشكل واسع في العديد من مناطق المغرب ، ويلاحظ أن الغالبية العظمى منهم تتمركز إما في الحواضر الكبرى ذات الأهمية الاقتصادية ، مثل حاضرة فاس ، سجلماسة ، أسفي. وقد تمكن اليهود طيلة القرون التي استقروا خلالها بالمغرب ، من تكوين فئة اجتماعية متميزة عن السكان المحليين ، سواء من الناحية الدينية أو العرقية أو التقاليد. وتعتبر مرحلة الفتح الإسلامي من أهم الفترات التي برز فيها اليهود وتمتعوا خلالها بمجموعة من الحقوق والامتيازات.

يعتبر الجانب الديني من أهم المميزات التي ميزت المجتمع اليهودي عن باقي سكان المغرب عبر التاريخ خاصة في الفترة الإسلامية حيث كان اليهود حريصين على أداء تعاليم دينهم وتجلى ذلك في مختلف عاداتهم وتقاليدهم والاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية والمراسيم الجنائزية ، ومن المظاهر التي تبين تشبث اليهود بديانتهم زيارتهم لمقابر أوليائهم وتقديسهم ، وتجدر الإشارة إلى انه يوجد بالمغرب ٦١٢ ضريحا للأولياء اليهود من بينهم ٢١٤ بالأطلس الكبير ، ١٠٢ بالساحل و٣٢ بدرعة وصاغرو.[٤]

أما على المستوى الاقتصادي فقد لعب اليهود دورا كبيرا في تحريك اقتصاد المغرب إبان فترات استقرارهم وتجلى ذلك من خلال اهتمامهم بالصناعة خاصة التقليدية والحرف ،ويرجع ذلك أولا إلى تعاليم دينهم التي تفرض على كل يهودي أن يعلم ابنه حرفة منذ صغر سنه ، "يعتبر تعليم الابن مهنة من المهن ، فريضة شرعية ... وعموما يتعلم الولد مهنة والده مثل الصياغة والنجارة"[٥] والسبب الثاني هو براعتهم وإتقانهم لمختلف الحرف اليدوية مثل صياغة الذهب والفضة.

---

١ حاييم الزعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب (تاريخ-ثقافة-دين) ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ الدار البيضاء ص ٩

٢ إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ: ج ١ ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ ، دار الرشاد الحديثة ، ص ٥٦

٣ حاييم الزعفراني: المرجع السابق ،ص٩

٤ جريدة الإتحاد الاشتراكي : السبت ٢٩ يناير ٢٠٠٠ ، العدد ٦٠١٥

٥ حاييم الزعفراني ، ص ٨٤

لقد احتكر اليهود مجموعة من الحرف ، خاصة صياغة المعادن النفيسة ، والظاهر أن المغاربة المسلمين هم الذين هيئوا الفرصة أمام اليهود كي يحتكروا هذه المهنة تبعا لاعتقاداتهم الدينية ، نقول هذا الكلام بناء على شهادة حسن الوزان مؤداها :"لا يمكن لأي مسلم أن يمارس مهنة صائغ ،إذ يقال أن بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمن أعلى مما يساويه وزنها يعتبر ربا ،ولكن الملوك يسمحون لليهود بالقيام بهذا العمل [٦] .



يهوديان مغاربة في حارة يهودية بمراكش

إلى جانب الأنشطة الصناعية نجد أن اليهود اهتموا كذلك بالفلاحة خاصة في المناطق الفلاحية والبوادي المغربية ، وكان اليهود ينتجون مختلف المواد الزراعية من حبوب وأشجار واهتموا كذلك بتربية الماشية . رغم هذا الاهتمام بالفلاحة فإن عدد اليهود الذين كانوا يشتغلون في هذا الميدان قليل مقارنة مع القطاعات الاقتصادية الأخرى ، ويعزى ذلك إلى "انعدام الأمن أساسا ، ولأسباب اقتصادية واجتماعية أيضا وربما يرجع ذلك لاشمئزاز اليهود من الأعمال الجسمانية الشاقة ذات المردود القليل بالرغم من ضياع الوقت الكثير" [٧].

تعد التجارة أهم القطاعات الاقتصادية التي اهتم بها اليهود وقد ساهم في ذلك استقرارهم منذ وقت مبكر بالمراكز التجارية الكبرى مثل فاس وسجلماسة ودرعة ، وقد مكنهم هذا من المشاركة في التجارة القادمة من السودان ، وفي الفترات المتأخرة من استقرار اليهود بالمغرب يمكن أن نميز بين فئتين من التجار اليهود:

الفئة الأولى تهتم بالتجارة الخارجية وهي الفئة الغنية التي تتوفر على رؤوس الأموال الكبيرة ولها علاقات مع المخزن وكانت تحتكر تصدير المواد (الحبوب ،الجلد ،والشموع ...).

الفئة الثانية تهتم بالتجارة الداخلية ، وهم تجار التقسيط الصغار والتجار المتجولين وكانت تجارتهم تشمل جميع المواد مثل الحبوب والجلود والمعادن النفيسة.

استطاع اليهود بفعل مساهمتهم الفعالة في الأنشطة الاقتصادية من تحسين الوضعية الاقتصادية للمغرب [٨] وهو ما أهلها إلى تقلد مناصب سامية في المخزن المغربي"فقد أحتل عدد مهم منهم أدوار بارزة في الميدان الدبلوماسي وكان ميمران مستشارا لدى مولاي إسماعيل ، كما تولى بن عطار باسم المغرب عقد معاهدة ١٧٢١ مع إنجلترا " [٩]. ومن ثم لا عجب إذا كان القاسم المشترك بين هذه الفئة هو الثراء والغنى ، ولا عجب أيضا إذا حماهم الملوك وضاعفوا عليهم الجزية في آن واحد ونقصد هنا بالخصوص يهود فاس.

أما الأغلبية الساحقة من عامة اليهود فتعيش من التجارة الصغيرة والحرف وقد استمرت هذه الوضعية إلى حين رحيل أغلبية اليهود عن المغرب عند بداية القرن ٢٠ م ، ويرجع ذلك إلى مجموعة من العوامل "بعد قيام دولة إسرائيل ١٩٤٨ واستقلال المغرب١٩٥٦ بدأنا نشاهد تمزق الطائفة وهجرة الأغلبية الساحقة من أفرادها ، وهكذا حكم بالاختفاء نهائيا على مجتمع ظل مستقرا في البلد منذ ما يقرب من ألفي سنة [١٠] . لكن السبب الرئيسي هو قابلية هذه الطائفة لتبني الأيديولوجية الصهيونية والاستعداد للالتحاق بموطن أجدادهم- كما يدعون- فتشبث اليهود بديانتهم جعلهم ينتظرون اليوم الذي سوف يرحلون فيه إلى فلسطين والاستقرار بها .



حرفي يهودي مغربي

لقد انتهى تواجد اليهود بالمغرب بشكل شبه كلي بعد فترات استقرار دامت أزيد من ألفي سنة ، تمكنوا خلالها من ترك بصماتهم في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ،كما أنهم تأثروا بالسكان المحليين وأخذوا عنهم العديد من العادات والتقاليد ، ولم يعد من ذلك التاريخ سوى ذكريات يعتز بها يهود المغرب ، ومازال صداها يتردد كذلك في روح المهاجرين وتدوي في موسيقاهم وغنائهم وفلكلورهم وشعائرهم ، وفي مزاراتهم الجماعية لقبور أوليائهم المحليين.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ: ج ١ ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ ، دار الرشاد الحديثة.
- حاييم الزعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب (تاريخ- ثقافة- دين) ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ الدار البيضاء .
- عصام البوستاوي ،المعاملات الإقتصادية اليهودية في مجال سكورة انطلاقا من وثائق تاريخية ، بحث لنيل الإجازة ٢٠٠٤.

---

٦ الحسن الوزان ،ص ٢١٩
٧ حاييم الزعفراني ،المرجع السابق ،ص ١٢٠
٨ عصام البوستاوي ،المعاملات الإقتصادية اليهودية في مجال سكورة انطلاقا من وثائق تاريخية ، بحث لنيل الإجازة ٢٠٠٤ص ١٠

٩ ابراهيم حركات ،المغرب عبر التاريخ ،الجزء الثالث ،الطبعة الأولى الدار البيضاء سنة ١٩٨٥ ،ص ٤٨٢
١٠ حاييم الزعفراني ،المرجع السابق ،ص ٢٨٩

فكأنما بك للعقيدة مولد

وكأنما لك في العقيدة مولد

نظرة تاريخية في ذكرى مولد خير البرية



سيد سعد

المشرف الفني على دورية كان التاريخية

صاحب مدونة مكسرات

elsayed_saad@hotmail.com

ولد النبي محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) منذ حوالي ألف وخمسمائة عام وبالتحديد سنة ٥٧٠م ، وكان مولده في الجزيرة العربية يوم ١٢ ربيع أول من عام الفيل بمثابة فجر جديد أشرق على البشرية حيث جاء بدين جديد ورسالة جديدة هدفها الخير والعدل والتسامح.

فقد اتفق العلماء على أن المولد النبوي لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا زمن دولة الخلفاء الراشدين ولا في زمن الدولة الأموية لكنه وجد زمن العبيدية الفاطمية بمصر (٣٥٨-٥٦٧ هـ). فالناظر في السيرة النبوية وتاريخ الصحابة والتابعين وتابعيهم وتابع تابعيهم بل إلى ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين سنة هجرية لم نجد أحدا لا من العلماء ولا من الحكام ولا حتى من عامة الناس قال بهذه العمل أو أمر به أو حث عليه أو تكلم به .

قال الحافظ السخاوي في فتاويه :"عمل المولد الشريف لم ينقل عن أحد من السلف الصالح في القرون الثلاثة الفاضلة وإنما حدث بعد".

أما المقريزي فيقول في كتابه الخطط (١/ ص ٤٩٠وما بعدها):" ذكر الأيام التي كان الخلفاء الفاطميون يتخذونها أعياداً ومواسم تتسع بها أحوال الرعية وتكثر نعمهم.." وكان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم وهي مواسم (رأس السنة)،ومواسم (أول العام)،(ويوم عاشوراء) ،(ومولد النبي صلى الله عليه وسلم) ، (ومولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه) ، (ومولد الحسن والحسين عليهما السلام) ، (ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام)،(ومولد الخليفة الحاضر) ، (وليلة أول رجب) ، (ليلة نصفه) ، (وموسم ليلة رمضان) ، (وغرة رمضان)،(وسماط رمضان)،(وليلة الختم)،(وموسم عيد الفطر)،(وموسم عيد النحر)،(وعيد الغدير)،(وكسوة الشتاء)،(وكسوة الصيف)،(وموسم فتح الخليج)،(ويوم النوروز)،(ويوم الغطاس) ، (ويوم الميلاد) ، (وخميس العدس) ، (وأيام الركوبات)".

وقال المقريزي في اتعاظ الحنفاء(٤٨/٢)سنة (٣٩٤): "وفي ربيع الأول ألزم الناس بوقود القناديل بالليل في سائر الشوارع والأزقة بمصر". وقال في موضع آخر (٩٩/٣)سنة (٥١٧): "وجرى الرسم في عمل المولد الكريم النبوي في ربيع الأول على العادة".وانظر (١٠٥/٣).

هذا أول ما تورده المصادر التاريخية عن إقامة المولد ، وإن كان الحافظ السيوطي في رسالته "حسن المقصد في عمل المولد خالف هذا فقال: "وأول من أحدث فعل ذلك صاحب إربل الملك المظفر أبو سعيد كوكبري بن زين الدّين علي بن بكتكين ، أحد الملوك الأمجاد والكبراء الأجواد". وذلك في أوائل القرن السابع للهجرة.

وقد يمكن الجمع بين القولين ، بأن الذين نسبوا إحداث المولد للعبيديين الفاطميين قصدوا بداية الفكرة ، وهي الاجتماع وأكل الطعام وتعليق الزينات وإظهار الفرح والسرور ، وهو ما ذكره المؤرخون عن موالد العبيديين الذين كانوا ينفقون مبالغ طائلة جداً في هذه المناسبات لإعداد الطعام والحلويات بلغت سنة ٥١٧هـ ٤٦٧,١٤٠ ألف دينار كما أثبته د. أيمن فؤاد سعيد في كتابه "الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد" (ص ٥٦١).

وكان الفاطميون يصنعون في الموالد "عروسة المولد" ، وهي من السكر المذاب ، فهذه بداية المولد مع الفاطميين أكل وزينات. أما السيوطي وابن كثير فقصدوا بداية قراءة المولد وإنشاد المدائح.

ويعتقد البعض أن فكرة الموالد والاحتفال بها فكرة قديمة سابقة على الإسلام ، كما ذكر ذلك عبد الغني النبوي الشال في كتابه "عروسة المولد" بقوله: "ولا شك أن ظهور عروسة الحلوى قد أخذه الفاطميون عن عادات قديمة إما مصرية وقبطية وإما فارسية وصينية" ، ويرجح الشال المصدر المصري ، وهذا لا يسلم له ، فقد ظهرت هذه العروس مباشرة بعد احتلال الفاطميين مصر ولم يتح لهم وقت كافٍ لمعرفة حضارة المصريين القدماء ، إلا أن هذه القضية تحتاج مزيد من البحث والدراسة فربما كانوا يعرفونها أصلاً في تراثهم الفارسي القديم.

الواقع أن ؛ الخليفة الفاطمي "المعز لدين الله" عندما جعل مدينة القاهرة عاصمة خلافته حاول أن يستميل الشعب المصري ، فأمر بإقامة أول احتفال بالمولد النبوي الشريف عام973 هـ . ويرى جمال بدوي مؤلف كتاب "الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" أن إحداث المولد من "كياسة الدولة الفاطمية وتفهمها لنفسية الجماهير ، فهي تعلم أن الشعب المصري مفتون بالسمر والفرح ، فخلقت مثل هذه الطرائف من الحلوى ومثل هذه الأعياد والحفلات ... فحققت هدفين: إشباع المواطنين المصريين إشباعاً دينياً بالموالد والاحتفال بها وتقوية الحركة الصوفية ، وإبعاد المواطنين عن التفكير في محاسبة الحكام".

إلا أن المولد الذي ظهر زمن الفاطميين ومنهم انتشر في العالم الإسلامي ، فقد ألغي زمن الدولة الأيوبية ، حيث حاربت الدولة الأيوبية الاحتفالات والتقاليد الفاطمية لمحو نفوذ الفاطميين من العالم الإسلامي ، ولأن الدولة الأيوبية كانت سنية المذهب بينما سابقتها شيعية مغالية ، لكن المصريين عادوا للاحتفال بالمولد النبوي في عصر المماليك.

فقد ذكر "ابن إياس" الاحتفال في عهدين ؛ حيث عاصر في ربيع الأول عام ٩٢٢هـ احتفالات السلطان المملوكي "قنصوه الغوري" الذي اتسم بالبذخ والترف ؛ حيث نصبت قاعة ضخمة بخيمة كبيرة في وسطها قبة على أربعة أعمدة مرتفعة زُينت بالأواني والطاسات النحاسية وجلس على رأسها السلطان الغوري ومن حوله القضاة والأمراء وأعيان البلاد ، والقراء والوعاظ ، وبدأت الاحتفالات بمد الأطباق الحافلة بمختلف أنواع الأطعمة والمشروبات وتبارى المنشدون في المدائح النبوية .

وفي العام التالي ٩٢٣ هـ سجل "ابن إياس" أن الصورة تغيرت تمامًا ؛ حيث دخل العثمانيون مصر ولم يهتموا بإقامة احتفالات المولد ، وربما يرجع ذلك إلى نفس سبب محاربة الأيوبيين للاحتفال بالمولد ، لكنه ظهر بعد ذلك.

فقد ذكر المؤرخ "عبد الرحمن الجبرتي" في كتابيه عجائب الآثار(٢٠١/٢، ٢٤٩) ومظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس (ص٤٧) ان المستعمرين الفرنسيين عندما احتلوا مصر بقيادة نابليون بونابرت انكمش الصوفيه وأصحاب الموالد فقام نابليون وأمرهم بإحيائها ودعمها.

فقد اهتم نابليون بونابرت بإقامة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف سنة ١٢١٣هـ ١٧٩٨م ، من خلال إرسال نفقات الاحتفالات وقدرها ٣٠٠ ريال فرنسي إلى منزل الشيخ البكري (نقيب الأشراف في مصر) بحي الأزبكية ، وأرسلت أيضًا إليه الطبول الضخمة والقناديل.. وفي الليل أقيمت الألعاب النارية احتفالاً بالمولد النبوي ، وعاود نابليون الاحتفال به في العام التالي لاستمالة قلوب المصريين إلى الحملة الفرنسية وقوادها!

قال الجبرتي في مظهر التقديس :" وفيها (أي سنة ١٢١٣هـ ربيع الأول):سأل صاري العسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم فاعتذر الشيخ البكري بتوقف الأحوال وتعطل الأمور وعدم المصروف فلم يقبل وقال (لابد من ذلك) وأعطى الشيخ البكري ثلاثمائة ريال فرانسة يستعين بها فعلقوا حبالا وقناديل واجتمع الفرنسيس يوم المولد ولعبوا ودقوا طبولهم واحرقوا حراقة في الليل وسواريخ تصعد في الهواء ونفوطاً". وقد أوضح الجبرتي هدفهم من تأييد ودعم مثل هذه الموالد حيث يقول في تاريخ عجائب الآثار(٣٠٦/٢): "ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء وإتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات".

أما العلامة شبلي النعماني في كتابه "سفر نامه روم ومصر وشام" ، والذي طبع في مصر باسم "رحالة هندي في بلاد الشرق العربي" ، كتب عن مشاهداته بمصر للمولد سنة ١٣٨٢هـ ١٨٩٢م ، فقال: "الاحتفال بالمولد هنا تتم في قطعة أرض فضاء ... ويجتمع في كل خيمة جماعة خاصة من الفقراء والصوفية ويذكرون الله طبقاً لطريقتهم ، وطريقة الذكر تختلف تماماً عن طريقة دراويش الهند ، حيث يقف جميع الناس في دائرة ويهتفون بصوت مرتفع معاً بكلمات خاصة بالذكر ، ويقتربون من الركوع مع هذه الكلمات ، ويأتون بحركات عجيبة برقابهم وخصرهم ، ولو نظر إليهم أحد من بعيد يخالهم يمارسون تدريبات رياضية ، وطريقة رقص الدراويش أكثر عجباً".

وتعد "حلوى المولد" من المظاهر التي ينفرد بها المولد النبوي الشريف ، ويذكر المؤرخون أن الفاطميين هم أول من بدأ في صنع العروس من الحلوى في المولد ،فكانت سوق الحلاويين تمتلئ بتماثيل السكر على هيئة السباع والقطط والخيول والعرائس. وكانت تسمى هذه التماثيل "العلاليق"، وهي تعلق بخيوط على واجهات المحلات ، كما كان الأمراء الفاطميون يقيمون المآدب الكبرى من أنواع الطعام والحلوى ، ويفتحونها لعامة الناس ، ويقدمون مسرحيات لتسلية الجماهير عن طريق "خيال الظل" ، وتبقى الشوارع مكتظة لعدة أسابيع ، وكانت المشاعل تُضاء من القلعة إلى الخانكة احتفالاً بهذه الليلة الكريمة.

وذكر المقريزي أنها كانت تصنع من السكر على هيئة حلوى منفوخة وتجمل بالأصباغ ، ويداها توضعان في خصرها وتزين بالأوراق الملونة والمراوح الملتصقة بظهرها. ويقال في أصل العروسة أنه ولإعجاب الحاكم بأميرته أمر بان تخرج معه في يوم مولد الرسول بردائها البيض وعلي رأسها تاج من الياسمين فقام أصحاب متاجر الحلوى برسم الأميرة في قالب الحلوى وقلد ذلك آخرون فرسموا الحاكم وهوي يركب الحصان وصنعوه من الحلوى.

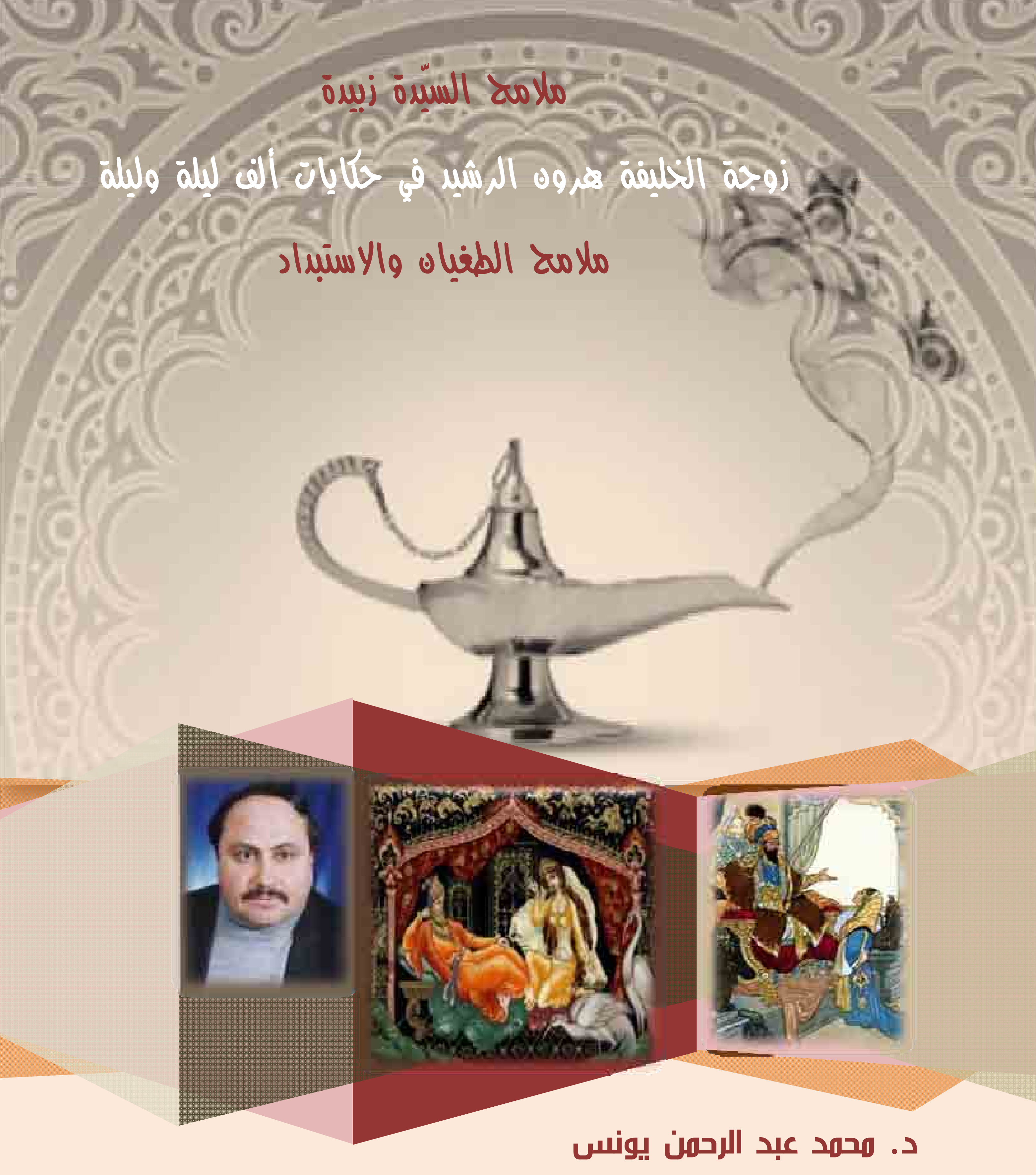
أما قدماء المصريين فقد كانوا يحتفلون في الجبانات بأعياد الكهنة ومع أولادهم عرائس من الخشب ، وارتبطت عروسة المولد بفلسفة خاصة وهي أن المصريين كانوا يتصدقون بإعطاء الحلوى في ذكري مولد الرسول صلي الله عليه وسلم ، ويقال أن الحكام الفاطميين كانوا يشجعون الشباب علي عقد قرانهم في يوم المولد النبوي ، ولذلك تفنن الصانع المصري في أن يشكل الحلوى علي هيئة عروس ويقوم بتغطيتها بأزياء تعكس العصر والتراث ، وأضيفت المروحة للعروسة الحلاوة بعد سنة ١٢٠٠ وهذه المراوح كانت تلازم حواء أثناء عملية وضع المولود والتي اعتبرها المصريون رمزا للتفاؤل.

فأثناء حكم الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر بآن لا تقام أفراح العرس والزواج إلا في مولد النبي عليه الصلاة والسلام ، واستبشر الشعب خيرا بذلك الأمر ، فكان أهل العروسين يقدمون الهدايا والحلوى ، ويقدم العريس لعروسه "عروسة المولد" رمزا للفرحة بزفافها.

ويروي أستاذ التاريخ الإسلامي د. احمد شلبي حكاية طريفة عن أصل عروسة المولد فيقول:" إن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله عندما كان يتأهب لتأديب بعض قبائل الصحراء المغيرة على أطراف مصر قال لجنوده وقادته مشجعا لهم على القتال: حاربوا بمهارة ، وعندما ننتصر سأزوج كلا منكم من عروس رائعة الجمال". ونجحت الحملة وعادوا منتصرين فزوجهم من أجمل جواريه ، وعندما حل الاحتفال بالمناسبة في العام التالي تصادف وجود المولد النبوي ، فقام ديوان الحلوى التابع للخليفة بصناعة عرائس جميلة من الحلوى لتقديمها كهدايا إلى القادة المنتصرين والى عامة الشعب وخاصة الأطفال.

وتؤكد الشواهد التاريخية أن عروس المولد مصرية خالصة ، ويحاول بعض المؤرخين الربط بينها وبين تقليد عروس النيل في عهد المصرين القدماء.

ولكن لا توجد كلمة فاصلة في هذا الأمر ؛ لأن كثيرا من العادات والتقاليد المصرية تعكس تواصلا مع الحضارة المصرية القديمة عبر آلاف السنين.



ملامح السيّدة زبيدة

زوجة الخليفة هرون الرشيد في حكايات ألف ليلة وليلة

ملامح الطغيان والاستبداد

د. محمد عبد الرحمن يونس

باحث وقاص وروائي وأستاذ جامعي

الجمهورية العربية السورية

younesmoon@hotmail.com

MS. ZUBAIDA PROFILES

THE WIFE OF CALIPH HARUN AL-RASHID

IN ONE THOUSAND ONE NIGHT STORIES

"FEATURES OF TYRANNY AND DESPOTISM"

من أهمّ نساء السّلطة في ألف ليلة وليلة اللّواتي مارسن تسلّطاً على من دونهنّ من الجواري والإماء والرّجال ، السّيدة زبيدة بنت جعفر المنصور[١] ، إذ تبرز هذه المرأة كنموذج متسلّط ، مُطاع طاعة عمياء ، لا يجرؤ أحد على مخالفتها من جواري قصرها ، و من رجال مدينة بغداد ونسائها.

ففي حكاية « **حسن الصائغ البصريّ** » ، تسمع السّيّدة زبيدة بجمال منار السّنا زوجة حسن البصري ، فتأمر بإحضار مسرور السّياف ، فيأتيها صاغراً ، ويقبّل الأرض بين يديها[٢] ، و تأمره أن يذهب ويحضر السّيدة منار السّنا: « فقالت له يا مسرور اذهب (...) وائت بالصّبيّة الّتي هناك هي وأولادها و العجوز [أم حسن البصري] التي عندها بسرعة و لا تبطئ ، فقال مسرور السمع و الطاعة.[3] ». فيذهب مسرور إلى منزل حسن البصري ، و يطلب من العجوز أن تحضر هي وزوج ابنها ، و أولادها ، إلى قصر زبيدة ، لتُسعد زبيدة برؤية جمال منار السنا ، لكنّ العجوز تعتذر و تتوسّل إليه أن يعفيها و زوج ابنها ، من الذهاب: « يا مسرور نحن ناس غرباء و زوج البنت ولدي ما هو في البلد و لم يأمرني بالخروج أنا و لا هي لأحد من خلق الله تعالى ، و أنا أخاف أن يجري أمر و يحضر ولدي فيقتل روحه فمن إحسانك يا مسرور أن لا تكلّفنا ما لا نطيق.[4] ». و لأنّ مسروراً يعتقد جازماً أنّ سيّدته زبيدة ، بموقعها السلطويّ ، هي أفضل خلق الله جميعاً من النساء ، بوصفها « زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد السادس من بني العبّاس ، عمّ النبي صلّى الله عليه و سلّم.[5] ». فإنّ على نساء بغداد و رجالها كلّها أن تخضع لرغباتها و أوامرها ، شاءت أم أبت. فما كان منه إلاّ أن رفض اعتذار المرأة ، و هدّدها بسيف زبيدة قائلاً: « لا تخالفي تندمي.[6] ».

و بطبيعة الحال لا تستطيع العجوز أن تخالف أوامر زبيدة ، حتّى لا تندم ، فتذهب برفقة منار السنا إلى قصر زبيدة ، و عندما تشاهدها زبيدة تدهَش من جمالها ، و تسألها: « يا سيّدة الملاح (...) أيّ شيء عندك من الذخائر[7] ».و لأنّ منار السنا تريد السفر من بغداد ، برفقة أولادها ، إلى واق الواق .ضدّ رغبة زوجها حسن البصري الذي يخاف أن تهرب بأولاده و لا تعود أبداً .فإنّها تستثمر فرصة لقائها بزبيدة لتحتال على أمّ زوجها ، و لتؤثّر في زبيدة بسطوة جمالها ، فتؤكّد لها أنّ لها ثوباً عجيباً من الريش ، و أنّها ستكون اكثر جمالاً لو أنّها تمكّنت من ارتدائه ، و أنّ هذا الثوب قد أخفاه زوجها حسن البصري ، و سافر خارج بغداد. و من ثمّ تطلب من زبيدة أن ترغم أمّ زوجها على أن ترجع لها هذا الثوب ، لتلبسه بحضرتها ، حتّى تتأكّد من صحّة كلامها: « فقالت الصبيّة يا سيّدتي لي ثوب ريش لو لبسته بين يديك لرأيت أحسن مما تعجبين منه ، و يتحدّث بحسنه كلّ من يراه جيلاً بعد جيل ، فقالت و أين ثوبك هذا؟ قالت هو عند أمّ زوجي فاطلبيه لي منها.[8] ».

و تطلب السيّدة زبيدة من أم حسن البصري .لا يذكر الراوي اسماً لهذه الأم .أن تذهب و تحضر ثوب الريش ، لكنّ المرأة العجوز تقسم بالله إنّها لا تعرف شيئاً عن هذا الثوب. عندها تستنفر زبيدة سطوتها ، و تصمّم على انتزاع الثوب قهراً و اغتصاباً. يقول الراوي[9]: « فصرخت السيّدة زبيدة على العجوز و أخذت منها المفتاح و نادت مسروراً فحضر و قالت له: خذ هذا المفتاح و اذهب إلى الدار ، و افتحها (...) تجد في وسطها صندوقاً فأخرجه و اكسره و هات الثوب الريش الذي فيه واحضره بين يديّ ». و ما إن يحضر ثوب الريش ، حتّى ترتديه منار السنا. و بالرؤية التخيّليّة التي تحكم منطق القصّ في كثير من حكايات ألف ليلة و ليلة ، يجعل الراوي منار السنا تضع ولديها تحت ثوبها ، و تفتح جناحي الثوب السحريّ ، و تطير بأولادها إلى واق الواق ، بلاد أبيها[١٠].

إنّ السيّدة زبيدة ، و أمام طغيان أنانيّتها الفرديّة ، و استمتاعها برؤية منار السنا ، و هي تلعب و تتمايل ، و ترقص بثوبها السحريّ[١١] ، لا يهمّها إن هي سبّبت التعاسة للآخرين ، و إن هي باعدت بين حسن البصري ، و أولاده و زوجته منار السنا ، التي يحبّها حبّاً خرافيّاً يفوق سحر ثوبها و قدراته الخرافيّة ، و لا يهمّها إن اغتالت أحلامه ، و جعلته يائساً ، مندفعاً لأن يتحمّل أقصى الأهوال ، و هو يقطع الجبال و البحار بحثاً عن زوجته ، و جعلت أمّه غارقة في بكائها ، و لطم وجهها ، و غشيتها المأساويّة[١٢] . و هي في سبيل تحقيق سعادتها الآنيّة برؤية امرأة جميلة ترقص رقصاً يفوق رقص جواريها مُجْتمعات ، مستعدّة لأن تضحّي بكلّ أحلام شعبها في بغداد ، و ليذهب الشعب إلى جحيم التعاسة طالما هي تستلذّ بجمالية المشهد الراقص.

إنّ مآسي الآخرين لا تحرّك في السيّدة زبيدة السلطويّة أيّة مشاعر حزن أو تعاطف ، أو شفقة نحوهم ، فالآخرون لا يعنون لها شيئاً إلاّ بقدر ما يقدّمون لها من هدايا و رشاوى و مسرّات آنيّة. و هنا يمكن القول: إنّ الراوي ، و بشكل خفيّ ، يبثّ إيديولوجيته المعادية لنظام القصر في بغداد ، و لمؤسسة السلطة في هذا القصر.

و يمكن القول أيضاً: إنّ السلطة في ألف ليلة و ليلة تشكّل فعلاً تدميريّاً ضدّ الآخر المُستلَب ، و ضدّ طموحاته لأن يعيش حرّاً و حالماً و آمناً. و منذ أن تشكّلت السلطة كانت « متعدّدة في الفضاء الاجتماعيّ [و] ممتدّة في الزمان التاريخيّ. و عندما نبعدها و ندفعها هنا ، سرعان ما تظهر هنالك ، و هي لا تزول البتّة قم ضدّها بثورة بغية القضاء عليها ، و سرعان ما تنبعث و تنبت في حالة جديدة (...) إنّ السلطة جرثومة عالقة بجهاز يخترق المجتمع و يرتبط بتاريخ البشريّة في مجموعه ، و ليس بالتاريخ السياسيّ وحده.[13] ».

أمّا في حكاية « **هرون الرشيد مع محمد بن علي الجوهري** » ، فإنّ السيّدة زبيدة تبدو مستبدّة و مطاعة ؛ و من تطلبه إلى قصرها يجب عليه الحضور و إلاّ فإنّها ستغضب عليه و تبقى عدوّته. ففي هذه الحكاية يذكر الراوي أنّها سمعت من جواري القصر التي تنقل إليها أخبار بغداد و علاقات سكّانها ، أنّ تاجراً ظريفاً و ثريّاً ، و ذا صوت شجيّ ، يقيم في بغداد ، و قد صار زوجاً للسيّدة دنيا البرمكيّة .أخت الوزير جعفر البرمكي .فترسل إليه إحدى عجائز القصر ، ليحضر إليها ، لكنّ الرجل يخاف من زوجته السيّدة دنيا ، إن هو غادر قصرها. فيعتذر عن الذهاب ، لكنّ العجوز تهدّده بغضب السيّدة زبيدة ، فيضطّر للذهاب مُكرهاً. يقول الراوي[١٤]: « و قالت: [العجوز] يا سيّدي محمد ، إنّ السيّدة زبيدة تدعوك فإنّها سمعت بأدبك و ظرفك و حسن غنائك. فقلت لها: و الله لا أقوم من مكاني حتّى تأتي السيّدة دنيا. فقالت العجوز: يا سيّدي لا تجعل السيّدة زبيدة تغضب عليك و تبقى عدوّتك ، فقم كلّمها و ارجع إلى مكانك. و قمت من وقتي و توّجهت إليها و العجوز أمامي إلى أن أوصلتني إلى السيّدة زبيدة. ». فالجوهري لا يستطيع أن يخالف أمر السيّدة زبيدة ، لأنّ مخالفته تعني غضبها الشديد عليه ، و بالتالي قد تعني نفيه عن بغداد ، أو مصادرة أمواله ، وممتلكاته ، و لا سيما أنّه من أغنى تجّار بغداد ، بل و كما يذكر الراوي يصل في ثرائه إلى درجة ثراء الخليفة هرون الرشيد ، و يفوقه ثراءً[١٥].

و عندما يصل محمد بن علي الجوهري إلى قصر السيّدة زبيدة تبدي إعجاباً شديداً به ، و تطلب منه أن يغنّي لها ، و تقول له[١٦]: « يا نور العين هل أنت معشوق السيّدة دنيا ؟ فقلت: أنا مملوكك و عبدك. فقالت: صدق الذي وصفك بالحسن و الجمال و الكمال ، فإنّك فوق الوصف و المقال ، و لكن غنّ لي حتّى أسمعك. فقلت: سمعاً و طاعةً.» تقول زبيدة للجوهري: يا نور العين ، لكنّه يعي أنّ طبقة التجار التي ينتمي إليها ، على الرغم من أهميّتها في المجتمع البغدادي الطبقيّ ، تظلّ طبقة دونيّة ، مقارنة بطبقة السلطة التي تتحكّم بكلّ الطبقات الأخرى ، و تراها خادمة مطيعة لها ، عندما يؤكّد الجوهري أنّه مملوكها وعبدها ، وهو لا يستطيع أن يقترب منها أكثر ، ويستخدم خطاباً لغوياً يقترب من خطابها ، كأن يصفها ، مثلاً بنور العين ، أو يتغزّل بحسنها و جمالها ، نظراً لهيبتها السلطويّة من جهة ، ولمكانتها الطبقيّة من جهة أخرى.

لقد وعى بعض أدباء وفقهاء الدولة الإسلاميّة مدى الهالة السلطويّة المقدّسة التي يتحصّن بها الخلفاء الأمويون والعباسيون ، وقدرة هؤلاء على البطش والاستبداد بشعوبهم ، فدعوا الناس المقرّبين منها إلى تقديسها وعدم اختراقها ، والحذر منها ، في رضاها وسخطها ، والولاء والذلّ المطلق لها ، ودعوا كلّ من لم يستطع ترويض نفسه على طاعة السلطان و الرضى بكل ما يأتيه منه ، سواء أكان خيراً أم شرّاً ، إلى الحذر منه ، و الابتعاد عنه[١٧]. و تأسيساً على قول بعضهم: « إذا زادك السلطان إكراماً فزده إعظاماً ، وإذا جعلك عبداً فاجعله ربّاً. »[١٨] ، يمكن القول: إنّ محمداً بن علي الجوهري ، عندما أكرمته زبيدة في قصرها اعتبر نفسه عبداً لها ، وما استطاع أن يتخطّى هذه المنزلة ، على الرغم من أنّ زبيدة مهّدت له ، وشجّعته لأن يتخطّاها على المستوى الظاهري ، وقالت له: يا نور العين.

ويبدو أنّ الراوي المتعاطف مع التاجر الجوهري ، الثريّ جدّاً ، أو المتقمّص لشخصيّته ، والطامح . ولو على مستوى الحلم . لأن يكون مكانه في قصر زبيدة ، تخيّل من دائرة حرمانه وفقره وتوقه لأن يشاهد زبيدة ، هذه السيّدة الأرستقراطيّة التي ملأ صيتها آفاق الدولة الإسلاميّة ، أنّه لو حضر أمامها ، لقالت له: يا نور العين ، و لأدنته ، وأرضت طموحه لأن يكون ظريفاً ، وكاملاً في الجمال والأدب ، ومغنّياً ماهراً ، يستطيع أن ينتزع إعجاب أهمّ امرأة في الدولة العباسيّة ، إلاّ أنّ الواقع المعيش الذي يحاول أن يتخطّاه هذا الراوي الشعبي . وفق الأماني التخيّليّة العذبة ، وصولاً إلى قصر زبيدة . يؤكّد استحالة أن يستطيع هذا الراوي تجاوز طبقته الدونيّة إلى طبقة أعلى منه ، فهو غير قادر على الوصول إلى طبقة التجّار التي كانت قادرة على الوصول إلى قصور الخلفاء بثرائها الماليّ ، و تقديمها الرشاوى و الهدايا لسادة هذه القصور ، فالمجتمع العبّاسيّ هو مجتمع تُهمّش فيه الطبقات الفقيرة ، إذ يستحيل عليها أن تتجاوز واقعها المأساويّ ، الذي ساهم في زيادة مأساته ، الخلفاء العبّاسيّون « الذين حرموا الشعب حقوقه وطوّقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد ، وقد مضوا هم وبطانتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله و موارده الضخمة ، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حدّ ، وطبقات قُتّر عليها في الرزق ، فهي تشقى إلى غير حدّ ، واضطرب أوساط الناس من التجّار وغيرهم بين الشقاء والنعيم. »[١٩].

و من ملامح زبيدة السلطويّة في ألف ليلة وليلة ، أنّها امرأة غيور على زوجها الرشيد ، وحاقدة على الجواري اللّواتي كنّ ينلن حظوة ومحبّة شديدة عنده ، فقد كان الرشيد يحبّ إحدى جواريه - قوت القلوب - محبّة شديدة ، مما دفع زبيدة إلى الغيرة الشديدة منها ، ومحاولة التخلّص منها بالقتل[٢٠].

ويبدو من خلال المصادر التاريخيّة أنّ السيّدة زبيدة كانت تغار على زوجها الرشيد من الجواري اللّواتي تعلّق بهنّ ، وأُعجب بغنائهنّ. ويروي أبو الفرج الأصفهاني[٢١] الخبر الآتي:

« كانت دنانير لرجل من أهل المدينة ، وكان خرّجها[٢٢] وأدّبها ، وكانت أروى الناس للغناء القديم ، وكانت صفراء صادقة الملاحة ، فلمّا رآها يحي[٢٣] وقعت بقلبه فاشتراها. وكان الرشيد يسير إلى منزله فيسمعها ، حتى ألفها واشتدّ عَجَبه بها فوهب لها هبات سنيّة ، منها أنّه وهب لها في ليلة عيد عِقْداً ، قيمته ثلاثون ألف دينار ، فَرُدَّ عليه في مصادرة البرامكة بعد ذلك. وعلمت أمّ جعفر خبره فشكته إلى عُمومته ، فصاروا جميعاً إليه فعاتبوه ، فقال: مالي في هذه الجارية من أرَبٍ في نفسها ، وإنّما أرَبي في غنائها ، فاسمعوها ، فإن استحقّت أن يُؤلَف غناؤها وإلاّ فقولوا ما شئتم ، فأقاموا عنده ، ونقلهم إلى يحي حتّى سمعوها عنده فعذروه ، وعادوا إلى أمّ جعفر فأشاروا عليها ألاّ تُلحّ في أمرها فقبِلت ذلك. »

لقد كانت السيّدة زبيدة متسلّطة على سكّان بغداد ، وكان على هؤلاء . مهما علت مقاماتهم . أن يقبّلوا الأرض بين يديها إجلالاً وتعظيماً لمكانتها السلطويّة. فها هو أحد أولاد التجّار الأثرياء يقبّل الأرض أمامها[٢٤] ، وهاهي الأميرة منار السنا زوجة حسن البصري و أمّه تقبّلان الأرض بين يديها[٢٥]. وكان على رجال القصر . مهما كانوا مرموقين . أن يقبّلوا الأرض أمام زبيدة ، فهاهو مسرور السيّاف ، الباطش السفّاح ، يقبّل الأرض أمامها عندما تأمره ، ويقول لها: « السمع والطاعة. »[٢٦]. وكان على جواري القصر المرموقات ، والحظايا عند الخليفة الرشيد ، أن يقدّمن ولاء الطاعة لها ، فها هي تحفة العوّادة . إحدى جواري الرشيد المدلّلات . تعتذر لزبيدة لأنّها تأخّرت في الحمّام ، وتقبّل الأرض بين يديها[٢٧].

وليست السيّدة زبيدة هي المرأة السلطويّة الوحيدة التي تُقَبّل الأرض بين يديها ، بل يُلاحظ أنّ عادة تقبيل الأرض موجودة في كلّ بلاطات الحكّام في ألف ليلة وليلة ، باختلاف مذاهبهم الدينيّة. ويبدو أنّ هذه العادة تجذّرت في بلاطات الخلفاء الأمويّين و العباسيّين نتيجة احتكاكهم بالبلدان المجاورة ، فهذه العادة في أصولها هي من « العادات الفارسيّة والبيزنطيّة »[٢٨]-.

ولم تُعرف هذه العادة في العصر الإسلاميّ ، في بداياته الأولى . عهد الرسول محمد (ص) وعهد الخلفاء الراشدين . وعلى الأرجح أنّها تجذّرت في الحياة العربيّة الإسلاميّة ، بعد استلام بني أميّة مقاليد الخلافة الإسلاميّة (٤١هـ/٦٦١م) ، وتحويلهم الدولة الإسلاميّة من دولة الخلافة إلى دولة أشبه بالدولةالباطشة ذات النزعة الإستبداديّة[٢٩] ، والبعيدة كلّ البعد عن مبدأ الشورى الذي دعا إليه الخطاب القرآنيّ: ﴿... فاعْفُ عنهم و استَغْفِرْ لهم و شاوِرْهُم في الأمر... ﴾[30].

و: ﴿ و الذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصلاة وأمْرُهم شُورى بينَهم وممّاَ رزَقناهم يُنفِقُون ﴾[31] ، ورسّخ دعائمه النبيّ محمد (ص).

و يُلاحظ في ألف ليلة وليلة أنّ الرواة ، في بعض الأحيان ، لا يكتفون بوصف الخلفاء بالخلفاء فقط , بل بالملوك والخلفاء معاً . فهاهو أحد الرواة يقول عن الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان: « كان في قديم الزمان وسالف العصر و الأوان بدمشق الشام ملك من الخلفاء يسمّى عبد الملك بن مروان »[٣٢]. أما الخليفة هرون الرشيد فقد كان يعتبر نفسه ، بالإضافة إلى أنّه خليفة ، ملكاً ، ولا يكتفي بملك ، بل بملك ملوك الأرض. يقول الرشيد[٣٣] عن نفسه: « كيف أكون خليفة وملك ملوك الأرض و أعجز عن جوهرة ».

ويبدو أنّ خلفاء الدولتين الأمويّة و العبّاسيّة قد قلّدوا ملوك فارس في الأبّهة والعظمة الأسطورية ، وطغوا وتجبّروا على شعوبهم ، واستبدّوا بها وحوّلوها إلى خدمٍ و حشم ، وقد « كان الخلفاء العبّاسيّون أكثر استبداداً من الأمويّين وأشدّ منهم تقليداً للمثال الفارسي في إدارتهم. »[٣٤]. و من أهمّ علامات هذا الاستبداد انحناء الشعوب الإسلاميّة ، وتقبيل الأرض أمام الخلفاء ، وتقبيل أياديهم ، إذ كانت هذه الشعوب تنحني في نصوص ألف ليلة و ليلة أمام الخليفة و زوجته وأبنائه ، ويتساوى في ذلك جميع غلمان القصور وحظاياها ، وأفراد الشعب باختلاف طبقاته ، فهاهو أحد غلمان قصر الرشيد يقبّل الأرض بين يدي الرشيد[٣٥]. و هاهو أثرى تاجر في البصرة ، التاجر أبو محمّد الكسلان ، ما إن يسمع أنّ الخليفة الرشيد يطلب حضوره إلى بغداد ، حتى يسارع ويقبّل الأرض بين يدي مسرور رسول الخليفة تعظيماً للخليفة[٣٦].

لقد كان على كل من في القصر في بغداد أن يطيع الخليفة طاعة عمياء ، ويقبّل الأرض بين يديه. ونظراً لسطوة الخليفة الرشيد ، وهيمنة هذه السطوة على سكان الدولة العبّاسيّة ، فقد تخيّل أحد الرواة أنّ هذه السطوة طاغية أيضاً على أقرب المقرّبين من الرشيد .زوجته زبيدة .و اعتقد أنّه كما على الناس في بغداد أن يقبّلوا الأرض بين يدي زبيدة ، فإنّ عليها هي الأخرى أن تقبّل الأرض بين يدي زوجها الرشيد. يقول الراوي[٣٧] عن غلام الرشيد: « ثمّ إنّ الغلام قبّل الأرض بين يد الخليفة وقال له: يا أمير المؤمنين إنّ السيّدة زبيدة تقبّل الأرض بين يديك ».

ومن ملامح السيّدة زبيدة في نصوص ألف ليلة وليلة أنّها امرأة وَلِعَة بامتلاك الجواهر و الأحجار الكريمة ، ومن كثرة جواهرها فإنّها لم تكن قادرة على المشي ، كما يقول أحد الرواة[٣٨]: « ثم رأيت عشرين جارية (...) وبينهنّ السيّدة زبيدة وهي لا تقدر على المشي ممّا عليها من الحِلَي و الحُلَل ».

ومن شدّة ولع السيّدة زبيدة بامتلاك الذهب والجواهر الكريمة ، فقد كانت تحرص على امتلاك أنفس الجواهر ، وأكبرها في بغداد. يقول الراوي[٣٩]: « إنّ هارون الرشيد كان جالساً ذات يوم في تخت الخلافة ، إذ دخل عليه غلام من الطواشيّة و معه تاج من الذهب الأحمر مرصّع بالدرّ والجوهر ، وفيه سائر اليواقيت والجواهر ما لا يفي به مال. ثمّ إنّ الغلام (...) قال له: يا أمير المؤمنين إنّ السيّدة زبيدة (...) تقول لك: أنت تعرف أنّها قد عملت هذا التاج وأنّه محتاج إلى جوهرة كبيرة تكون في رأسه وفتّشت في ذخائرها فلم تجد فيها جوهرة كبيرة على غرضها.» وعند ذلك يطلب الرشيد من الحجّاب و النوّاب أن يفتّشوا عن جوهرة مناسبة ترضي طموح زوجته[٤٠].

و يبدو أنّ السيّدة زبيدة كانت .تاريخيّاً .تعتلي أعلى مراتب الثراء و الأناقة بين نساء المجتمع البغدادي ، إذ صارت ملابسها ، نظراً لأناقتها الجماليّة ، زيّاً شائعاً في البيئة الاجتماعيّة[٤١]. وقد كانت سيّدة الأناقة في بغداد و المدن العبّاسيّة الأخرى. ويمكن القول: إنّ الراوي الذي أشار إليها ، وهي مثقلة بجواهرها ، وثيابها النفيسة ، لم يكن يشكّل صورتها من تخيّلاته ، بل ممّا وصل إليه من المصادر التاريخيّة. فعلى سبيل المثال يذكر المسعودي[٤٢]أنّها كانت تلبس الثياب الجميلة المزيّنة بالألوان ، والموشاة بالحرير ، و الباهظة الثمن ، حتّى أنّه بلغ ثمن الثوب من هذه الثياب خمسين ألف دينار. وكانت تتّخذ النعال المرصّعة بالجوهر وشمع العنبر ، مما دفع الناس في بغداد إلى تقليدها.

ويرى ابن طباطبا أنّ السيّدة زبيدة كانت سديدة الرأي ، وحكيمة عاقلة ، أكثر من ولدها محمد الأمين ، وتتجلّى حكمتها من خلال تعليماتها لعلي بن ماهان[٤٣] (ت١٩٥هـ/٨١١م) ، وهو في طريقه إلى حرب عبد الله المأمون ، وتأكيدها عليه أن يكون لطيفاً وكريماً مع المأمون ، فيما إذا انتصر عليه[٤٤]. إلاّ أنّ حكمتها هذه وسداد رأيها ، لم يمنعاها من أن تكون بطرة عابثة بأموال الدولة العباسيّة. ويُروى أن الشاعر أشجع السُّلمي[٤٥] دخل على محمد الأمين ، وقد أُجلِس مجلس الأدب للتعليم ، وهو ابن أربع سنين ، فأنشده مادحاً:

ملك أبوه و أمه من نَبْعَةٍ[٤٦]	منها سراج الأمّة الوهّاجُ
شربت بمكة في ربا بطحائها[٤٧]	ماء النبوّة ليس فيها مِزَاج

فما كان من السيّدة زبيدة إلاّ أن أُعجبت بهذا المديح ، ووهبت قائله مائة ألف درهم[٤٨].

إنّ حكمة السيّدة زبيدة وعقلها لم يمنعاها ، أيضاً ، من تبذير أموال الشعب على القضاة والفقهاء المقرّبين من قصر زوجها ببغداد. ويُروى أنّها « كتبت مسألة إلى أبي يوسف[٤٩] تستفتيه فيها ، فأفتاها بما وافق مرادها (...) فبعثت إليه بحقّ[٥٠] فضّة فيه حقّان من فضّة في كلّ حقّ لون من الطيب ، وجامَ[٥١] ذهب فيه دراهم ، و جام فضّة فيه دنانير ، وغلمان وتخوت[٥٢] من ثياب. »[٥٣].

الهوامش

(1) زبيدة : (زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، ...- ٢١٦هـ/...-٨٣١م): الهاشميّة العبّاسية ، زوجة هرون الرّشيد ، وبنت عمّه. من فضليات النساء وشهيراتهنّ. وهي أم الأمين العبّاسي. اسمها "أمة العزيز" وغلب عليها لقبها زبيدة. قيل: كان جدّها المنصور يرقّصها في طفولتها ويقول: يا زبيدة أنت زبيدة ! فغلب على ذلك اسمها. تزوّج بها الرّشيد سنة ١٦٥هـ ولمّا قُتل ابنها الأمين ، اضطهدها رجال المأمون فكتبت إليه تشكو حالها ، فعطف عليها ، وجعل لها قصراً في دار الخلافة ، وأقام لها الوصائف والخدم. وكانت لها ثروة واسعة.
الزركلي ، خيرالدين: الأعلام ،دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية عشرة ،شباط(فبراير)،١٩٩٧م ، ٤٢/٣.

(2) ألف ليلة وليلة ،منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دون تاريخ ، ٢٩٦/٤.

(3) م س ، ٢٩٦/٤.

(4) م س ، ٢٩٦/٤.

(5) م س ، ٢٩٦/٤.
مع ملاحظة أنّ الراوي يخطئ تاريخيّاً حين يقول عن هرون الرشيد إنّه السادس من بني العبّاس ، فالرشيد هو الخليفة العبّاسيّ الخامس بعد الخلفاء الأربعة الذين سبقوه في حكم الدولة العبّاسيّة ، وهم: أبو العبّاس عبد الله السفّاح ، و أبو جعفر المنصور ، و محمد المهدي بن المنصور ، و الهادي بن المهدي.



(6) م س ، ٢٩٦/٤.
(7) م س ، ٢٩٧/٤.
(8) م س ، ٢٩٧/٤.
(9) م س ، ٢٩٨/٤.
(10) م س ، ٣٠٠/٤.
(11) م س ، ٢٩٩/٤.
(12) م س ، ٣٠٠/٤.
(13) بارت ، رولان: درس السيمولوجيا ، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء/المغرب ، الطبعة الثانية ١٩٨٦م ، ص ١٢.
(14) ألف ليلة وليلة ، ٤٣٧/٢.
(15) م س ، ٤٣٠/٢.
(16) يقول عبد الله بن المقفّع: "ينبغي لمن خدم السلطان أن لا يغترّ به ، و لا يتغيّر له إذا سخط ، ولا يستثقل ما حمّله ، ولا يلحف في مسألته. وقال أيضاً: لا تكون صحبتك للسلطان إلاّ بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم ؛ فإن كنت حافظاً إذا ولّوك ، حذراً إذا قرّبوك ، أميناً إذا ائتمنوك ، ذليلاً إذا صرموك ، راضياً إذا أسخطوك ؛ تعلّمهم وكأنك تتعلّم منهم ، وتؤدّبهم ، و كأنّك تتأدّب بهم ، وتشكرهم ولا تكلّفهم الشكر ، و إلاّ فالبعدَ عنهم كلّ البعد ، والحذر منهم كلّ الحذر".
عن/ ابن عبد ربه ،أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي: العقد الفريد ،شرح كرم البستاني ، دار المسيرة ، بيروت ،الطبعة الثانية ١٩٨١م ، ٢٠/١.
(17) يقول عبد الله بن المقفّع: "ينبغي لمن خدم السلطان أن لا يغترّ به ، و لا يتغيّر له إذا سخط ، ولا يستثقل ما حمّله ، ولا يلحف في مسألته. وقال أيضاً: لا تكون صحبتك للسلطان إلاّ بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم ؛ فإن كنت حافظاً إذا ولّوك ، حذراً إذا قرّبوك ، أميناً إذا ائتمنوك ، ذليلاً إذا صرموك ، راضياً إذا أسخطوك ؛ تعلّمهم وكأنك تتعلّم منهم ، وتؤدّبهم ، و كأنّك تتأدّب بهم ، وتشكرهم ولا تكلّفهم الشكر ، و إلاّ فالبعدَ عنهم كلّ البعد ، والحذر منهم كلّ الحذر".
عن/ ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد ، ٢٠/١.
(18) م س ، ٢٩/١.
(19) ضيف ، د.شوقي: العصر العباسي الأوّل ،دار المعارف ، القاهرة ، دون تاريخ ، ص٤٥.
(20) ألف ليلة وليلة ، ٢٣٠/١.
(21) الأغاني ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي ، الهيئة المصرية العامةللتأليف والنشر ، القاهرة ، طبعة ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م ، ٦٧/١٨.
(22) خرَّجَها: درّبها وعلّمها.
معلوف ، لويس :المنجد في اللغة ،منشورات اسماعيليان ، طهران/ دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الحادية والعشرون ، ١٩٧٣م ، مادة: خرج ، ص١٧٣.
(23) يحي البرمكي: (يحي بن خالد بن برمك ، ١٢٠ . ١٩٠هـ/٧٣٨ . ٨٠٥م): أبو الفضل ، الوزير الجواد ، سيد بني برمك وأفضلهم. وهوّ مؤدّب الرشيد العباسيّ ومعلّمه ومربّيه. رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل ، فكان يدعوه: يا أبي ، ولمّا ولي هرون الرشيد الخلافة دفع خاتمه إليحيى ، وقلّده أمره ، فبدأ يعلو شأنه. واشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه في "الرقة" إلى أن مات.
الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، ١٤٤/٨.
(24) ألف ليلة وليلة ، ١٤٢/١.
(25) م س ، ٢٩٦/٤.
(26) م س ، ٢٩٦/٤.
(27) م س ، ٢٩٤/٤.
(28) خليل ، د. خليل أحمد: مضمون الأسطورة في الفكر العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، نيسان/أبريل ١٩٨٦م ، ص١٧٣.
(29) ويبدو أنّ هذه النزعة الاستبداديّة قد تأسّست على يد الخليفة الأمويّ معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م)، الذي هدم كثيراً من أخلاق التواضع والتقشّف التي عرفها المسلمون الأوائل ، إذ " جاء ببدع في الحكم كثيرة منها أنّه أحاط نفسه بحرسٍ ورفع لنفسه عرشاً في قصره وشيّد مقصورة في المسجد لصلاته.".
حتي ، فيليب: الإسلام منهج حياة ، تعريب د. عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، آذار ١٩٨٣م ، ص ١٧٠ .
(30) سورة آل عمران ، الآية: ١٥٩.
(31) سورة الشورى ، الآية: ٣٨.
(32) ألف ليلة وليلة ، ٢٤/٤.
(33) م س ، ٨/٣.
(34) جيبب ، هاملتون: التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى ،دون ذكر المترجم ، المركز العربي للكتاب ، دمشق ، دون تاريخ ، ص٤٨.
(35) ألف ليلة وليلة ، ٨/٣.
(36) م س ، ٨/٣.
(37) م س ، ٨/٣.
(38) م س ، ١٤٢/١.
(39) م س ، ٨/٣.
(40) لكنّ هؤلاء النوّاب يعجزون عن إيجادها في بغداد ، ويؤكّدون له أنّ مثل هذه الجوهرة لا توجد إلاّ في البصرة ، وعند أثرى أثرياء البصرة ، وهو التاجر أبو محمد الكسلان ، فيرسل مسروراً السيّاف إلى البصرة ليحضر هذه الجوهرة ، و عند ذلك = = قدم أبو محمد الكسلان إلى بغداد حاملاً معه للرشيد هدايا ثمينة جدّاً ، "من جملتها أشجار من الذهب ، و أوراقها من الزمرّد الأبيض ، وثمارها ياقوت أحمر و أصفر ولؤلؤ أبيض" ، بالإضافة إلى أنواع عديدة من الجواهر النفيسة.
ألف ليلة و ليلة ، ١٠/٣.
(41) حتي ، فيليب: الإسلام منهج حياة ، ص١٨٤.
(42) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجواهر ،تحقيق: عبد الأمير مهنا ، منشورات مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، ٣٣٧/٤.
(43) علي بن ماهان: (علي بن عيسى بن ماهان ، ... ١٩٥هـ/... ٨١١م): من كبار القادة في عصر الرشيد و الأمين العباسيّين. و هو الذي حرّض الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد. وسيّره الأمين لقتال المأمون بجيش كبير ، وولاّه إمارة همذان و أصبهان وقمّ وتلك البلاد ، فخرج من بغداد في أربعين ألف فارس ، فتلقّاه طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون في الريّ ، فقُتل ابن ماهان وانهزم أصحابه.
الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، ٣١٧/٤.
(44) لمزيد من الاطلاع: ينظر:ابن طاطبا ، محمد بن علي: الفخري في الآداب السلطانيّة و الدول الإسلاميّة ،دون محقق ، دار صادر ، بيروت ،دون تاريخ ، ص٢١٤.
(45) أشجع السُّلمي: (أشجع بن عمرو السُّلمي ، أبو الوليد ، ... .نحو ١٩٥هـ/... نحو٨١١م): شاعر فحل ، كان معاصراً لبشار. وُلد باليمامة و نشأ في البصرة ، وانتقل إلى الرقّة واستقرّ ببغداد. مدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحي فقرّبه من الرشيد ، فأعجب الرشيد به ، فأثرى وحسنت حاله ، وعاش إلى ما بعد وفاة الرشيد ورثاه. الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، ٣٣١/١.
(46) النَبْعَة: واحدة شجرة النَبْع. وتستعمل للقوس. ويقال: "هو من نَبْعَة كريمة" أي من أصل كريم. المنجد في اللغة ، مادة: نبع ، ص٧٨٦.
(47) البطحاء: مسيل واسع فيه رمل وحصى.
المنجد في اللغة ، مادة: بَطَح ، ص٤١.
(48) الأصفهاني: الأغاني ، ٢٢٦/١٨.
(49) أبو يوسف: (يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصاري ، ١١٣-١٨٢هـ/٧٣١-٧٩٨م): صاحب الإمام أبي حنيفة ، وتلميذه ، و أوّل من نشر مذهبه. كان فقيهاً علاّمة ، من حفاظّ الحديث. ولد بالكوفة ، وتفقّه بالحديث والرواية ، ثم لزم أبا حنيفة النعمان ، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد ، ومات في خلافته ، ببغداد ، وهو على القضاء. وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب. الزركلي ، خيرالدين: الأعلام ، ١٩٣/٨.
(50) الحُقّ: الوعاء. المنجد في اللغة ، مادة: حقّ ، ص١٤٤.
(51) الجام: الكأس (فارسيّة). م س ، مادة: جام ، ص ١١١.
(52) التَخْت: خزانة الملابس. م س ، مادة: تخت ، ص٥٩.
(53) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٣٧٢/٣.



كيف نقرأ التاريخ...؟!



رأفت صلاح الدين
باحث ومدرس بالمعاهد الأزهرية
جمهورية مصر العربية
rafat110@hotmail.com

إن التاريخ هو ذاكرة الأمم ، لاتستطيع أمة أن تعيش بلا ذاكرة ، ودراسة التاريخ واستخراج الدروس والعبرمنه هو دأب الأمم القوية. "فالتاريخ مرآة الشعوب وحقل تجارب الأمم ، فى صفحاته دروس وعبر للمتأملين ، لأنه نتاج عقول أجيال كاملة ، والأمة التى تهمل قراءة تاريخها لن تحسن قيادة حاضرها ولاصياغة مستقبلها ".(١)

وخير شاهد على ذلك أن الأمم التى ليس لها تاريخ تحاول أن تؤلف لنفسها تاريخاً ، ولو مختلقاً ، حتى يكون لها ذكر بين الأمم .كما هو حال الدولتين اللقيطتين أمريكا واسرائيل . * فواعجباً لأمة لها تاريخ عريق مشرف تخاصمه ولا تستفيد منه ، وتعتبره ماضياً زال وتراثاً باليا. يقول أرنولد توينبى فى محاضرة ألقاها فى القاهرة فى الستينيات من القرن الميلادى المنصرم :

" إن الذين يقرأون التاريخ ولا يتعلمون منه أناس فقدوا الإحساس بالحياة ، وإنهم اختاروا الموت هرباً من محاسبة النفس أو صحوة الضمير والحس ...!!" .(٢)

يقول شوقى :

اقرأوا التاريخ إذ فيه العبر ... ضل قومٌ ليس يدرون الخبر

فهذه دعوة للأمة المسلمة ذات التاريخ العريق أفراداً وجماعات . لقراءة تاريخها قراءة واعية تستخرج منه الدروس والعبر ، وتستخرج منه منهاجاً للحركة والفهم ، يفيدها فى مسيرة نهضتها واستشراف مستقبلها ، حتى يعود للأمة مجدها وتستعيد مكانتها وعزتها أمام الأمم. أى أن القراءة المطلوبة هى قراءة متدبرة ، تقف أمام أحداث التاريخ الإسلامى متفحصة مدققة ، ليست سردا تاريخيا للأحداث بقدر ماهى تنقيب بين أسطره على مدلولات هذه الأحداث والوقائع ، وعلاقتها بواقعنا المعاصر .لذا نستطيع فى هذه العجالة أن نقف أمام بعض الدروس لعلها تكون دافعا للأمة لكى تسعى لضبط مسيرتها بالسنن الربانية التى وعاها أسلافنا فضبطت مسيرتهم وحفظت جهادهم . لكن قبل ذلك نوضح أمرين :

أولهما: التاريخ ليس سرداً للأحداث ولا تسجيلا للوقائع والأقاصيص ، ولكنه تفسير لكل هذه الأحداث والوقائع ، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التى تجمع بين شتاتها ، وتجعل منهم وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحى فى الزمان ".(٣)

ويعرف ابن خلدون التاريخ فيقول:" ...فان التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال وتشد إليها الركائب و الرحال ، وهو فى ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول ، وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق".(٤)

فالتاريخ ليس سرداً مجرداً للاحداث ، لكنه فى حقيقته وقوف أمام تلك الأحداث لتحليلها وتفسيرها والربط بينها واستخراج الدروس التى يمكن الاستفادة منها فى حاضرنا ومستقبلنا.

ثانيهما: أن الإسلام اهتم بدراسة التاريخ عن طريق:

١.وردت فى القرآن إشارات كثيرة إلى أهميه دراسة سير الأولين والتأمل فيها وأخذ العبر منها: قال تعالى{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ} آل عمران/١٣٣ وقولة { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ} يوسف/١١١. وقولة تعالى {...فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ..} الاعراف /١٧٦

٢.وفى السُنة :

حيث " أعلم الرسول .صلى الله عليه وسلم .المسلمين بحوادث ستقع فى المستقبل حتى يكونوا على وعى بالحاضر والمستقبل " [٥] مثل فتح القسطنطينية وعمورية ومثل المعارك التى ستقع مع اليهود والنصارى وأحداث الساعة ... وغيرها .

٣-كذلك اهتم القرآن بقصص الأنبياء للتسلية والتسرية عن النبـي ﷺ وكذلك لاستلهام الخط الواصل فى الصراع بين الحق والباطل ، كما ظهر ذلك من سرد قصص نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ... وغيرهم من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

٤.كذلك اهتم علماء السلف بالتصنيف فى التاريخ لخدمة هذه الأمة أمثال الإمام الطبرى وابن كثير والذهبى وغيرهم.

ثم نأتى إلى أهم الدروس المستفادة من التاريخ:

أولاً: الإتعاظ والإعتبار بالقرون الخوالى

"...لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ... " . يوسف / ١١١

الغرض الأساسى من دراسة سير الغابرين هو أخذ العبرة والعظة لما حدث معهم ، فقد حدثنا التاريخ كثيرا عن أمم غابرة وماحدث لها من ظهور ثم سقوط وهلاك ، فكان لزاما علينا دراسة سيرهم لنقف على أسباب ظهورهم وسقوطهم ونستخرج النتائج ونربط بينها ٠"إن السر المختوم فى القرآن هو أن نعتبر بالماضى ، وأن نتعظ بالقرون الخوالى وأن نتدبر حركة التاريخ ونشوء الحضارات ونتأمل الأسباب ، ونربط بينها وبين النتائج " [٦]

كذلك يتحتم علينا دراسة تاريخ الأمة المسلمة منذ نشأتها وظهورها فى الأرض وانتشارها وسيطرتها على أكثر من نصف الكرة الأرضية ، ثم انكماشها رويدا رويدا ، وما استتبعه ذلك من سقوط الخلافة وانتهائها ، وما آل إليه الأمر فى النهاية ، من تنحية شرع الله عن حكم الأمة واستيراد القوانين الوضعية بدلا عنه ، ثم تمزيق جسد الأمة ، والتمكين لأعداء الإسلام وعملائه فى ديار المسلمين. أى يجب علينا دراسة خط إنحراف الأمة منذ ظهورها وحتى سقوطها ، وذلك لأخذ العبرة والعظة ، ودراسة عوامل الظهور ومقوماته ، ثم أسباب السقوط ونتائجه ، واستخراج الدروس والعبر من كل ذلك .

ثانياً: استخراج الدروس التربوية من التاريخ

ارتبط هذ الدين منذ ظهوره واستخلافه فى الأرض بقيم أخلاقية وتربوية ، استطاعت أن تصوغ أخلاق وسلوكيات هذه الأمة ، وأن تغير من واقع حياتها ، لنتأمل حال العرب قبل الإسلام وبعده. فقد استطاع الإسلام أن يصوغ ويغير من أخلاقهم وقيمهم وسلوكياتهم وتصوراتهم ،فتغيروا من حال الى أحسن حال .

لذا الإستفادة من التاريخ فى استخراج هذه الدروس التربوية ، ومعرفة كيف استطاع الإسلام أن يغير من واقع هؤلاء القوم ، حتى يكون ذلك منهاجا لنا فى تغيير القيم والتصورات الدخيلة على واقع وحال الأمة الإسلامية فى وقتنا الحالى. كذلك لنستفيد من هذه الدروس التربوية فى إيجاد منهجا تربويا أصيلا يستطيع أن يخرج لنا أجيالا راشدة وصياغتها الصياغة الإسلامية المطلوبة.

يقول الأستاذ/ محمدقطب : " ...كل أمة من أمم الأرض تعتبر درس التاريخ من دروس التربية للأمة ، فتصوغه بحيث يؤدى مهمة تربوية فى حياتها ، فإن من بديهيات التوجيه التربوى لدراسة التاريخ الإسلامى أن يخرج أجيالا مسلمة تعرف حقيقة دينها وتستمسك به وتعمل على إحيائه فى نفوسها وفى واقع حياتها ". [٧]

ثالثاً: تتبع السنن والقوانين الربانية التى تحكم هذا الكون

أوجد المولى عز وجل سنن وقوانين ربانية تحكم هذا الكون ، وتحرك آلياته ، حتى لاتترك مجالا للصدفة أوالحظ ، هذه السنن تجيب لنا عما يحدث فى الكون وفى الحياة من أحداث.

يقول الأستاذ/ محمد قطب : " ...الدرس التربوى الأكبر المستفاد من تتبع أحوال هذه الأمة فى صعودها وهبوطها ورفعتها وانتكاسها ، هو تتبع السنن الربانية من جهة ، وأنها لا تحابى أحدا ، ولا تنحرف عن مسارها من أجل أحدّ. وإبراز الحقيقة الرئيسية فى حياة هذه الأمة من جهة أخرى أنها لا تمكن فى الأرض إلا وهى مستمسكة بدينها ، عاملة بمقتضيات التكليف الربانى لها ، وأنها كلما حادت عن الطريق أصابتها العقوبة الربانية فزال عنها التمكين ، وأصابتها النكبات. وأنها من جهة ثالثة لا تبرأمن نكبتها إلا بالعودة الصادقة إلى الله عز وجل ، وأنها حين تعود لاتكون ممكنة فى داخل حدودها فحسب بل تكون فى مقام التوجيه والشهادة على البشرية ...". [٨]

ويقول الدكتور ماجد عرسان الكيلانى :" ...فى التاريخ قوانين تحكم الأحداث والظواهر ، وتوجهها الوجهة التى يقتضيها منطق القانون ، والخروج على هذه القوانين أو الإنسجام معها هو كالخروج على قوانين النفس والغذاء وقوانين ضغط الغازات والإنسجام معها ، والذين يتقنون فقه هذه القوانين وتطبيقها هم الذين يستمرون فى الحياة ويتفوقون فى ميادينها .

وهذا يعنى أن الأمة التى يتولى زمام أمورها "فقهاء" يفقهون قوانين بناء المجتمعات وانهيارها ، ويحسنون تطبيق هذه القوانين ، فإنهم يقودون أممهم إلى التقدم والنصر لا محاله. وأما الأمة التى يتولى زمام أمورها "خطباء" يحسنون التلاعب بالمشاعر والعواطف ، فإنها تظل تتلهى بالأمانى التى يحركها هؤلاء الخطباء ، حتى إذا جابهت التحديات لم "يفقهوا" ما يصنعون ، وآل أمرهم إلى الفشل ، وأحلوا قومهم دار البوار". [٩]

لذا فالمطلوب منا حيال هذه السنن والقوانين هو تتبعها وإدراكها ، والإستفادة منها فى فهم الواقع ، وتسخيرها من أجل حدوث النهضة المطلوبة للأمة.

يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة : " من الأولويات المطلوبة فى الفهم والتفكير الإسلامى اليوم إدراك أمر السنن والأسباب والأقدار ، وامتلاك القدرة على التعامل معها وتسخيرها ، ودخول حلبة الصراع الحضارى بميادينه المتعددة بأدواته ووسائله النوعية المطلوبة ، وذلك أن دخول أى معركة بدون أسلحتها الفاعلة سوف يؤدى إلى الخسارة الفادحة ". [١٠]

رابعاً: معرفة مخططات أعداء الإسلام فى محاربة هذه الأمة

الصراع بين الحق والباطل من سنن الله فى هذا الكون ، وهو مستمر إلى قيام الساعة {...ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ... } البقرة / ٢١٧. يتجلى هذا فى وقوف أعداء الإسلام يهودا ونصارى ومشركين لهذه الأمة وإلى يومنا هذا بالمرصاد. حتى قبل بعثة النبى —صلى الله عليه وسلم — ما قام به بحيرا الراهب وتحذيره لأبى طالب من اليهود ، خوفا علي محمد —صلى الله عليه وسلم -وهو

مازال طفل[١١] . ثم تتابعت فصول المؤامرات وأحداثها مع البعثة وإلى الآن ، وما أمر الحروب الصليبية عنا ببعيد ، وما حدث لمسلمي الأندلس كذلك ، وما تآمرهم على الخلافة العثمانية واسقاطها عنا ببعيد.

وفى هذه الأيام ما حدث فى البوسنة وكوسوفا على يد الصرب الصليبيين ، وما يحدث للفلسطينيين على أيدى اليهود وبمساعدة الأمريكان ، الذين يعيثون فى الأرض فسادا فى أفغانستان والعراق. ومايعيشه الشيشانيون على يد الروس ، ومايحدث لمسلمي تركستان على يد الصين ، ومسلمى الهند على يد الهندوس ، وفى الفلبين ، كذلك ما حدث على يد الباطنيين المجوس فى القديم والحديث , وما يحدث فى كل بلاد المسلمين ، هو امتداد لهذا العداء التاريخي الحاقد ، وهدفه هو القضاء على الإسلام والمسلمين.

فدراسة التاريخ تحذرنا من مخططاتهم التى تنخر فى جسد الأمة ، فيجب علينا دراسة هذه المؤمرات وتتبع تاريخها حتى تكون مرشدا لنا فى تعاملنا معهم ، وتعلمنا الحذر من دسائسهم وحقدهم.

هذه بعض الدروس المستفادة من دراسة تاريخنا الحافل بالبطولات حتى نستطيع قراءته قراءة واعية نستخرج منه الدروس والعبرالراشدة لنا فى طريق التغيير المنشود. والدروس والعبر من تاريخنا كثيرة ولكننا اكتفينا بهذه الأمور لأهميتها وحتى لا يطول بنا المقام.

الهوامش

(١) محمد حامد الناصر ،الجهاد والتجديد فى القرن السادس الهجرى ، الكوثر ص ٥.
(٢) عبد الودود شلبى ، افيقوا يامسلمين قبل أن تدفعوا الجزية ، السعودية للتوزيع ، ص ١٠.
(٣) سيد قطب ، فى التاريخ فكرة ومنهاج ، دار الشروق ، ط ١٠ ،ص ٣٧.
(٤) عن كتاب ايعيد التاريخ نفسه ؟ ، محمد العبدة ، المنتدى الاسلامى ، الغلاف.
(٥) المرجع السابق ، ص ٥ بتصرف.
(٦) أحمدالقديدى ، الاسلام وصراع الحضارات ، كتاب الامة ٤٤ ، ص٦٧.
(٧)محمدقطب ، كيف نكتب التاريخ الاسلامى ، دار الشروق ، ط ١ ، ص٢٨ .
(٨) نفس المرجع ص ٢٩.
(٩) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، المكتبة الاسلامية ، ص ٢٦٧.
(١٠) القديدى ، مقدمة كتاب "الإسلام وصراع الحضارات" ، ص ١٦-١٧.
(١١) انظر الرحيق المختوم ، طبعة مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ص ٥٤

مشروع مفكرة التاريخ

الفكرة

عمل مطوية تاريخية نصف شهرية كحد أقصى ، تركز على الأحداث والشخصيات والمعالم التاريخية لكل شهر على حدة ، ثم نسقطها على الواقع ، ونخرج في النهاية بدروس وعبر عملية من العرض التاريخي ، يستمر العمل فيها حتى نهاية العام الهجري إن شاء الله ، ثم تجمع كل الاثنتي عشرة مطوية لعمل مفكرة تاريخية سنوية تختزل كل المعلومات ، مدعومة بالصور ، والإخراج المتقن بإذن الله .

الرؤية

إيصال التاريخ الإسلامي للمسلمين بطريقة جديدة فاعلة ، بكل قوائمه من شخصيات وأحداث وعبر ، ليتعرف الجيل الصاعد على المجد الثابت للأمة الإسلامية ويقتفي أثره.

الرسالة

أمة لا تعرف تاريخها ، لا تحسن صياغة مستقبلها .

الأهداف

١. تعريف الشباب بتاريخهم الإسلامي المجيد ليخرجوا منه بالأمثلة العالية في حياتهم .
٢. غرس القيم الإسلامية في النفوس عن طريق عرض الشخصيات التي تمثلنا .
٣.إسقاط التاريخ على الواقع والخروج بعبر ودروس تفيدنا في واقعنا .
٤.معرفة سنن الله في الكون وأحوال الأمم والدول وتعاقبها.
٥.لكل فرد مسلم دورٌ في تمكين أمته ، فلا تستهن بنفسك ، واصنع لأمتك مستقبلاً أرقى.


للاستفسارات ودعم المشروع

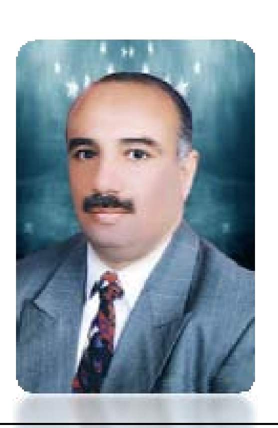


mofkrt.omh@hotmail.com

قاعة الجزيرة السورية في متحف حلب وبدايات الحضارة الإنسانية



واجهة متحف حلب



خليل اقطيني
كاتب وصحفي بمؤسسة الوحدة للصحافة والنشر
مدير مكتب صحيفة تشرين بالحسكة
الجمهورية العربية السورية
aya2006@scs-net.org

تقع الجزيرة السورية في شمال بلاد الرافدين بين دجلة والفرات ، ولهذا سميت الجزيرة. ورغم أنها تضم منطقة واسعة مترامية الأطراف ، من الحدود التركية شمالاً ، والحدود العراقية شرقاً ، بما في ذلك محافظة الرقة وشمال محافظة ديرالزور ، إلا أن تسمية الجزيرة تطلق غالباً على محافظة الحسكة الواقعة في أقصى شمال شرق سورية (٧٠٠كم عن العاصمة دمشق).

وتمتاز هذه المنطقة بخصوبة أراضيها وكثرة خيراتها ، ما جعلها عرضة للغزو بين فترة وأخرى فاستوطنتها شعوب مختلفة في العصور القديمة ، مخلفة وراءها عدداً كبيراً جداً من التلال الأثرية الهامة ، التي تحوي بين طياتها الكثير من الكنوز الهامة ذات التاريخ العريق ، والتي تعود إلى فترات زمنية مختلفة موغلة في القدم.

> "معبد العيون في تل براك فريد من نوعه في الشرق الأوسط"

وقد قام بالتنقيب في بعض هذه التلال عدد كبير من علماء الآثار والمؤرخين ، منذ نهاية القرن الماضي وحتى الآن ، منهم البروفيسور ماكس. ي .ل. مالوان زوج الكاتبة البريطانية الشهيرة أجاثا كريستي.. والذي قام بالبحث والتنقيب من عام ١٩٣٥– ١٩٣٨ في عدة تلال منها تل براك وتل حطين وتل مفيش وتل جدلة.. والمكتشفات واللقى التي ظهرت في هذه التلال معروضة حالياً في قاعة الجزيرة السورية في متحف حلب ، وهناك العديد من القطع الأثرية الهامة ، معروضة في المتاحف البريطانية.

فما هي أهم مقتنيات قاعة الجزيرة ؟

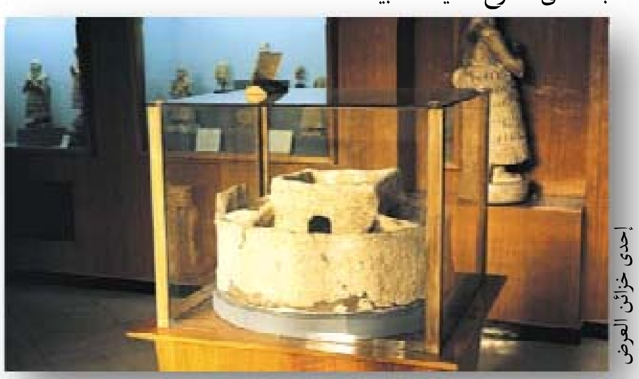
معبد العيون

معظم المقتنيات المعروضة داخل الخزائن تمثل حضارات تل براك وتل حطين.. يقع تل براك على بعد ٤٣كم شمال مدينة الحسكة (مركز منطقة الجزيرة السورية) ، محتلاً رقعة من الأرض بطول ٨٠٠م وارتفاع ٤٣ م ، وقد عثر فيه على أحد أقدم المعابد الدينية في سورية ، والذي يعود تاريخه إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

ونظراً لكثرة اللقى التي اكتشفت فيه والتي لها شكل العيون ، سمي معبد العيون. وهو مبني على مرتفع من الأرض يبلغ ٦ م ، وكانت جدرانه حين اكتشافه لم تزل قائمة على ارتفاع ٣ م ، ويبلغ طول هذا المعبد ٣٠م وعرضه ٢٥م. وقد تم اكتشاف مذبح بارتفاع ١م على الجدار الجنوبي داخل المعبد.. ويزين المذبح في قسمه الشمالي ومن أطرافه الثلاثة إطار مؤلف من أحجار متعددة الأنواع منها حجر كلسي رمادي مائل للزرقة ومرمر أبيض وحجر مائل للأخضر (الخزانة المعلقة رقم ١). وقد أضاف الفنان إلى الحجر الكلسي الرمادي ثلاثة صفوف من الدوائر الصغيرة النافرة والتي تعطي شكل الفسيفساء ، ويحد الإطار من الأعلى والأسفل شريطان من صفائح الذهب المثبتة بمسامير فضية مذهبة الرأس.

أما جدران المعبد الآخر ، فلم يبق من زخرفتها إلا بضع قطع من صفائح نحاسية تحمل رسم العيون على الجدار الشرقي وشريطاً من الحجر الكلسي الأحمر ، وزهرات مركبة من أنواع مختلفة من الحجر الرمادي والأبيض والأحمر على الجدار الجنوبي. (الخزانة المعلقة رقم ٢) وترمز الزهرة في عهود متأخرة إلى الربة السماوية عشتار .

ويعتقد مكتشف معبد العيون بوجود ثلاثة معابد أخرى ، وقد أسماها معبد العيون الرمادي ومعبد العيون الأبيض ومعبد العيون الأحمر ، ولكن لم ينقب أحد فيها حتى الآن. والبناء المرتفع الذي بنيت المعابد فوقه لم يتم دفعة واحدة وإنما خلال فترات متقطعة وطويلة المدى ، ونمط بناء المعبد بالإضافة إلى العناصر الزخرفية التي كانت تزينه معروف جيداً في جنوب بلاد الرافدين ، ويعتقد بعض علماء الآثار بوجود اتصال حضاري واسع قوامه الشعب السومري ، الذي لم يظهر بعد على مسرح الحياة كتابياً.


إحدى خزائن العرض

وقد عثر المنقبون في الطبقة الرقيقة نوعاً ما في معبد العيون الرمادي على آلاف القطع الصغيرة ، ومئات الآلاف من الخرز المصنوع من الحجر والغريت ، وتمائم من الحجر والعظام والغريت معظمها على شكل حيوانات بالإضافة إلى المئات من القطع التي تمثل شكل العيون .

وفي خزانة الوسط رقم (٢) نرى نماذج من هذه الأشكال من الألباستر والفخار وأحجار أخرى ، تتألف من جسم رقيق منبسط ورقبة قصيرة تحمل زوجاً من العيون الكبيرة ، وبعض القطع تحمل فوق العيون تصفيفة شعر أو غطاء رأس مخروطي الشكل وبعضها الآخر لا يكتفي بزوج من العيون ، بل زوجين أو أكثر إلى جانب بعضها بعضاً أو فوق بعضها بعضاً. بالإضافة إلى قسم آخر يحمل رسماً آخر على مقدمة الصدر .

ومما لاشك فيه ؛ أن هذه الأشكال تمثل الإنسان مجرداً ، وتضع مركز الثقل في العيون لتلفت النظر إليها ، ولهذا نلاحظ التكرار والمبالغة في طريقة صنع العيون ، من هنا نجد أن المنقب كان محقاً بإطلاق اسم معبد العيون على هذا الاكتشاف الفريد والوحيد من نوعه في الشرق الأوسط.

آلهة ودمى وتمائم

أما نوعية الآلهة التي كانت تعبد داخل معبد العيون فلا يعرف عنها شيء. ومن اللقى المكتشفة يعتقد بعض العلماء بوجود آلهة متعددة كانت تعبد بمفردها أو مع شريك لها أو مع طفل. ومن القطع الجميلة الرائعة المكتشفة مع بقية الدمى التي ذكرناها رأسان بشريان ، الرقبة طويلة فيهما في غاية الدقة والوضوح.

نرى في نافذة العرض الأخيرة من الخزانة رقم (٢) مجموعة من الدمى الحيوانية والتمائم: أسود ودببة جاثية وأكباش وقنافذ وضفادع وطيور بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الأواني الحجرية معظمها من الألباستر ، وكلا المجموعتين من عهد واحد. وقد أجاد الفنان بواقعية ممتازة في إضفاء روح الحركة على هذه الحيوانات ، وهذه القطع النحتية معروفة أيضاً في جنوب بلاد الرافدين ، ما يؤكد مرة أخرى الصلة الحضارية الوثيقة في الألف الرابع قبل الميلاد بين سكان جنوب العراق ، وسكان تل براك في مستهل فجر الحضارة السومرية.

أما نافذة العرض في الوسط ، فتحوي مجموعة جيدة من الدمى الفخارية الملونة من عصر حضارة حلف ، واغلب الدمى تمثل امرأة عارية جاثية ممتلئة الفخذين كبيرة الصدر ، رأسها صغير يكاد لا يظهر بوضوح. وقد خرج علماء الآثار من دراستهم لهذه اللقى بنتيجة هامة ، مفادها تأكيد الفنان على إظهار العضو التناسلي لدى المرأة وإبراز الصدر وتضخيم الفخذين ، ما هو إلا لأنها تمثل الإلهة الأم رمز الخصوبة والديمومة والحياة ، وهي تعود إلى فترة أقدم من أشكال العيون ، أي بداية الألف الخامس قبل الميلاد ، التي تسمى عصر حضارة حلف ، نسبة إلى أحد أهم التلال الأثرية في شمال سورية بالقرب من مدينة رأس العين على الحدود التركية. ولم تقتصر حضارة حلف على الجزيرة السورية فحسب ، بل امتد إشعاعها الحضاري ليشمل الشمال السوري كله ، بالإضافة إلى جنوب شرق تركيا والشمال العراقي والساحل السوري ، وسنتوقف عند حضارة تل حلف العريقة والهامة في موضوع قادم.

في حين تعود الدمى الفخارية غير الملونة ذات البطن الكبير ، وبعض الدمى النحيفة التي تنتهي بقاعدة شبه أسطوانية ، إلى عهود أحدث ، ويمكن تأريخها في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. ويمكن مشاهدة الأواني الفخارية التي تعود عصر حلف في نافذة العرض اليمنى من الخزانة رقم واحد ، وهي مصنوعة باليد وتتميز بألوانها الزاهية وزخارفها المتعددة على عكس الأواني ذات التربة المخضرة واللون الزخرفي الواحد التي تعود إلى عصر حضارة عبيدْ ، نسبة إلى تل عبيدْ بالقرب من مدينة أور الشهيرة جنوب بلاد الرافدين. وقد انتشرت صناعة هذا النوع من الفخار في بلاد الرافدين والدول المجاورة في نهاية الألف الخامس ق.م.

وفي نافذة العرض الوسط من الخزانة مجموعة أخرى من الأواني الأحدث عهداً من سابقتها ، حيث دخل الإنسان في هذه الفترة مرحلة الآلة(الألف الثالث ق.م) فالأواني مصنوعة بواسطة القرص الدوار أو الدائر ، وقد أضيفت إليها نقوش زخرفية بارزة فيما بعد ، تمثل الحية والعقرب رمز الحياة والخصوبة والاستمرار.

> ”قطع أثرية متعددة تؤكد الصلة الحضارية الوثيقة بين سكان جنوب العراق وسكان تل براك في مستهل فجر الحضارة السومرية“

وفي القسم الأخير من الخزانة نرى نموذجاً آخر من الفخار الذي يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد ، حيث وجد هذا النوع بكثرة في منطقة الخابور مثل تل حطين ، ولهذا سمي خزف الخابور ، والشيء غير المألوف ضمن هذه المجموعة البسيطة الزخرفة ، وجود كأس على شكل وجه إنسان.

ومن الفخار العادي جداً والمستعمل يومياً لدى عامة الشعب ، توجد مجموعة تعود إلى الألفين الثالث والثاني ق.م في الخزانة رقم (٣). وتحوي الخزانة الجدارية رقم (٤) نخبة من الأسلحة البرونزية والحجرية ، من رماح وسكاكين وفؤوس ورؤوس حجرية معظمها من تل براك وحطين ، وتعود إلى النصف الثاني من الألف الرابع (الرؤوس الحجرية) والألف الثالث قبل الميلاد .

جرة خابورية

أختام من عصور مختلفة

في متحف حلب مجموعة جيدة من الأختام الأسطوانية والمسطحة من عصور مختلفة، ووظيفة هذه الأختام إضفاء الشرعية القانونية في حالة البيع والشراء والاستملاك، وكانت تطبع على الطين الطري قبل شيّه أو تجفيفه في الهواء الطلق. وأقدم طبعات أختام اكتشفت كانت على سدادات جرار فخارية أو كتل طينية، وبعد أن اكتشف الإنسان الكتابة وأدخل الرقم الطينية كمواد للكتابة، بدأت الأختام تستعمل على وثائق اقتصادية في مختلف الشؤون كما تستعمل اليوم الأختام في الدوائر الحكومية. وأقدم شكل معروف للأختام هو الختم المسطح الذي أخذ أشكالاً لحيوانات مختلفة مثل الأسد والكبش والثور والنسر والبطة والسمك، أو شكل إنسان جاث أو شكل كبد أو قلب. وبعد اكتشاف الكتابة والرقم الطينية تقهقرت صناعة الأختام المسطحة وحلت محلها الأختام الأسطوانية، وبقيت سائدة بضعة آلاف من السنين في دوائر دويلات الشرق القديم ولدى التجار.

ومنذ بداية الألف الأول ق.م عادت الأختام المسطحة تدريجياً للظهور، وقد شاهدها هيرودوت أبو التاريخ خلال تجواله في المشرق حوالي منتصف القرن الخامس ق.م وذكر أن كل بابلي يحمل ختمه معه. وبعض الأختام الأسطوانية محلاة بالذهب في نهايتها ولها ثقب تعلق بواسطته حول الرقبة. وكل الأختام المعروضة في هذه الخزانة جاءت نتيجة حفريات ماكس مالاوان في الجزيرة السورية، وتمثل الطور الحضاري لهذه المنطقة ابتداء من حضارة حلف وانتهاء بالعصر البابلي المتأخر، أي من الألف السادس حتى القرن الخام ق.م، عاكسة بذلك التاريخ الغني لحضارات الشرق القديم عبر خمسة آلاف سنة على الأراضي السورية، ويمكن لدارس الشرق القديم أن يستكشف الكثير عن الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية لتلك الشعوب من خلال الرسوم التي تعرضها هذه الأختام.

> "الأختام المعروضة تعكس التاريخ الغني لحضارات الشرق القديم عبر خمسة آلاف سنة على الأراضي السورية"

وتحوي الخزانة رقم (٥) مجموعة منتقاة من العقود ذات حبات متنوعة الأشكال والمواد وهذا النوع من الحلي كما يتبين للمشاهد من خلال نافذة العرض لا زمني أي إنه لا يخضع لمقاييس التجديد والتطوير، ولذا فمن الصعب إعطاء تاريخ زمني محدد له إذا لم تكن الطبقة التي يكتشف فيها معروفة جيداً، وبالنسبة للمعروض في الخزانة يعود تاريخه حسب طبقته المكتشف فيها إلى النصف الثاني من الألفين الرابع والثالث ق.م.

رقم طينية ذات شأن كبير

وباكتشاف الكتابة دلف الإنسان عتبة التاريخ، وكانت البداية بسيطة ورمزية أبدعتها الحاجة الاقتصادية لأولى المجتمعات الإنسانية البدائية. وكانت عبارة عن أرقام تسطر على الطين الطري بوساطة أقلام من القصب. وأقدم لوح كتابي من هذا النوع اكتشف على الأرض السورية في مدينة ماري المشهورة، ولكن حفريات البعثتين الألمانية والهولندية في منطقة الغمر (تل حبوبه وتل عروده) كشفت العديد من هذه الرقم الطينية التي لها شأن كبير في ميدان البحث العلمي اللغوي على الأراضي السورية. وقد تطورت فيما بعد فأضيفت إلى الأرقام رموز أخرى تعبر عن كمية المعدود، وفي بداية الألف الثالث ق.م تحولت الكتابة المرسومة إلى كتابة مسمارية، تستطيع أن تعبر عن أعقد المسائل الاقتصادية والاجتماعية، سواء كان ذلك باللغة السومرية أو الأكادية، حيث تعرض لنا الخزانة الموجودة وسط القاعة نماذج من الرقم الطينية المكتوبة بالخط المسماري المتطور من بداية الألف الثاني ق.م والتي عثر عليها في تل براك.

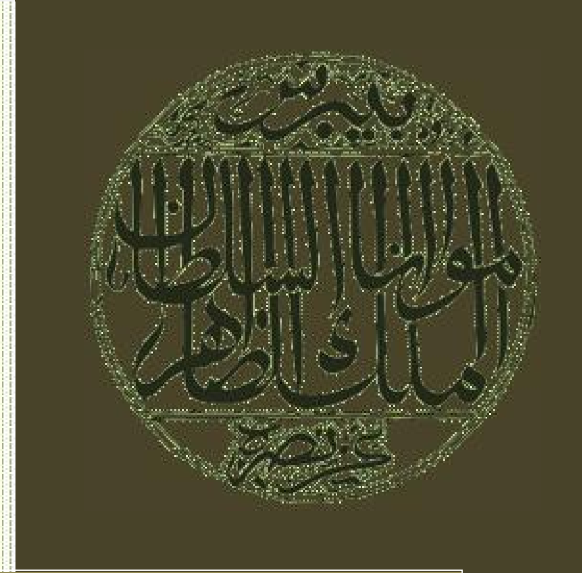


فخار خابوري

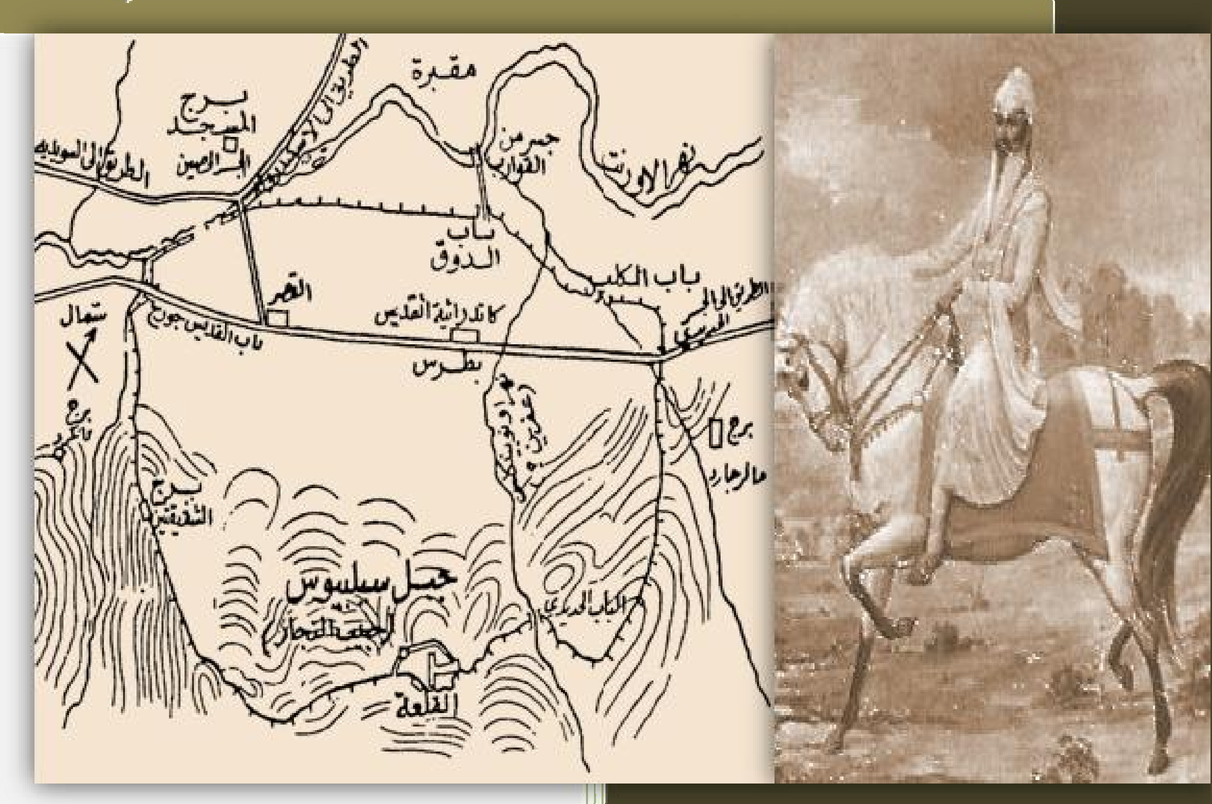
> "الحفريات الأثرية كشفت العديد من الرقم الطينية التي لها شأن كبير في ميدان البحث العلمي اللغوي في المنطقة"

من مؤلفات الأستاذ/ خليل افطيني

- رحلة في تاريخ حوض الخابور.
- مدائن الخابور في الحسكة ودير الزور.
- مشروع الشرق الأوسط الجديد لماذا لبنان أولاً؟



الظاهر بيبرس واستعادة إمارة أنطاكية



- أصل المماليك وإنتقال الحكم من الأيوبين إلى المماليك.
- نبذة عن حياة الظاهر بيبرس.
- تولي بيبرس عرش البلاد وتوطيد دعائم حكمه.
- جهاد بيبرس ضد الصليبيين والمغول.
- استعادة إنطاكية.
- تحليل عام عن شخصية الظاهر بيبرس.

Al Zaher Baibars

and Restoration of The Principality of Antioch

ا.ريهـام المستـــــادي

ماجستير تاريخ إسلامي

صحفية بجريدة المدينة

عضو جمعية الآثار والتاريخ الخليجية

المملكه العربية السعودية

riham_almistadi@hotmail.com



من أين جاء التاريخ؟.. من الذي صنع الأحداث؟

لابد أن هناك أشخاصاً صنعوا التاريخ وسطروا أحداثه، لتسجل في ذاكرته وتكون سجلاً خالداً للأجيال القادمة. فمن هم أولئك الذين صنعوا التاريخ وأحداثه واثروا في مجريات الأمور ؟. شخصية عظيمة دارت دولها الحكايات والقصص الشعبية إنها شخصية الظاهر بيبرس، ذلك الشخص الذي استطاع على قدره فقد كان عبداً فأصبح سيداً؟ ثم انتقل ليكون أميراً لكنه لم يكتفي بذلك بل طمح ان يكون هو السلطان فأصبح ملكاً، فسبحان الله الذي جعل مملوك الأمس سلطان وملك اليوم، وسيداً على ملكه السابق.

كثيراً منا يجهل حقيقة هذه الشخصية وما تحمله من متناقضات الخير للمسلمين والشر للأعداء، فقد تناسينا دوره الجليل في حفظ الاسلام والبقاء على حضارته وذلك من خلال جهاده ضد المغول والصليبيين، لكننا دائماً نتذكر صلاح الدين البطل الذي انتصر على الصليبيين في معركة حطين، وكأنه المجاهد الأوحد الذي هزم الصليبيين في التاريخ.

فها هو بيبرس الذي انتصر في بادىء أمره على الصليبيين في معركة المنصورة فاظهر شجاعة كبيرة، ودوره البطولي في معركة عين جالوت ضد المغول، وجهاده المتواصل بعد توليه الحكم على الصليبيين في عدة مواقع، اذ استطاع استرجاع انطاكية الى حضيرة الاسلام، كم شل المغول في ابلستين.

ولهذا اخترت هذه الشخصية كي اكتب عنها بحثي هذا، فهي من الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ الاسلامي، وهذا مما يعكس اهمية البحث لاهمية الشخصية وأردت من خلال هذا البحث محاولة تذكير من أغفل أو تناسى أهمية هذة الشخصية التي أعجبت بها وأحببتها كثيراً وكم وددت أن أعيش في زمنها فها هي تمضي مئات السنين ويظل اسم الظاهر بيبرس لامعاً مضيئاً كالشهب في سماء دنيا الفروسية.



أصل المماليك

كان الرق منتشراً في العصور الوسطى ،فكانت تجلب الغلمان من بلادهم الى أسواق الرقيق ، عن طريق النخاسون الذين يجلبونهم بالسرقة والخطف. وراجت تجارة الرقيق بسبب الغارات الحربية التي يشنها غاز أو فاتح فنتج عن ذلك سبي الجواري والغلمان.

والأرقاء هم: الترك والجركس والزنوج والفرس..... وغيرهم. ويعتبر الفاطميين أول من استعان بالمماليك الأتراك في مصر من أجل تثبيت السلطنة تشبهاً بالعباسيين في بغداد ، فاقتفى أثرهم بعد ذلك الأيوبيين[١]. فنجد مثلاً الملك الصالح نجم الدين يثبت ملكه بدماء جديدة ، حيث استكثر من شراء المماليك الأتراك فأنشأهم تنشئة عسكرية. وعندما زاد عددهم في البلاد رأى أن يبني لهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة يقيموا بها. ومن هنا جاء تسميتهم بالمماليك البحرية ، والتي آل حكم البلاد فيما بعد الى أيديهم فقامت دولتهم[٢].

انتقال الحكم من الأيوبيين الى المماليك

في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وجه الصليبيين حملة كبيرة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الى مصر بهدف الاستيلاء عليها وفي اثناء الحملة توفي الصالح ايوب ، فاخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته خشية من أن يهتز وضع المسلمين في المعركة ، وأرسلت في الوقت نفسه تستدعي ابنه توران شاة من حصن كيفا ، ليأتي على عجل ويتولى مقاليد الحكم[٣]

وفي اثناء ذلك برز نجم المماليك البحرية الذين اخذوا على عاتقهم إنقاذ البلاد بقيادة فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري فكانوا سبباً في نصرة المسلمين[٤]. وفي هذه الأثناء وصل المعظم توران شاه الى مصر فأعلنت وفاة الصالح أيوب وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور ، فأعد خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين ، مما اضطر الصليبيين الى التراجع فطاردهم المماليك ، وقع لويس التاسع في الأسر ، وانتهت الحملة الصليبية بانتصار المسلمين بفضل جهود المماليك[٥].

---

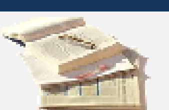
[١] محمود شلبي ، حياة الملك الظاهر بيبرس ، (بيروت ، دار الجبل ،ط١ ، ١٤١٢هـ) ، ص١١.

[٢] ابن واصل/جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم (ت٦٩٧هـ) ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج٦ ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، (بيروت ، المكتبة العصرية ، ط١ ، ١٣٢٥هـ) ، ص٨٢.

[٣] ابن تغر بردي/ جمال الدين ابي المحاسن (ت٨٧٤هـ) ، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج٦ ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٣هـ) ، ص٣٢٢.

[٤] الدويداري/ أبي بكر بن عبد الله بن ايبك ، كنز الدرر وجامع الغرر ، (الدر المطلوب في أخبار بني ايوب ج٧). تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور ، (القاهرة ، د.ت ، د.ط ، ١٣٩١هـ) ، ص٣٧٦.

[٥] ابن كثير/ الامام الحافظ ابي الفداء اسماعيل(٧٧٤هـ) ، البداية والنهاية ج١٣ ، تحقيق: عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي بيضون ، (بيروت ، دار المعرفة ، ط٥ ، ١٤٢٠هـ) ، ص ٢١٠.



وسرعان ما ظهر للناس ان السلطان الجديد لم يكن الجل المناسب الذي سوف يتولى أمورهم ويصلح حالهم ، كما أنه ازداد غروراً بالنصر الذي حققه ، وتناسى ما أبلاه مماليك ابيه ، ولما احتج عليه هؤلاء رد عليهم بالتهديد وأبعدهم عن المناصب الكبرى.

كما تنكر لزوجة أبيه شجرة الدر التي حفظت ملكه وهو غائب ، فاتهمها بإخفاء ثروة أبيه فطالبها بالمال والجواهر وهددها حتى خشيت على نفسها منه ، مما حملها على بث شكواها الى المماليك الذين يخلصون لها[٦] فحقد عليه المماليك نتيجة للسياسته الحمقاء ، وتخوفوا من نواياه فاستقر لهم الرأي على قتله قبل ان يبطش بهم بمساندة شجرة الدر. وتزعم مؤامرة قتله مجموعة من الأمراء البحرية منهم فارس الدين اقطاي وبيبرس البندقداري فتم لهما ذلك صباح يوم الاثنين (٢٨/محرم/٦٤٨هـ) [٧]

بعد مقتل توران شاه ، أصبح كرسي العرش شاغراً فاختيرت شجرة الدر كي تتولى السلطة[٨] فسعت جاهدة كي تتقرب من عامة الشعب ، الا ان المصريين لم يتقبلوا وجود امرأة في السلطة ، كما غضب الخليفة المستعصم من توليها الحكم ، فوجدت شجرة الدر نفسها في موضع حرج ، مما جعلها تستجيب للضغوط التي أحاطتها وتخلع نفسها من السلطة ، وتتزوج الأمير عز الدين أيبك لتتنازل له عن العرش.[٩] وكانت مدة ملكها ثلاثة أشهر ، وبعد أن اعتلى عز الدين السلطة ، تلقب بالملك المعز. [١٠]

وبتنصيب الملك المعز حكم مصر تكون بذلك نهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك.

نشأته

هو بيبرس بن عبد الله السلطان العظم الملك الظاهر ركن الدين ابو الفتح الصالحي ، ولد بارض الخبجاق (٦٢٥هـ) أغار التتار على بلاده فاسر وبيع ثم حمل الى سواث ، ومنها الى حلب وأخيراً استقر به الحال في القاهرة فشراه الأمير علاء الدين البندقداري وبقي عنده الى أن قبض عليه الملك الصالح نجم الدين واخذ بيبرس ليبقى في خدمته. [١١] كان أسمر بحمرة ، اشهل بزرقة ، تام القامة ، مليح الشكل ، جهير الصوت ، اصبح من أعيان الجامكية ، شهد وقعت المنصورة ، وله مواقف مشهودة وسيرة كبيرة وضعها محيي الدين بن عبد الظاهر ليصف شجاعته وفتوحاته ، وسيرة أخرى لأبن شداد. [١٢]

ولازالت الأقدار تساعده حتى وصل الى ما وصل اليه ، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً يباشر الحروب بنفسه له مع التتار الوقائع الهائلة وكذلك مع الفرنج ، وبنى مدرسته بالقاهرة سنة (٦٦٢هـ)، وجعلها الفرنجة حين استولوا على مصر قلعة لهم لمتانتها وصلابتها. [١٣] ونجده في عام ٦٦٢هـ يسن نظام جديد وهو ولاية العهد لأول مرة في تاريخ دولة المماليك من أجل حصر وراثة العرش في ابنائة من بعده.

وفاته

بعد ان كسر الظاهر بيبرس التتار، وصل الى الشام ونزل بالقصر الأبيض واختلف في سبب وفاته ، فقيل ان القمر كسف كله وشاع انه لموت جليل القدر ، فاراد الظاهر تأويله بغيره ، فاستدعى احد أولاد القاهر ابن المعظم عيسى ، وسقاه قمزاً مسموماً ، ثم شرب الظاهر ناسياً فتوفي عقب ذلك. كان ملازماً لصلواته الخمس في أوقاتها ، لم يشرب خمراً في حياته ، [١٤] وقد أقواله الماثورة "سماع التاريخ اعظم من التجارب" [١٥]

معركة عين جالوت ودور بيبرس بها

بعد أن أتم التتار الأستيلاء على البلاد الشامية ، أخذوا يستعدون للتقدم الى مصر ، فاستعد المظفر قطزبأن أعد الجيوش وتأهب للقاء العدو ، فخرج في شعبان سنة ٦٨٥ متوجهاً الى الشام لقتال التتار ويسبقه على مقدمة الجيش ركن الدين بيبرس ، فالتقوا عند عين جالوت ووقع القتال يوم الجمعة في الخامس عشر من رمضان[١٦] ، ورغب قطز في تحميس الجيش فالقى بخوذته فحمل الأمراء والعساكر حملة صادقة على العدو ، فقتل قائد الجيش المغولي كتبغا ، وقتل اكثر التتار وكسرت شوكتهم[١٧].

---

(٦) العيني / بدر الدين محمود (ت٨٥٥هـ) ، عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ، ج١ ، تحقيق: محمد محمد أمين ، (القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ، د.ط ، ١٤٠٧هـ) ، ص٢٤.

(٧) المقريزي/ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي (ت٨٤٥هـ)، السلوك في معرفة دول الملوك ج١ ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٢٨هـ) ، ص٢٠١.

(٨) السيوطي/ جلال الدين عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ج٢، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم ، (بيروت ، المكتبة العصرية ، ط١ ، ١٤٢٥هـ)،ص٣١.

(٩) ابن تغر بردي ، مصدر سابق ، النجوم الزاهرة ج٦ ، ص٣٣٣.

(١٠) النويري/شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب ج٢٩ ، تحقيق: نجيب مصطفى فواز ، حكمت كشلي فواز ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٢٤هـ) ، ص٢٣٥.

(١١) الكتبي/ محمد بن شاكر بن احمد (ت٧٦٤هـ)، فوات الوفيات ج١ ، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ٢٠٠٠م) ص٢٥١.

(١٢) الذهبي/ شمس الدين محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: سيد حسين وخيري سعيد ، سير أعلام النبلاء ج١٧ ، (القاهرة ، المكتبة التوفيقية ، د.ط) ص٣٢١.

(١٣)عبد القادر بدران ، (ت ١٣٤٦هـ)، منادمة الأطلال ج١ ، تحقيق: زهير الشاويش ، (بيروت ، المكتب الاسلامي ط٢ ، ١٩٨٥هـ) ص١٢١.

(١٤) ابن الوردي/ زين الدين عمر (ت٧٤٩هـ)، تاريخ ابن الوردي (تتمة المختصر في اخبار البشر) ج٢ ، (النجف ، المطبعة الحيدرية ، د.ط ، د.ت) ص٣٢١.

(١٥) ابن تغر بردي ، النجوم الزاهرة ج٧ ، ص١٦٢.

(١٦) السيوطي ، مصدر سابق ، ص٣٣.

(١٧) الدويدار/ بيبرس ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تحقيق: زبيدة محمد عطا ، (د.م ، د.ط ، د.ت) ، ص٦٩.



ويرجع الفضل في ذلك الى شجاعة بيبرس[١٨]، الذي كان في مقدمة الجيش لتقصي أخبار التتار، فكان أول اشتباك بين المسلمين والتتار وقع في مقدمة الجيش الذي يقوده، كما تتبع فلولهم الفارة بعد انهزامهم في المعركة في حمص وتتبعهم الى حلب الى ان كتب الله العزة والنصر للمسلمين والذل والانكسار للتتار[١٩].

ونأتي هنا كي نحلل دور بيبرس الرائع في المعركة، فقد لعب دوراً هاماً لأنه كلف من جانب قطز بمهمة صعبة، وهي قيادة مقدمة الجيش، فلم تكن قيادة المقدمة من الجيش بالشيء اليسير، ولولا ان قطز يعي جيداً قدرات بيبرس الحربية ما كان ليوليه القيادة. وكانت خطة قطز في حربه مع التتار هو البدء بتشتيت قوات المغول واستنزافها قبل الالتقاء مع بقية الجيش الاسلامي، حيث تظاهر بيبرس بالتراجع نحو التلال، فأسرع كتبغا لمطاردته، فلم تمض فترة قصيرة حتى طوق الجيش المغولي بكاملة، فكانت سيوف لهم بالمرصاد. وهكذا انتهت المعركة لصالح المسلمين، ومنعت فلول المغول والتتار من التقدم نحو بقية العالم الإسلامي.

اعتلاء عرش البلاد

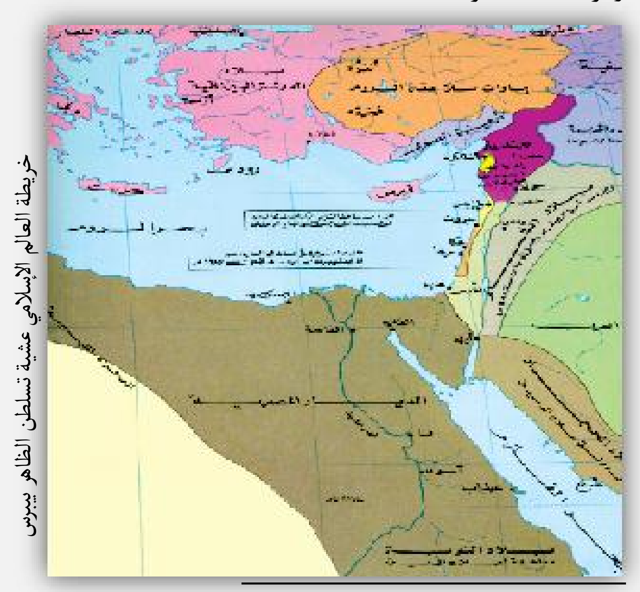
بعد انتهاء معركة عين جالوت أراد بيبرس أن يأخذ حلب كما وعده قطز بذلك قبل المعركة، ولكن قطز رجع عن وعده له، ومن المحتمل أن يكون السبب في عدول قطز عن وعده أنه خشى من أن يقوى نفوذ بيبرس. وقد دفع ذلك بيبرس بأن يضمر الشر في نفسه، فأصبح كلاً منهما يضمر الشر للآخر، مما دفعه ان يتفق مع عدد من الأمراء الناقمين على قطز بالتخلص منه، فاتفقوا على قتله[٢٠]، فأخذوا يترقبون الفرصة الى أن خرج قطز طالباً الصيد، فظهر له أرنب فخرج ورائها، فتقدم أحدهم اليه ليشفع عنده فسارع بيبرس وهوى عليه بسيفه فأقبل الجميع على قتله، ورموه عن فرسه وقتلوه بالنشاب، وكان ذلك في سنه ٦٥٨هـ[٢١]. وفي رواية أخرى: (بعدما فرغ من صيده وعاد يريد الدهليز السلطاني طلب منه الأمير بيبرس امرأة من سبي التتر، فأنعم بها عليه. فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها وكانت اشارة بينه وبين الأمراء)[٢٢].

كما وردت هذة الرواية عند ابن كثير في البداية والنهاية. لكن اختلفت في كلاً من زبدة الفكر وتاريخ ابن خلدون، فنصت على (بأن تقدم اليه أنز - وهو أحد الأمراء البحرية - شفيعاً في بعض أصحابه فشفعه له فأهوى يقبل يده فأمسكها وعلاه بيبرس بالسيف فخر صريعا لليدين)[٢٣].

وبغض النظر عن تفاصيل مقتل قطز ومن هو المنفذ، فنحن ندرك أن بيبرس قد تسبب في قتله. ولكن.. ما هو السبب الحقيقي وراء ذلك، هل كان عدم تولية قطز لبيبرس على حلب، أم أن هناك آثار عداوة باقية بينهما. أعتقد أن العداوة القديمة بين الطرفين هي السبب الحقيقي ويبدو أن الذي أشعل فتيلها من جديد هو عدم وفاء قطز لما وعد به بيبرس.

وبعد مقتل قطز، سار الأمراء الذين قتلوه الى الدهليز السلطاني بالصالحية، واتفقوا على سلطنة بيبرس، فقام الأمير أقطاي المستعرب وقال لهم: (من قتله منكم؟) فقال الأمير بيبرس: (أنا قتلته)، فقال أقطاي: (يا خوند اجلس في رتبة السلطنة مكانه) فجلس بيبرس، وبايعه اقطاي وحلف له، ثم تلاه سائر الأمراء والجند[٢٤]. وسار بعد ذلك في موكب السلطان طالباً مصر، فجلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل في يوم الخميس السابع عشر من محرم سنة ٦٧٦هـ[٢٥].

وبذلك يصبح السلطان بيبرس أول سلاطين دولة المماليك البحرية الذين جلسوا على عرش البلاد. وعندما بدأ مهام السلطة الجديدة اخذ يكتب ويراسل الأقطار ليعلم الأمراء بانه أصبح سلطان البلاد، واتخذ لنفسه لقب الملك القاهر[٢٦]، لكن أشار عليه الوزير زين الدين بتغيير هذا اللقب، وقال له: ما لقب به أحد فأفلح. قاصداً به القاهر بن المعتضد، الذي سملت عيناه، والقاهر عز الدين صاحب الموصل، الذي سم. فلما سمع ذلك بيبرس اتخذ لنفسه لقباً جديداً وهو الملك الظاهر[٢٧].


خريطة العالم الإسلامي عشية تسلطن الظاهر بيبرس

(١٨) وليم موير، تاريخ دولة الممليك في مصر، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١٤١٥،١هـ)، ص٤٤-٤٥.

(١٩) زاهية الديجاني، الظاهر بيبرس بين المغول والصليبيين، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٣هـ).

(٢٠) الذهبي/ الحافظ محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، العبر في خبر من غبر ج٣، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، (بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت)، ص٢٨٨.

(٢١) ابن سباط/ حمزه بن أحمد بن عمر، صدى الأخبار (تاريخ ابن سباط)ج١، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (طرابلس، جروس برس، ط١، ١٤١٣هـ)، ص٣٩٧.

(٢٢) المقريزي/ تقي الدين ابي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت٨٤٥هـ) ص٥١٩.

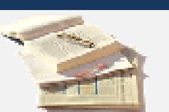
(٢٣) ابن خلدون/ عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، (د.م، بيت الأفكار الدولية، ط١، د.ت)، ص١٤٥٥. — ابن كثير، مصدر سابق ج١٣، ص٢٦١. - بيرس الدويدار، مصدر سابق، ص٧٣.

(٢٤) المقريزي، السلوك ج١، ص٥٢٠.

(٢٥) المقريزي، المواعظ والأخبار بذكر الخطط والآثار ج٣، اعتنى به خليل منصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ)، ص٤١٥.

(٢٦) ابن تغر بردي، النجوم الزاهرة ج٧، ص٩٤.

(٢٧)ابن واصل، مفرج الكروب ج٦، ص٣٠١.



أعماله الداخلية

عمل بيبرس على استمالة العامة تجاهه ، وذلك كي ينسيهم مقتل سلطانهم ، ويزيح عن بالهم ما علق به في خاطرهم من اتصافه بالقوة والشدة. فقام بتخفيف الضرائب التي فرضها عليهم قطز قبل خروجه لملاقاة المغول(٢٨). وأرى في ابطال الملك بيبرس للضرائب دليلاً قوياً على عبقريته وحنكته السياسية لانه يعلم مايرضي العامة ويقربهم منه ، وينتزع كرههم للماليك ليضع بدلاً عنه محبته وثقته في قلوبهم ، فأصبح محط اعجابهم وتقديرهم.

قضاءه على تمرد سنجر الحلبي

كان علم الدين سنجر الحلبي نائب السلطنة بدمشق من قبل قطز. وعندما ورد اليه خبر مقتل قطز وعلو بيبرس السلطة ، غضب لذلك ورفض الأمتثال لطاعة السلطان الجديد(٢٩) ، فدعا لنفسه وتلقب بالملك المجاهد ، وخطب له على المنابر يوم الجمعة ، وضرب السكه بأسمه ، كما كاتب صاحب حماه كي يخرج على السلطة الجديدة لكنه رفض وقال: (أنا مع من تملك مصر كائناً من كان) (٣٠).

حاول الظاهر بيبرس أن يسيطر على الأمر ، فاكتفى بالوعيد والتهديد كي ينصاع الحلبي له ، وعندما لم يذعن له رأى ذلك بيبرس اضطر الى استعمال القوة ، فجهز جيشاً بقيادة علاء الدين البندقداري(٣١) ، استاذ بيبرس الأول ، فوصل الجيش دمشق فخرج لهم الحلبي لقاتلهم حيث هزم الحلبي ، فهرب ليلاًالى دمشق متجهاً الى بعلبك ، لكنه أعتقل وحمل الى القاهرة لكن الملك الظاهر أعفى عنه بعد فترة(٣٢)

ثورة الكوراني

كانت ثورة شيعية قامت في القاهرة تستهدف أحياء الخلافة الفاطمية ، فاستولى الثوار على دكاكين السيوفيين من أسلحة ، فجابوا في طرقات القاهرة يصيحون "يا آل علي" ، ولكن الظاهر بيبرس استطاع أن يسيطر عليهم حيث أرسل جنده فأحاطوا بهم وشنقوهم على باب زويله. (٣٣)

كما قامت عدة ثورات أخرى ، تمكن بيبرس من القضاء عليها ومن أهم الثورات التي اقلقته وخشي على سلطانه منها ، ثورة المغيث عمر صاحب الكرك ، فتمكن من القضاء عليها باستخدام الحيلة فاستحضره الى بيسان كي يلقاه ، فقبض عليه رغم الأمان الذي أعطاه أياه بيبرس وبعث به الى القاهرة وضل بها الى ان قتل بعد ذلك. (٣٤)

ثم توجه بعد ذلك الى الاصلاحات الداخلية والعمل على التقرب من العامة ونجد أن أهم عمل قام به هو ارجاع الخلافة العباسية.

احياء الخلافة العباسية

أحياء بيبرس الخلافة العباسية سنة ٦٥٩هـ، بعدما تولى الحكم بعام ، ونصب المستنصر بالله أحمد أبو القاسم بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله احمد. وكان محبوساً ببغداد ثم فر الى عرب العراق ، فعلم السلطان بيبرس بخبره ، فركب للقائه ومعه القضاة ، ثم بويع بالخلافة واول من بايعة السلطان ثم قاضي القضاة ، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وتم ذلك في الثالث عشر من رجب ، ونقش اسمه على السكه ، وخطب له ثم سار وعليه السواد الى جامع القلعة. (٣٥)

النظام القضائي

كان الظاهر بيبرس أول من جلس للمظالم من سلاطين المماليك ، ومن شدة حرصه على قيام العدل بين الناس أنشأ داراً للعدل ، وخصص يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع للنظر في القضايا التي تعرض عليه ، وقد عين اربعة قضاة ، والسبب في ذلك يعود لتوقف قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز في تنفيذ الأحكام التي لا توافق مذهبه ، (٣٦) كما منع الملك الظاهر بيع الخمور والحشيش وأغلق الحانات ونفى المفسدين خارج البلاد. (٣٧)

البريد

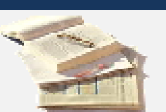
لقد أولى البريد اهتماماً خاصاً ، فقد زاد في عدد محطاته على الطريق ، وجهزها بخيل سريعة. كما قام بصرف المرتبات والمكافات للقائمين عليه ، وحرص على قراءة ما يرد اليه من البريد كما أنه لم يؤخر رداً وجواباً للبريد ، ومن خلاله استطاع أن يدير أمور الشام ومصر. (٣٨)



الدينار الجديد الذي ضربه بيبرس في الإسكندرية عام ٦٥٩هـ

(٢٨) وليم موير ، تاريخ دولة المماليك ، ص٤٨.
(٢٩) المقريزي ، السلوك ج١ ، ص٢٢١.
(٣٠) ابن سباط ، تاريخ ابن سباط ، ص٣٩٩.
(٣١) علاء الدين ايدكين البندقداري ، استاذ الملك الظاهر بيبرس ، وقد أنابه على حلب ، فسبحان من يعز ويذل. النجوم الزاهرة ج٧ ، ص١٠٣.
(٣٢) ابن سباط ،المصدر نفسه ، ص٤٠١.
(٣٣) المقريزي ، المصدر السابق ، ص٥٢٢.
(٣٤) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ص١٤٥٧.

(٣٥) السيوطي/ جلال الدين ، تاريخ الخلفاء ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ط ، د.ت) ، ص٣٨١.
(٣٦) ابن تغر بردي ، النجوم الزاهرة ج٧، ص١٠٩. — السيوطي ، حسن المحاضرة ج٢ ، ص١٢٨.
(٣٧) عبد الحميد عبد المقصود باشا ، موسوعة سفير للتاريخ الاسلامي (مصر والشام والجزيرة العربية)، (القاهرة ، شركة سفير للنشر)، ص٨٨-٩٠.
(٣٨) عبد العزيز عبد الله الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، (د.م ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ) ، ص٤٤-٤٥.



الأسطول والجيش

عمل على تكوين قوة بحرية لتصبح سنداً له ضد أعدائه في الخارج، ويعتبر بحق المؤسس الأول للأسطول البحري المملوكي، فأنشأ دار لصناعة السفن في الفسطاط والأسكندرية ودمياط وكان يشرف بنفسه على الشواني.(٣٩) ومن شدة حرصه على صناعة السفن أنه منع الناس من التصرف في الأخشاب ببيعها، واستطاعت الشواني أن تغلب شواني قبرص وتكسرها.(٤٠)

هذا بالإضافة الى أنه أعد جيش جيد التنظيم، فأولاه عنايته واهتمامه منذ أن تولى حكم مصر، فقد استكثر من شراء المماليك، وعني بتربيتهم دينياً وعسكرياً.(٤١)

الجانب الحضاري في دولة الظاهر بيبرس

تميز عهد الظاهر بيبرس بمباني وعمائر لم تكن معروفة زمن من سبقوه، وان دل ذلك على شي فإنما يدل على وفرة المال وحياة الرخاء في عهدة، فبنى الابنيه والرباع والخانات والمساجد والحمامات.(٤٢)

وبصفة عامة نجد أن العصر المملوكي كان عصر ازدهار للفن الإسلامي في بلاد مصر والشام، فأصبحت مصر عامة والقاهرة خاصة مركزاً هاماً وحيوياً للفن الإسلامي والمنشآت المعمارية، ومن أهم تلك المنشآت التي تميز بها ذلك العصر وخاصة في عصر الظاهر بيبرس هو مسجده الذي أنشأه عام ٦٦٥هـ، وتميز بالزخارف الحجرية والجصية من الداخل.(٤٣) كما انشأ مدرسة عرفت بالمدرسة الظاهرية، وجعل فيها أربعة مدرسين لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة، ووضع فيها خزانة للكتب تشمل على أمهات الكتب في سائر العلوم وبنى بها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله(٤٤).

جهاد بيبرس ضد المغول

إن العداء بين المماليك والمغول لم ينقطع منذ وقعة عين جالوت، اذ ظل مغول فارس يتحينون الفرصة للثأر، وخاصة ابغا ابن هولاكو، الذي واصل سياسة ابيه العدائية تجاه المسلمين، فيما اتسمت سياسته مع الصليبيين بالود. لكن الظاهر بيبرس وقف لهم دائماً بالمرصاد واستطاع أن يكسر شوكتهم، مما دعا ابغا الى طلب الصلح، ولجأ في طلبه الى الترغيب والتهديد، لكن بيبرس كان يعلم جيداً أن الصلح مع المغول امر لايرضي المسلمين، وذلك بسبب ما فعلوه في بغداد.(٤٥)

ورغم ذلك واصل المغول هجماتهم على الساجور،(٤٦) لكن بيبرس ردهم خائبين، ثم ما لبثوا أن هاجموا عين تاب، لكن بيبرس دحرهم، وهكذا قام بكسر التتار في أخرها عندما تحالف المغول مع سلاجقة الروم في اسيا الصغرى، فأعد حملة كبيرة سنة ٦٧٥هـ،(٤٧) لغزو سلاجقة الروم. وفي موقعة أبلستين حلت الهزيمة الساحقة بالمغول وحلفائهم من السلاجقة، وقد فر زعيم السلاجقة بعد ان قتل عدد كبير من رجالة ورجال المغول، ثم دخل بيبرس قيسارية، ودعي له على منابرها وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة.(٤٨) وقيل ان أبغا لما سمع بما فعله بيبرس برجاله في موقعة ابلستين أسرع الى هناك ليشتد غضباً بما وجده من الآف القتلى من المغول في حين لم يرى أحدا من السلاجقة، مما جعلة يأمر بقتل ما يزيد على مائتي ألف من المسلمين السلاجقة.(٤٩)

وهكذا نرى أن حروب بيبرس ضد المغول والصليبيين قد أوقفت خطراً كان يهدد الدولة الإسلامية، إذ استطاع بقوته وحنكته أن يصبح المسيطر في المنطقة، مما حفظ الحضارة الإسلامية من الضياع.

جهاد بيبرس ضد الصليبيين

خرج الملك الظاهر بيبرس من مصر عام ٦٦٤هـ، بعساكره الى البلاد الساحلية الواقعة تحت سيطرة الفرنج، فنزل قيسارية وتمكن من فتحها بعد ستة أيام فهدمها، ثم سار الى أرسوف وفتحها في جمادي الآخرة من هذة السنة. وفي هذة السنة خرج الملك الظاهر من مصر متوجهاً الى طرابلس، ومنها الى صفد حيث قتل وجرح العديد من المسلمين، وتمكن من فتحها في التاسع عشر من شعبان، حيث أعطى أهلها الأمان ثم قتلهم جميعاً.(٥٠)

وفي سنة ٦٦٥هـ، توجه الملك الظاهر بيبرس من دمشق الى الديار المصرية بعد أن تم له الاستيلاء على بلاد سيس بكاملها، وعلى الكثير من معاقل الفرنج، وذهب بعد ذلك الى الكرك ليطلع على

---

(٣٩) الشواني: جمع شينة أو شونه وهي من أهم القطع التي كان يتألف يتألف منها الأسطول، وهي عبارة عن مراكب حربية كبيرة كان يقام فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع والهجوم، كما احتوت على مخازن لخزن الطعام والمياه.

(٤٠) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، (القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة للنشر) ص٤١٣.

(٤١) عبد الحميد باشا، موسوعة سفير، ص٨٢.

(٤٢) ابن تغر بردي، النجوم الزاهرة ج٧، ص١٧٢.

(٤٣) م.س.ديماند، الفنون الاسلامية، ترجمة أحمد فكري، (القاهرة، دار المعارف) ص١٠٩.

(٤٤) المقريزي، الخطط المقريزية، ص٢٢٤.

(٤٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الايوبين والمماليك، (بيروت، دار النهضة العربية، د.ط، د.ت) ص٢٠١.

(٤٦) الساجور: اسم نهر بمنبج، الحموي/ شهاب الدين ياقوت، (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان ج٥، (بيروت، دار احياء التراث العربي، د.ط، د.ت) ص٧.

(٤٧) ابن خليكان/ ابي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابي بكر (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان ج٤، تحقيق: احسان عباس (بيروت، دار الفكر، د.ط، د.ت) ص١٥٥.

(٤٨) أبي الفداء/ الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل (ت٧٣٢هت)، المختصر في أخبار البشر ج٤، تحقيق: محمد زينهم (القاهرة، دار المعارف، ط١، د.ت) ص١٧.

(٤٩) اليافعي/ ابو محمد بن عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان (ت٧٦٨هـ)، مرآة الجنان ج٤، (القاهرة، دار الكتاب الاسلامي، ١٤١٣هـ) ص١٧٤.

(٥٠) ابي الفداء، المختصر في اخبار البشر ج٤، ص٧-٨.

أحوالها، لكنه سقط من على فرسه عندما كان يصطاد فانكسرت فخذه.(٥١) وفي سنة ٦٦٦هـ، توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره الى بلاد الشام وفتح يافا في شهر رجب، وأخذها من الفرنجة، كما تمكن من فتح انطاكية بالسيف.(٥٢)

وبعدما فرغ السلطان بيبرس من فتح يافا توجه الى الشقيف وفي أثناء سيره اليها وقع في يده خطاباً من الفرنج بعكا الى النواب بالشقيف يحذرهم من سير المسلمين إليهم، ولما قرأه بيبرس خطر في ذهنه خطة فاستدعى من يكتب بالإفرنجي، وأمره أن يكتب كتاباً يتضمن فيه أن يحذر الكمندور من الوزير وكتاباً أخر يتضمن العكس، مما جعل الوقيعة والفرقة تقع بين الاثنين، وهذا ما ساعد بيبرس في الاستيلاء على الشقيف بعد أن شدد الحصار عليها.(٥٣)

فتح انطاكية

لم أجد في المصادر ما يذكر بالتفصيل فتح انطاكية، كما ذكرها بسام العسلي في كيفية استيلاء الملك الظاهر عليها وتقسيمه للجيش الاسلامي. اجتمعت معظم المصادر بذكر أن السلطان نزل عليها مستهل شهر رمضان المعظم سنة ٦٦٦هـ، فخرج أهلها يطلبون الأمان، وشرطوا شروطاً ما، قبلها السلطان، فردهم خائبين.(٥٤)

بعض ما جاء من أخبار أنطاكية

بعد أن تمكن السلطان من السيطرة على انطاكية، خرج حوالي ثمانية الاف نفر من الجال عدا الحريم والأولاد، فتزاحموا مما أدى الى موت الكثير منهم، ونفاذ طعامهم مما استدعاهم ذلك الى طلب الأمان، فخرجوا سجداً وقالوا: (ارحمنا يرحمك الله) فرق الملك الظاهر لهم، فعفا عنهم من القتل.(٥٥)

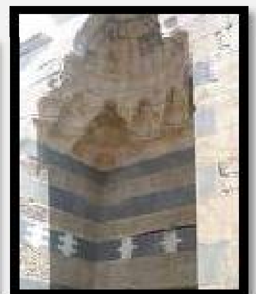
وما قيل في أمر بناء أنطاكية ان الملك أنتميوخس أراد بناء مدينة يعمرها وتنسب اليه، فطلب من حكمائه ووزراءه اختيار مكان يكون طيب الهواء والماء قريباً من البحر والجبل، فوجدوا أنطاكية بهذة الصفات، فأمر باخراج الأموال وجمع الرجال للبدء في بناءها.فأتم بناءها في ثلاث سنوات ونصف، وبنيت أسوارها وابراجها، ولها من الأبواب تسعة، وجعل باب من الجبل ينزل الى المدينة ولم تزل هكذا الى ان ظهر المسيح عليه السلام، وظلت في أيدي النصارى ثم انتقلت الى ايدي المسلمين عندما صاع أبا عبيدة الجراح أهلها على الجزية، واستقرت بعد ذلك في ايدي بني حمدان، الى ان ملكها الروك وظلت تنتقل امارة انطاكية من ايدي المسلمين الى النصارى الى ان اتم الله فتحها على يدي الظاهر بيبرس.(٥٦) وهذة أنطاكية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم بقوله تعالى:

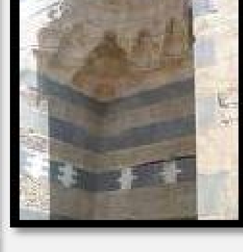
{ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ}.(٥٧)

فتح بغراس(٥٨)

بعد ان فتح الملك الظاهر بيبرس المناطق السابق ذكرها، اراد فتح بغراس، فأرسل جيشاً بقيادة الأمير شمس الدين أقنقر في الثالث عشر من رمضان، ولم يكن بها سوى امرأة عجوز، فكانت ما تركوا أهلها، وقد حاول قبل بيبرس الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين ان يفتحها حيث حاصرها بالجيش الحلبي سبعة اشهر فلم يستطع، ولكن السلطان بيبرس تمكن من غير تعب أن يستولي عليها،(٥٩) وكانت المدينة خالية للخوف منه، وأصبحت بعد ذلك من الحصون الاسلامية.(٦٠)

وفي هذة السنة من شوال صالح الظاهر بيبرس هيثوم صاحب سيس على أن يحضر سنقر الأشقر الذي أسره التتار في قلعة حلب، كما يطلق له الظاهر ابنه ليفون.(٦١)





المدرسة الظاهرية

توجد المدرسة الظاهرية (نهاية القرن الثالث عشر) في مدينة دمشق أمام المدرسة العادلية حيث يستقر جثمان السلطان الأيوبي الملك العادل الكبير، شقيق صلاح الدين الأيوبي. وتعد المدرسة الظاهرية اليوم مكتبة قومية للمخطوطات وتحتوي على مقبرة السلطان المملوكي بيبرس قاهر كلٍّ من المغول والصليبيين. وهي تتميز بالزخارف الفخمة والموزاييك الذهبي التي تماثل الأشكال الفنية للمسجد الكبير إلا أنها لا تعادلها في البراعة. وتحتوي على غرفة الدفن والتي تستقر فوقها قبة عالية على المحراب العظيم.

(٥١) ابن كثير، البداية والنهاية ج١٣، ص٢٨٩.
(٥٢) العلمي/ مجير الدين الحنبلي (ت٩٢٧هـ)، الأنس الجليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد، (عمان، مكتبة دنيدس، ١٤٢٠هـ) ص٨٦.
(٥٣) الدويدار، مصدر سابق، ص١٢٥-١٢٦.
(٥٤) أبي الفداء، المختصر في تاريخ البشر، ص١٠. — ابن الوردي/ زين الدين بن عمر، تتمة المختصر في تاريخ البشر ج٢، ص٣١٢.- الذهبي، العبر في خبر من غبر ج٣، ص٣١٤.- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ج٥، ص٣٢٢.
(٥٥) الدويداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ص١٢٧.
(٥٦) الدويداري، كنز الدرر، ص ١٣١-١٣٢-١٣٣
(٥٧) سورة يس، أية ١٣.
(٥٨) بغراس أو بغراص، مدينة في لحق جبل الكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ، معجم البلدان ج١، ص٣٦٨.
(٥٩) العيني/ بدر الدين محمود (ت٨٥٥هـ)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج٢، تحقيق: محمد محمد امين، (القاهرة، النهضة المصرية للكتاب، د.ط، ١٤٠٨هـ)، ص٢٩.
(٦٠) ابن الوردي/ زين الدين عمر، تاريخ ابن الوردي، ص٣١٢.
(٦١) ابن الوردي، مصدر سابق، ص٣١٣.

تحليل عام عن شخصية الظاهر بيبرس

كان السلطان ركن الدين بيبرس رحمه الله سلطاناً عادلاً، لكنه كان عجولاً متسرعاً وهذا ما عابه عليه بعض المؤرخين ، لكن ذلك لا ينقص من شأنه ومن عظمته وقيمة ما قام به من أعمال جليلة من تعمير البلاد واستقرارها وحفظ أمنها فقد كان سيفه قاطع بتار لكل مغير على الديار.

واذا نظرنا الى شخصيته عن كثب ، وجدنا فيها العديد من المتناقضات ، حيث جمع بين الخير والشر وبين الشدة واللين ، وبين العطف والقسوة ، فمثلاً نراه عندما أحيا الخلافة العباسية عمل على تقليص وتقويض نفوذ الخليفة ، فأصبح هو المهيمن والمسيطر الآمر الناهي في البلاد ، كذلك نراه متمسكاً بالشريعة ناصراً للسنة محارباً للشيعة لكن رغم ذلك تراه ايضاً مخالفاً للشيخ ابن عبد السلام في كثير من آراءه وفتواه ، والى جانب ذلك كان يتصف بالمكر والخديعة والوقيعة بأعدائه وافتقادة للثقة فيمن حوله فلا يرحم من عاداه ، فكان هذا جانب من حياته ، أما على الجانب الآخر عدله في رعيته وسنه للقوانين العادلة.

ولقد صور المستشرقين الفرنسيين بيبرس في كتاباتهم لن نتمكن من استعراض كل ما نشر من الكتب الفرنسية التي تناولت السلطان بيبرس ، ومنهم غوريسيه في كتابه "تاريخ الحروب الصليبية" الذي ظهر في ثلاثة مجلدات ، فافرد مساحة وافرة في المجلد الثالث لتاريخ الظاهر بيبرس متخذاً منه موقفاً عدائياً ، يظهر في وصفه أياه بالحيوان المفترس والفض ، السلطان العبد ، ويصور مقتل قطز بمشهد وحشي ، ووصف حكم المماليك بالنظام الدموي البربري ، في مقابل الحكم الأيوبي الانساني والليبرالي.

وفي ذلك تشوية لصورة بيبرس وحكم المماليك ، ومن وجهة نظر مستشرق آخر يدعى كلود كاهين في كتابه "سوريا الشمالية في عصر الصليبيين وامارة انطاكية" فقد حضت صورة السلطان بالمزيج من الإنصاف والاعتدال ، وأثنى على شجاعته وبطولته في عين جالوت وانجازته العسكرية في الاستيلاء على أنطاكية لكنه أوضح الجوانب السلبية في شخصيته من افتقارة الى الذمة ووقاحته الفظة وعجرفته التي لا تعرف الرحمة.[٦٢] وأرى أن آراء هؤلاء المستشرقين هو أمر طبيعي ، ضد الشخص الذي استطاع أن يقضي على نفوذ الصليبيين الذين ينتمي اليهم هؤلاء المستشرقين.

الخاتمة

صدق من قال" دوام الحال من المحال" هاهي دولة صلاح الدين تنهار لتقوم على أنقاضها دولة جديدة وعلى يد مملوك الأمس الذي أصبح سلطاناً يخشاه الملوك ، فقد استطاع الظاهر بيبرس الذي تولى عرش البلاد أن يصد هجمات التتار ويقف بالمرصاد ضد أطماع الصليبيين.

لم يكتفي هذا الملك الشجاع بتأمين حدود البلاد ضد الأعداء بل قام بتوطيد دعائم الملك والقضاء على الثورات التي قامت بالداخل واكتسب المحبه بأعماله الجليلة واصلاحاته العظيمة فأقام العدل واهتم بتعليم الشريعة ، وأسس حضارة اصبحت مثلاً ونبراساً يقتدى به على مر العصور ، ولا زالت آثارها ماثلة الى يومنا الحاضر.

(٦٢) أحمد حطيط ، قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري ، (دار الفرات ، ط ١ ، ٢٠٠٣م) ، ص ٢٥١-٢٥٧.



جامع السلطان الظاهر بيبرس (المدخل العمومي)

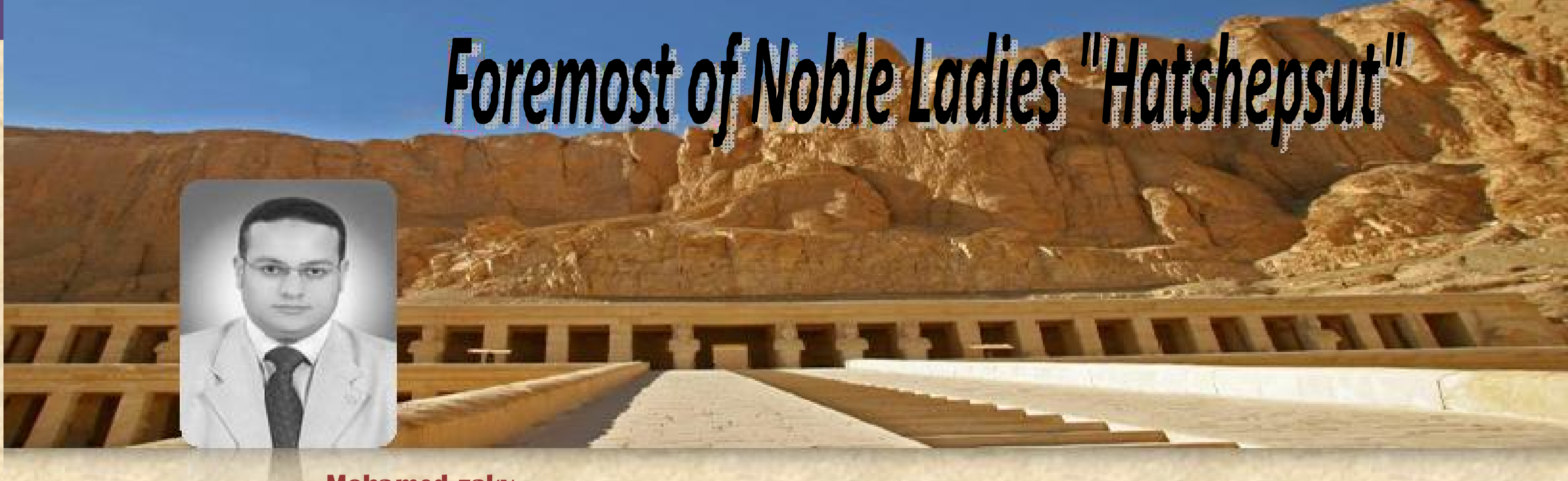


جسر جنداس: ويقع شمال مدينة اللد وبني في عهد المملوك الظاهر بيبرس يبلغ طوله ٣٠ متر وعرضه ١٣ متراً وارتفاعه ٦.٥ متر.



من مقالات الأستاذة/ ريهام المستادي

- السيف
- هل للتاريخ فائدة أم أنه مجرد تنشيط للذاكرة؟
- مدفع رمضان: اكتشف بالصدفة وتقاعد بجدة وصمد بمكة
- الظاهر بيبرس: لم يعرف جيشه الهزيمة في حرب



Foremost of Noble Ladies "Hatshepsut"

Mohamed zaky
Supervisor English language (HKP)
Tourist Guide
mr.mohamed.zaky@gmail.com

Hatshepsut (or Hatchepsut) meaning, Foremost of Noble Ladies, was the fifth pharaoh of the eighteenth dynasty of Ancient Egypt. She is generally regarded by Egyptologists as one of the most successful pharaohs, reigning longer than any other woman of an indigenous Egyptian dynasty.

Hatshepsut was considered one of the greatest rulers, male or female of her time. Born during Egypt's 18th dynasty, she was able to rise from princess to queen to pharaoh. Her rise to the throne, though against ideals of the time, might have inspired others, such as Cleopatra. During this time she was able to expand trade, watch the Egyptian economy grow and improve, and build and restore temples of Egypt. Hatshepsut did this by claiming right of male, being in the image of the Sphinx. She strapped a golden beard to her chin and often dressed in male clothing.

As noted by Wells (1969), Hatshepsut, sometime before 1500 BCE, was supposedly born a beautiful child to the pharaoh Thutmosis I and his queen, Amose. Although, Hatshepsut, as a girl, was not heir to the pharaoh, she held much authority as a young child. This is primarily due to the rule of her father and the high expectations, which had been set for her since birth. Being the daughter of a powerful pharaoh, Hatshepsut was given no choice of what her adulthood would consist of.

Hatshepsut had a sister, Princess Neterukheb, and two brothers, Wadjmose and Amennose; who both died young. Hatshepsut also had a half brother who later became her husband, Thutmosis II. As a child, the royal scribe taught Hatshepsut how to read and write hieroglyphics. As documented by Sadat (1987) Hatshepsut questioned her need for education since she thought she would never become pharaoh. Hatshepsut was raised believing that all good came from the god Amon and that the trinity of power consisted of the king, queen, and Amon. Wells (1969) states that Hatshepsut was taught the importance of the Nile River as a source of goods and food to the people of Egypt and her family.

Hatshepsut acquired many titles during her rise to power. From Queen Tetisheri she received the title, "God's wife of Amon." This title was then passed to Hatshepsut's daughter, Neferure. As noted in Save-Soderbergh (1961) Hatshepsut was often dressed as a boy, who led her to be titled the "Crown Prince of Egypt." Her greatest accomplishment and title came in 1473 BCE when she crowned herself, not only queen, but also the king of Upper and Lower Egypt. Before he died, her father Thutmosis I, named his son, Thutmosis III, of a minor wife, heir to the throne. Since Thutmosis III was still a young child, Hatshepsut believed he could not run both Upper and Lower Egypt alone, and soon crowned herself co-pharaoh. At the time Thutmosis III did not seem to mind his joint reign with Hatshepsut. It was not until he grew into adulthood that Thutmosis III decided he wanted full rights to the throne.

As the fifth ruler of the 18th dynasty, Hatshepsut accomplished many things in her kingdom. Although many queens had ruled before her, never had a female ruler taken on the title of king, as stated by Breasted (1909). It is believed that Hatshepsut posed as a man while out on expeditions or while visible to her kingdom. Nonetheless, Hatshepsut began a line of strong female Egyptian rulers going as far forward as Cleopatra. Montet (1964) stated the possibility that Hatshepsut staged the beginning struggles for women's rights and set the stage for many to follow her. Another accomplishment of Hatshepsut was the birth of her child, Princess Neferure. Being queen, pharaoh, and mother took much patience, talent, and devotion. Also, the fact that Hatshepsut was faced with raising a



daughter in Egypt, forced her once again with the same problems of her childhood. Still, Hatshepsut was a strong woman and accomplished much.

Having the title of God's wife of Amon, Hatshepsut was able to influence and receive the support of the priests of the temple. Hatshepsut also built a magnificent temple in Thebes, Deir el Bahri, showing she believed she was of diving birth. Hatshepsut sent many ships on voyages to bring back other country's goods. After an expedition to Punt, a crew brought back exotic goods like ivory, myrrh, wood, monkeys, and gold. Hatshepsut was able to open and increase trade expansion, keep a country at peace for the length of her rule, and begin to perfect domestic advancement. Cottrell (1960) believed Hatshepsut was loved by many due to the thousands that worked for and supported her every day of her rule. However it is not understood what happened to the powerful Hatshepsut. Some think she was either poisoned by Thutmosis III or left the country.

Hatshepsut expanded territory and maintained religious, social, and political order, just as her father and husband had done. Hatshepsut's reign was similar to that of her father's. As did Thutmosis I, Hatshepsut continued to expand trade and the Egyptian trade. Hatshepshut was also able to maintain the order of her father's legacy. Both were taught by the same scribe, making them of equal in education and knowledge. Their only difference was gender, something which Hatshepsut had.



Thutmosis II, her husband and half brother, differed from Hatshepsut in that he centered most of his time and work on continuing the control of the Egyptian army. Also, Thutmosis II moved away from Thutmosis I's strategies and looked to use his strong army as a weapon to small nation which Egypt saw as conquerable. Hand in hand, Thutmosis II's military activity co-existed with Hatshpsut's expansion of the Egyptian territory. After Thutmosis II's death, the crown was passed to his son of a minor wife, Thutmosis III, who eventually ruled after Hatshepsut. Millmore(1998) claims Thutmosis III was the Napoleon of his time. Thutmosis III was able to continue the traditions of his stepmother, father, and grandfather. Though, as stated by Montet (1964) Thutmosis III seemed more concerned with the popularity of his name and achievements, rather than those of all of Egypt.

Hatshepsut became the forerunner for many other rulers including Cleopatra. Cleopatra also ruled Egypt alone during the first century AD. She used similar techniques such as expanding Egypt and its trade. Both females ruled for a considerable time, although their reasons for ruling were different. Hatshepsut, as we know, ruled because it was her destiny and was what she had been taught to do. Dressing as a man, Hatshepsut tried to hide the fact that she was a women. Cleopatra, on the other hand, dressed flamboyantly as a women, in all the styles of the time. Plus, Cleopatra it seemed, ruled only to rule. She enjoyed the benefits of being queen and looked to her role to better herself. In addition, unlike Hatshepsut, Cleopatra relied on men for assistance during her reign.

The position of women in Egypt was a unique one. Women were allowed many of the same economic and legal rights as men. Callender (1997) stated that women's place was based primarily on society and the common custom.

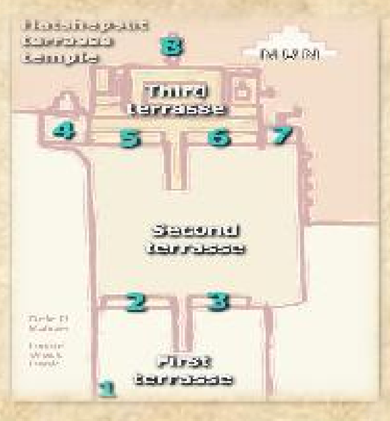
Hatshepsut, queen and pharaoh during the 18th Dynasty, was able to jump these social hurdles and become an excellent ruler based on many unheard of achievements, such as trading expeditions and the construction of beautiful temples.

Deir el-Bahri (Mortuary Temple of Hatshepsut)

The mortuary temple of Queen Hatshepsut is one of the most dramatically situated in the world. The queen's architect, Senenmut, designed it and set it at the head of a valley overshadowed by the Peak of the Thebes, the "Lover of Silence," where lived the goddess who presided over the necropolis. A tree lined avenue

of sphinxes led up to the temple, and ramps led from terrace to terrace. The porticoes on the lowest terrace are out of proportion and coloring with the rest of the building. They were restored in 1906 to protect the celebrated reliefs depicting the transport of obelisks by barge to Karnak and the miraculous birth of Queen Hatshepsut. Reliefs on the south side of the middle terrace show the queen's expedition by way of the Red Sea to Punt, the land of incense. Along the front of the upper terrace, a line of large, gently smiling Osirid statues of the queen looked out over the valley. In the shade of the colonnade behind, brightly painted reliefs decorated the walls. Throughout the temple, statues and sphinxes of the queen proliferated. Many of them have been reconstructed, with patience and ingenuity, from the thousands of smashed fragments found by the excavators; some are now in the Cairo Museum, and others the Metropolitan Museum of Art, New York.

Lower Court



Although the majority of the scenes here have been destroyed, some do still survive - most notiably a scene of Tuthmosis III dancing before the god Min, and also a scene showing the journey of two obelisks down the Nile (see were erected at the temple of Karnak).

Anubis ChapelAny scenes of Hatshepsut have been destroyed, but scenes showing Tuthmosis III still survive (he is shown worshipping Seker). The chapel also has figures of many gods - Anubis, Nekheb, Uaset, Amen-Ra, Harmachis, Osiris (but Anubis occurs the most - in one scene Hatshepsut (now erased) makes offerofferings to him).

Anubis Chapel

Birth ColonnadeThese scenes are a repetition of scenes carved on the walls of the temple at Karnak and show Hatshepsut's divine birth (these scenes are now much damaged, mostly due to a vengeful Tuthmosis III, but also to Akhenaten who had the images of Amun-Re erased as part of his religious crusade).

The scenes start with Amen-Ra and an astral version of the unborn Hatshepsut, the gods decide that Queen Ahmose (wife of Tuthmosis I) would be a perfect mother for this unborn child. Once this has been decided Amun-Re comes down to Earth and enters Ahmose's chamber after assuming the form of Tuthmosis I (Amun-Re at first finds Ahmose asleep but his godly presence wakes her), using his divine breath he impregnates Ahmose. Before he leaves, Amun-Re reveals his true nature to Ahmose and then that she will give birth to a daughter who will live to rule Egypt. Amun-Re then visits the god Khnum and tells him to fashion a human body for the unborn Hatshepsut.

Punt Colonnade



These scenes show the famous expedition to Punt during Hatshepsut's reign. The story begins with the Egyptian expedition (in two boats) arriving at the mysterious land of Punt, the sailors are rowing as the boats reach their destination.

"**Arriving at the goodly way into God's Land, journeying in peace to the land of Punt**". Once the Egyptians land, a force of soldiers carrying spears, axes and shields are made ready in case of attack.The Egyptians have also brought with them some items to trade (strings of beads, an axe, a dagger, some bracelets and a wooden chest. The people of Punt welcome the Egyptians warmly, the Chief of Punt - Parahu - steps forward to meet the Egyptian officer (Parahu's wife is shown behind him, many different explanantions have been offered to explain her strange appearance ranging from suffering from a disease to being overweight), two sons and a servant drive along a donkey which the queen, Parahu's wife, sometimes rides.

The Upper Court

The name of Hatshepsut in this upper level has in most places been replaced by that of Tuthmosis III. The Upper Court consists of niches in the wall, in the middle is a doorway which leads to the inner sanctuary. The decoration inside consists of scenes of gods (Harmachis (there is also a limestone altar to Harmachis - any other gods near to this altar were destroyed by Akhenaten - Harmachis was as a form of the Aten) , Amun-Re, Min), once more any figures of Hatshepsut have been destroyed. There are also scenes of Tuthmosis I and Queen Senseneb (Tuthmosis I's possible mother - if he was a son of Amenhotep I) making offerings to Anubis.



The Mortuary Temple after Hatshepsut

After Hatshepsut's death, Tuthmosis III replaced her image with his own - or erased her image completely as detailed above. Akhenaten then attacked the image of Amun-Re during his religious 'crusade' against the old gods, some additions to the temple were made by Ramesses II, Merneptah inscribed his name on the walls, in the Ptolemaic Period made some repairs to the temple (and mistook the temple to be in honour of Imhotep and Amenhotep son of Hap). Finally a Christian Monastery was built upon the ruins which left little of original temple visible.



References and sites

- Callender, V.G. (N.G.). Queen Hatshepsut (http://hsc.csu.edu.au).
- Clayton, Peter. Chronicle of the Pharaohs, Thames & Hudson Ltd, 1994.
- Cottrell, L. (1960). Life under the pharaoh. New York: Holt, Rinehart, and Winston.
- .G., A.H, and L.K., Hatshepsut, work cited in 3/22/98, for History & Thought of Western Man. Rich East High School (http://www.richeast.org).
- Millmore, M. (N.D.). The women who was king. Hatshepsut (http://www.library.nwu.edu).
- Montet, P. (1964). Eternal Egypt. New York: New American Library.
- Sadat, J. (1987). A woman of Egypt. New York: Simon and Schuster.
- Save-Soderbergh, T. (1961). Pharoahs and mortals. New York: Bobbs-Merrill.
- Wikipedia, the free encyclopedia, Hatshepsut (http://en.wikipedia.org/wiki/Hatshepsut).







المشرف العام يراجع الطبعة الإنجليزية الأولى من كتاب مصر في الخرائط التراثية

عن مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي صدر كتاب بعنوان "مصر في خرائط التراث (١٥٩٥-١٨٤٠ م) : بمراجعة بهاء الدين ماجد مدير إدارة الخرائط بدار الكتب والوثائق المصرية".

يحتوي الكتاب على خرائط تاريخية نادرة على جانب كبير من الأهمية تتعلق مصر. وهذا هو أول إصدار من سلسلة تحمل نفس العنوان ، والتي تهدف إلى رفع مستوى الوعي لدى الجمهور نحو أهمية هذا النوع من التراث الوثائقي.

www.Historicalkan.co.nr

إيمان محي الدين
emanmohiy@hotmail.com



شهادة تقدير من واتا لرئيس تحرير دورية كان التاريخية

تتواصل رحلة الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب ، وتتعاظم ، وتدخل محطتها السنوية السابعة ، وهي ممتلئة عطاءً ، وحرصًا ، وانتماءً للأمة وقضاياها ، وللحضارة وخصوصيتها.

لقد كانت فكرة التكريم التي ابتكرتها الجمعية فكرة أمينة على المشاعر ، وحافظة للقيم. فهذا هو التكريم السنوي الخامس الذي سنّته الجمعية ، لتقدير المبدعين والمعطائين ، حين غاب التكريم الرسمي لهم على مستوى الدول والأنظمة ، فهضمت حقوقهم ، ووقفوا على هامش القيمة ، بينما هم في نواتها ، وهم كل شيء فيها ، لكن جوائز وتقديرات الولاة والسلاطين لا تأتي إلا إلى فئات محسوبة عليهم ، وغالبية المبدعين في هذه الأمة ليست محسوبة على أحد. إنها محسوبة على الإبداع دون غيره ، ومن هنا كان واجبًا على الجمعية أن تنبري لتكريم هؤلاء ، على الرغم من قلة إمكاناتها ، لكنها تحرص على المعنوي من التكريم ، وترى فيه حدًّا أبعد من كثير من المادي المجيّر للقرابة ، أو الصلة ، أو المحسوبية.

منحت الجمعية هذا العام (التكريم السنوي الخامس يناير٢٠٠٩) ٢٦٥ شهادة تكريم وتقدير و١٢ دكتوراه فخرية ، وقد جاء اسم الباحث أشرف صالح رئيس تحرير دورية كان التاريخية ضمن فئة مُتميزون يستحقون التقدير ، وذلك تعبيراً عن جهوده وتجسيداً للمبادئ التي تأسست عليها الجمعية.



جانب من أراء القراء في العدد الثاني

مصدر متميز .. والواضح أنهم يتمتعون بنوع من الجدية .. على الرغم أني لم ألاحظ أنهم يمثلون جهة رسمية ..

عادل راوتي
صاحب موقع bleddz

تهنئة حارة لكم أستاذنا وسعيد بهذه الأسماء المتألقة في المجلة

أديب/ شوقي بن حاج أديب
منتديات واتا الحضارية

نشكر جهودكم المبذولة ، وجهود دورية "كان" واهتمامها بالموروث التاريخي ، وأتمنى لكم دوام التميز.

أديبة / أماني العاقل
منتديات واتا الحضارية

بعد التجول بين صفحات الدورية بدت لي كـ "كرة أرضية حوت جميع الحضارات والثقافات وجمعت أهل التاريخ بمحبيه".
إلى الأمام يا دورية كان.

ريهام المستادي
محررة بجريدة المدينة

أرى أن الدورية ستغطي عجزا لدى مجتمع المؤرخين العرب ، تجلى خاصة على مستوى التواصل ، فهده دورية توزع إلكترونيا لتتخطى حواجز المسافة.

الأستاذ/محمد حركات
قسم التاريخ-المركز الجامعي بالوادي-الجزائر

ألف مبروك صدور العدد الثاني من دورية كان التاريخية الالكترونية ، عدد قوي جدا بمواضيعه التاريخية القوية. نتمنى من الله العلي القدير أن يديم علينا صدورها سيدي الفاضل أحييك على هذا المجهود العظيم في هذه الدورية التاريخية المحكمة والتي تعلمنا منها الكثير تحياتي.

أزار غزلان
رئيسة تحرير مجلة المؤرخ

شكرا على العدد ٢ من المجلة الرائعة.
أتمنى لكم عيدا سعيدا.

د.بشار خليف
الجمهورية العربية السورية

ما شاء الله همة عالية واجتهاد كبير.. كل الشكر لك ، ومن خلالك ، لجميع الساهرين على دورية كان التاريخية المباركة.. نرجو لها ، ولك ، كل التألق والرفعة والسمو...

د.عبد العزيز غوردو
باحث وكاتب- المغرب



"مقاربة فكرية ــ تاريخية لروحية وخصائص حضارة المشرق العربي القديم"

نموذج تدمر

د.بشار محمد خليف

دمشق – الجمهورية العربية السورية

dr-khlif@scs-net.org

- البنية الديمغرافية في تدمر
- تدمر في عصر نشوء الممالك الكنعانية الأمورية الأولى: ٢٠٠٠ ـــ ١٦٠٠ ق. م
- تدمر في العصر السلوقي ٣٣٢ ق. م ـــ ٦٣ ق. م
- تدمر والأمبرطورية الرومانية ٦٣ ق. م ـــ ٢٧٣ م
- خطوط التجارة الدولية في عصر تدمر الذهبي
- ثقافة تدمر في القرون الميلادية الثلاثة الأولى
- الصراع السياسي بين إمبراطوريات عالم القرون الميلادية الثلاثة الأولى
- تدمر وعصر الملوك التدامرة

Intellectual - Historical Approach to Spiritual and Characteristics of Ancient Arab Mashreq Civilization

إذا كان تعريف اصطلاح الحضارة la civilisation ينص على أنها مجمل المنجزات المادية ـ الروحية ، لمجتمع ما في مسار التاريخ البشري ، فإن ما ينبغي الإشارة إليه هو البعد الإنساني لهذه المنجزات المادية ـ الروحية وإلاّ استحال كل اختراع أو منجز مدمّر إلى فعل حضاري وهذا لا يتسق برأينا مع مصطلح الحضارة الإنسانية.

لذا يمكننا أن نحدد هذا المصطلح بقولنا أن الحضارة هي مجمل المنجزات المادية ـ الروحية ذات البعد الأخلاقي ـ الإنساني لمجتمع ما في مسار التاريخ البشري.

وهذا ما نستطيع تحديده حين نتابع تاريخ الحضارية السورية ، فمن بداءة الزراعة إلى بواكير المدن مروراً باختراع الكتابة ثم الأبجدية والشرائع والعلوم والفن والآداب ، إلى المعالم الواضحة في البعد الإنساني حيث نلاحظ أننا أمام هم إنساني مؤسس بامتياز في الذهنية الحضارية السورية ، وهذا ما سوف نلاحظه من خلال قراءة ومتابعة تاريخ تدمر كنموذج يختزل قيم ومعايير وذهنية الحضارة السورية.

هذه المملكة التي امتدت أطلال آثارها لحوالي ١٢ كم٢ والتي تقع وسط سورية وفي باديتها.. والتي استطاعت تبعاً للظروف السياسية الدولية وظروفها الذاتية آنذاك من أن تحقق وتعبرّ عن أصالة الحضارة السورية وبعدها الإنساني وفعلها السيادي والحضاري... هذا ما جعل هذه المدينة الصغيرة آنذاك تؤسس لإنشاء إمبراطورية شملت المشرق العربي بجناحيه الشامي والرافدي وجزء من الجزيرة العربية والأناضول ومصر وكادت أن تطرق أبواب روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية.

يقول خالد الأسعد: (إنّ من طبيعة الشخصية السورية عبر التاريخ أن تؤثر وتتأثر بالثقافات الأخرى لكنها لا تتمثل من الثقافات إلاّ ما يلائم شخصيتها ولا تسمح لأي ثقافة بأن تطغى عليها أو تحرفها عن محورها).[١]

وهذا ما نفهمه وتؤكده عدة حقائق حول ثقافة تدمر وفرادتها رغم تبعيتها في القرون الثلاثة الميلادية الأولى للإمبراطورية الرومانية:

أولاً: ثمة حادثة جرت في تدمر في القرن الثالث ميلادي وفي فترة حكم زنوبيا لتدمر (٢٦٨ ـ ٢٧٢) م. حيث أن زنوبيا عاقبت تاجراً تدمرياً لارتكابه أخطاء وتجاوزه للقوانين التدمرية ، فطلبت أن يوضع في حلبة مسرح تدمر حتى تنهشه الوحوش الضاربة والجائعة أمام الجمهور. ومعلوم أن هذا الطقس أو التقليد الوحشي هو ابتكار روماني ومارسه الرومان بإخلاص.

وفي الموعد المحدد تجمهر أهل تدمر ، ونزل التاجر مرتعداً إلى الحلبة وحين ساد الصمت رهبة.. فتحت الأبواب على الوحوش الجائعة ، ليخرج ديك إلى الحلبة.. فتضج الحشود بالضحك والبهجة.[٢]

إن موقف زنوبيا هذا يعبر عن عدة حقائق:

أولها: رفضها للتقليد الروماني الذي لا يتناسب مع الخصائص الروحية للنفسية السورية.

ثانيها: أن العقاب المعنوي الذي تعرّض له التاجر يفوق ما كان سيحصل له في حال افترسته الوحوش ، سيما وأن تدمر بخواصها المجتمعية كانت تكرّم الأشخاص الذين يحملون هماً مجتمعياً يفوق همهم الشخصي وتخلدهم في نصب تذكارية تعلّق على أعمدة تدمر.

ثانياً: عام ١٩٣ م قام أفراد الحرس الإمبراطوري الروماني بعرض الإمبراطورية للبيع بالمزاد واشتراها ديدوس يوليانوس بـ /٢٥/ ألف سترسة.

وحين بلغ النبأ سمع الجيوش الرومانية ثارت وأخذت كل فرقة تنصب قائدها إمبراطورا إلى أن قام قائد جيش جنوب الدانوب سبتيم سفير بالاستيلاء على عرش روما مفتتحاً حكم الأباطرة السوريين للإمبراطورية الرومانية وعلى هذا يعقّب جان بابليون بالقول:

(إن وصـول سبتموس سفروس إلى عرش روما كان في نظر الكثيرين انتقاماً للفكر الشرقي القديم من روما) [٣] وإن هذا الموقف لسبتيم سفير يؤكد على الخصائص الحضارية ـ الإنسانية عبر إنقاذه للإمبراطورية من جهة وعبر تكريسه للفعل الحضاري السوري في روما وإمبراطوريتها آنذاك وهذا ما سنلاحظه في انعكاس المعتقدات السورية ومن ثم الديانات في فعلها على بنية الفكر الروماني بدءاً من عبادة إله الشمس الحمصي وصولاً إلى المسيحية التي قضت على الفكر الروماني ومعتقداته ومروراً بالفلسفات ذات الخصائص المشرقية كالرواقية ثم الأفلاطونية الحديثة.

ثالثاً: كانت القرون الثلاثة الميلادية الأولى هي عصر العبودية والتجارة بالعبيد ، وكون تدمر تقع على خط التجارة الرئيسي الدولي آنذاك بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، كان موقفها من تجارة العبيد أصيلاً ويعبرّ عن رفضها الممتاز لمثل هذه التجارة اللاإنسانية والتي مارستها روما بإخلاص.

يذكر اسحاق شيفمان أنّ تدمر لم تكن تحبذ ممارسة تجارة العبيد ، ودليل ذلك أنّ نص التعرفة كان يفرض ضريبة مضاعفة على استيراد العبيد مقارنة مع ضريبة البيع والشراء الحاصلة داخل حدود تدمر.[٤]

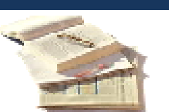
رابعاً: كان القانون الروماني يحرم وجود المدافن والمقابر داخل المدن لكن تدمر أشادت مدافنها أمام سور المدينة وداخل الأسوار. وهذا فعل سيادي يتناسب مع روحية المشرق العربي.

خامساً: كانت تدمر تكتب القوانين العالمية التجارية باللغة التدمرية وتضاف إليها إحدى اللغات اللاتينية أو اليونانية إما أن تكتب بلغة الأخر فهذا ضرب من المحال وخير شاهد على ذلك هو قانون التعرفة الجمركية الذي سنّته تدمر عام ١٣٧م والذي حوى الكتابة التدمرية واليونانية.

يقول المؤرخ مومزين: «إن تدمر كانت تعتبر مستعمرة رومانية إلاّ أن تبعيتها للإمبراطورية الرومانية كانت ذات طابع فريد تذكرنا على الأرجح بالممالك التابعة اسمياً لروما».[٥] أما المؤرخ روستوفنسف فيقول حول نفس الموضوع: «إن تدمر لم تكن في يوم من الأيام مدينة تابعة للمقاطعة الرومانية وعندما حصلت على وضع معمرة كانت تتمتع بقدر ملحوظ من الاستقلالية لكن الحكومة الرومانية أدخلت تدمر في مجال حمايتها تماماً».[٦]

سادساً: تميزت الحضارة السورية وعبر مسارها التاريخي بروحية التسامح وبتآلف الاختلاف تحت سقف الولاء المديني. ولعل تدمر تعبرّ عن هذه الخاصية بوضوح عبر وجود ستين إلهاً في تدمر تدين بهم مختلف الشرائح والقبائل ولم تذكر النصوص التدمرية أي حادثة بين أتباع إله وأتباع إله آخر ، لا بل إن موقف تدمر من المسيحية ذلك الدين الناشئ آنذاك كان متسامحاً رغم موقف روما المغاير لموقف تدمر وقد استطاعت زنوبيا أن تضم إلى بلاطها أسقف أنطاكيا بولص السميساطي الذي كان يمثل المعتقد الوطني في مقابل الرؤية الرومانية للمسيحية.

يقول رينيه دوسو في كتابه الديانات السورية القديمة: «لقد اتخذت تدمر شكل العاصمة مما جعلها تفرض على الآلهة التي



استقبلتها مع القبائل التي تعبدها سمة محلية وتجمعاً لا مثيل له من جهة أخرى».[٧]

أما شيفمان فيذكر أن زنوبيا استغلت الانقسام الناشئ بين مسيحي أنطاكيا لمصلحتها وذلك باعتمادها على بولص السميساطي وتابعيه حيث أنه من فرقة مسيحية لم تكن تعترف بالأقاليم الثلاثة للمسيح وقد حصل بولص السميساطي على وظيفة نائب عام من زنوبيا حيث كان يمثل مصالح فقراء المسيحيين وهي الفئة التي كان منها ويدافع عنها الآن.[٨]

والجدير ذكره هنا هو أنّ (أورليان) حين قضى على تدمر نزع عن بولص لقب الأسقفية وأقره لشخص آخر مؤيد للبطاركة الإيطاليين بمن فيهم بطرك روما.

ولعلنا هنا أمام صراع سيادي بين تدمر المستعمرة (بفتح الميم)و بين روما المستعمرة (بكسر الميم) وهذا ما يؤكده خ ـ تيكسدور في كتابه الحياة الدينية في سورية قبل الإسلام: «كان بولص السميساطي قائماً بالمصالح التدمرية في أنطاكيا وكان يمثل باختيار زنوبيا له مقاومة الجانب السوري ضد الرومنة.. وحين عزل الامبراطور أورليان بولص كان يرمي بذلك إلى هدف سياسي»[٩]

وما يلاحظ في مجال التسامح في تدمر وخلو الكتابات والنصوص التدمرية من صراعات بين الناس لأسباب معتقدية أن مقولة فصل المعتقد عن الدولة كان محققاً وهذا ما جعل تدمر تفعل حضارياً وتواجه امبراطورية روما التي امتدت من الأطلس وبحر الشمال إلى الفرات ومن الراين والدانوب إلى الصحراء الكبرى.

سابعاً: ثمة مقولة للحكيم الآرامي أحيقار مفادها «لا ترسل الصيدوني /أي ابن البحر/ إلى الصحراء ولا ترسل ابن الصحراء إلى البحر».

والذي يبدو أن تدمر لم تأخذ بهذا القول لا بل عكسته ممارسة وهذا يعني أن تدمر لم تكن هماً جغرافياً. فالنصوص التدمرية والنقوش تتحدث عن وجود أسطول بحري للتدمريين يقوده تدمريون ينطلق من الخليج العربي ، بمعنى أن التدمري مارس تجارته البحرية والبرية بنفسه.

وقد أنشأ التدمريون موانئ لهم على الخليج العربي في ميسان وعلى النيل قرب ميناء أسوان(قفط)، بالإضافة إلى دورا أوربوس لا بل أن حاكم البحرين كان تدمرياً. هذا يعني أن البيئة الطبيعية طوعّها التدمريون لمزيد من الفعل الحضاري لا الانفعال فقط.

ثامناً: كان للمرأة السورية في مسار الحضارة السورية حضور فاعل وجوهري وهذا ما لا نلاحظه في مساق الإمبراطورية الرومانية فعلى مسار الأباطرة الرومان الكثر لم نلاحظ دوراً فاعلاً للمرأة الرومانية ولو من البلاط في حمل هم الامبراطورية وهذا ما نجده صميمياً في الحضارة السورية فمن جوليا دومنة الحمصية زوجة سبتيم سفير إلى أخواتها اللواتي حكمن عرش روما عن طريق أولادهن إلى زنوبيا التي تشبه على ما يبدو مسار جوليا دومنة ولاحقاً سوف تكون تيودورا السورية من منبج زوجة جوستنيان الامبراطور ناهيك عن أليسار الكنعانية وصفو نسب القرطاجية.

تاسعاً: لعلنا نشارك فرانتس ألتهايم فكرته من أن القرن الثالث ميلادي تميز بشكل خاص بازدهار العروبة فقد أخذت تتنامى دول وممالك عربية مثل الحضر والحيرة وتدمر.[١٠]

والعروبة ضمن هذا المنحى لم تكن عروبة العنصر بل عروبة حضارية أساسها التمازج البشري الذي تفاعل إيجابياً مع البيئة الطبيعية والمجال الحيوي الطبيعي فتولدت لديه خصائص هي حصيلة كل الموجات البشرية المتفاعلة التي سكنت تدمر واستوطنت في واحتها وهذا ما سنناقشه في الفقرة التالية.

البنية الديمغرافية في تدمر

استوطن الإنسان واحة تدمر وحوّل ينابيعها في الألف السادس قبل الميلاد وقد أظهرت التقنيات في معبد بل وسط تدمر دلالات استيطان في تدمر تعود إلى الألفين السابع والسادس قبل الميلاد.

وبحسب علم الأعراق فإن الناس هم من النوع المتوسطي وهم الذين كانوا يجولون في العصور التاريخية بين الجزيرة العربية والمشرق العربي القديم ومنهم من استوطن في واحات منها تدمر. (البني ـ ١٩٧٨) ففي الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد كان سكان تدمر من الأموريين والكنعانيين ومع حلول القرن الثاني عشر قبل الميلاد حيث ساد الآراميون في المشرق العربي وتمازجوا في تدمر مع الأموريين والكنعانيين ثم اعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد كانت القبائل العربية عبر جولانها تستقر في واحة تدمر وتدريجياً سادت هذه القبائل في بادية الشام.

وبذا صارت بنية تدمر الديمغرافية تتألف من الأموريين والكنعانيين والآراميين والعرب /وهذه حالة توصيفية لا تعبير عن هوية/ ومع حلول القرن الميلادي الأول كان عدد العرب مساوياً لعدد الآراميين في تدمر (عدنان البني ـ تدمر والتدمريون) وبالتدريج ساد العرب على تدمر وهذا ما تجلى في أسرة أذينة زوج زنوبيا الذي كان من منبت عربي وهذا ما نلاحظه في بنية البانثيون التدمري فمن بين ٦٠ إلهاً نعثر على ٢٠ إلهاً عربياً ولعل أقدم نص تدمري يعود إلى ٤٤ ق. م يتضمن أسماء عربية وتعابير عربية مميزة.

وقد توصل اسحاق شيفمان في كتابه (المجتمع السوري القديم) إلى أن مجتمع تدمر بحسب الوثائق التدمرية كان يتألف من نسبة جيدة من القبائل العربية وذلك في القرون الميلادية الثلاثة الأولى.

ويذكر شلومبرجه أن ثمة اتحاداً بين أربع قبائل أساسية أدى إلى ولادة تدمر في القرن الأول الميلادي أو قبل ذلك وهي: بني قمر ، بني متبول ، بني معزن ، بني عطر.[١١]

وقد انضوت باقي القبائل تحت جناح هذه القبائل الأكبر حيث يذكر تيكسيدور أنه في تدمر انتظمت القبائل والعشائر من خلال التقاليد الدينية والمواريث الأخلاقية في أربع مجموعات قبلية تترأسها إحدى القبائل العربية الأربع المسيطرة على المدينة[١٢] وتعلمنا المدونات أنه كان ثمة معبد محدد لكل من هذه القبائل الأربع. ومن العشائر المنضوية تحت لواء القبائل العربية والتي استطاع شيفمان تحديدها نذكر:

بني عذيب ، بني زبيد ، بني نبت ، بني ختري ، بني ميث ، بني مجدت ، بني علاي ، بني حكيم ، بني بور.. الخ[١٣]

بناءً على كل ذلك يمكننا تحديد هوية تدمر السكانية والثقافية بأنها مدينة سورية عربية أصيلة وهي حصيلة تمازج بين الأموريين والكنعانيين والآراميين والعرب ما أدى إلى تبلور معنى حضاري للعروبة يعكس ملامح شخصية عربية مشرقية سوف تغلّف مجرى الحضارة السورية وصولاً إلى الفتح العربي.



تدمر في عصر نشوء الممالك الكنعانية الأمورية الأولى ٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ ق. م

إذا كان أول ذكر لتدمر والتدمريين ورد في إحدى الوثائق الآشورية المكتشفة في الأناضول في مستعمرة آشورية موقع كولتبة ، كانيش وذلك في حوالي ٢١٠٠ م فإن هذا يعني أن تدمر كانت تشكل فاعلية تجارية ما ولو كانت ثانوية. وقد أجرى الكونت دومنيل تنقيباً في معبد (بل) في تدمر حيث توصل إلى أنه كان هناك مدينة أمورية وأنها كانت عامرة دون انقطاع طيلة الفترة بين ٢٠٠٠ ـ ١٢٠٠ ق. م وذكرت نقوش كانيش أن تدمر كانت مركزاً لشراء الفضة ولا يبدو من المعطيات والأدلة الأثرية التي تعود لهذا العصر أن تدمر كانت تشكل فاعلية تاريخية من الدرجة الأولى بل أنها انفعلت بالوضع التجاري والنشاط الاقتصادي عبر تبعيتها ـ نوعاً ما ـ للمدن الأقوى آنذاك ولا سيما مملكة قطنة ، قرب حمص.

وبغية إيضاح الواقع التاريخي لا بد أن نضيء على الواقع التاريخي السياسي للمشرق العربي في هذا العصر مع الأخذ بالاعتبار أن ذلك العصر شهد اختفاء الفاعلية التاريخية للسومريين مع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وبداية الألف الثاني وتوافق ذلك مع انتشار الأرومات الكنعانية الأمورية في المشرق العربي حيث أسست ممالك مدن كنعانية أمورية.

ففي الرافدين أسست هذه الأورمات دويلات في بابل وآشور أمّا في بلاد الشام فقد تأسست ممالك في ماري ويمحاد (حلب) وكركميش وقطنة وجبلا (جبيل) ودان وحاصور ومجدو.

ولم يكن الوعي المجتمعي ـ المديني ليرقى بين هذه الممالك إلى درجة الوحدة أو الاتحاد السياسي للمشرق العربي القديم إلا في عهد الملك الأموري حمورابي ، الذي استطاع توحيد المشرق العربي تحت سيادة بابل رغم وجود محاولات سابقة موفقة في هذا المجال قام بها صرغون الأكادي الأموري وغيره ، والتي استندت على أساس استراتيجي.

وفي بلاد الشام تركزت الفاعلية التاريخية بين ماري في الشرق وقطنة في الغرب مما جعل الخط التجاري بينهما يمر حكماً من تدمر لذا فاننا نلاحظ ورود ذكر تدمر في وثائق ماري حيث أفادت أن تدمر كانت محطة قوافل بين مدن بلاد الرافدين ومدن بلاد الشام الشمالية والجنوبية وهذا يؤكد أن تدمر استطاعت الاستفادة من موقعها الاستراتيجي بين مدن المشرق العربي في الشرق والغرب وأصبحت محطة هامة على الطريق التجاري بين أفغانستان وجنوب شواطئ المتوسط بلاد الشام ومصر ، ولعل الإضاءة على الطرق التجارية آنذاك توضح أهمية تدمر كمحطة تجارية فبين الرافدين وبلاد الشام [١٤] كان ثمة طريقان تجاريان ، الأول: طريق شمالي يحاذي الفرات ويصل إلى يمحاد (حلب). الثاني: طريق جنوبي يحاذي الفرات الأوسط عند ماري ويصل إلى قطنة (قرب حمص) ماراً بتدمر إلى سواحل البحر المتوسط في جبيل. وقد ورد في وثائق ماري أن أخشاب الأرز وغيرها كانت تمر في قطنة لتصل إلى الفرات عبر تدمر.

ومن طرائف أحداث ذلك العصر ما ورد في إحدى وثائق ماري حيث تذكر أن يسمع حدد حاكم ماري الآشوري المحتل حين أراد السفر إلى قطنة تحاشى المرور بحلب /يمحاد/ لأن حاكم ماري الشرعي والمطرود زمري ليم موجود في يمحاد وبذا سلك يسمع حدد إلى تدمر ثم قطنة.

وقد ذكرت رسالة من حاكم قطنة إلى حاكم ماري /يسمع حدد/ أن البادية السورية كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مملكة يمحاد (حلب) إلى الشمال.

القسم الثاني: مملكة قطنة في الشمال الغربي حيث تتبع لها تدمر.

القسم الثالث: مملكة ماري في الجنوب الشرقي.

وهنا لا بد من الإشارة إلى حصول تطور في وسائل النقل التجاري فبعد أن كانت الحمير سيدة وسائل النقل نلاحظ أنه ومنذ ١٨٠٠ ق.م تقريباً يظهر الحصان كوسيلة نقل تجارية سريعة ثم في حوالي ١٣٠٠ ق.م يظهر الجمل في الاستخدام.

إن الوثائق الأثرية تشير في ذلك العصر إلى علاقات جيدة تربط بين ماري وقطنة ويبدو أنه مع سقوط ماري بيد حمورابي البابلي في ١٧٥٩ ق. م ضعفت فاعلية قطنة التاريخية وهذا ما انسحب على تدمر التابعة لها ومع حلول عام ١٦٠٠ ق. م انتهى عصر المالك الكنعانية الأمورية الكبيرة والمستقلة ليأتي عصر الممالك الكنعانية الصغيرة والضعيفة [١٥] وهذا ما دفع الحثيين لاحتلال بابل ثم احتلها الكيشيون كما خضعت المناطق الممتدة من جبال زاغروس حتى البحر المتوسط للنفوذ الحوري الميتاني وتعاظم النفوذ المصري في بلاد الشام.

وهذا ما أدى إلى تحول الخط التجاري منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد إلى مملكة إيمار حيث أصبحت ملتقى القوافل القوافل القادمة من الشرق أو من الغرب ومن البادية أو الجزيرة وقد عثر في وثائق إيمار التي تعود إلى ١٣٠٠ ـ ١٢٠٠ ق. م على ذكر لتدمر والتدمريين وقد عثر في هذا الموقع على أول طبعة ختم تدمري معروفة حتى الآن مما يدل على وجود علاقة بين تدمر وإيمار.

يقول الدكتور نقولا زيـادة: «بدأت تجارة تدمر والتدمريين تلفت الانتباه في الألـف الأول قبل الميلاد إن لم يكن ذلك في أواخر الألف الثاني» [١٦]، وهنا يرد ذكر تدمر في وثائق الملك الأشوري تيغلات فلاصر الأول ١١١٢ ـ ١٠٧٤ ق. م وقد ذكرت الوثائق هذه أن الملك عبر الفرات ٢٨ مرة بمعدل مرتين كل سنة وقد مرّ بتدمر التي هي في بلاد العموريين ووصل بحر العموريين الكبير أي البحر المتوسط.

في حدود ١٢٠٠ ق. م تغزو شعوب البحر المراكز الساحلية السورية وتخرّبها لكن الأجزاء الشرقية من سورية بقيت بمنأى عنهم ومشغولة باستقبال موجات الآراميين التي تغلغلت داخل سورية ووصلت حتى الجبال الساحلية وقد استوطنت في تدمر أيضاً. ثم ومع القرن الثامن قبل الميلاد استقرت القبائل العربية تدريجياً في تدمر إلى جانب الآراميين وحين هاجم الملك الآشوري آشور بانيبال ٦٦٤ ـ ٦٢٩ ق. م دمشق فلا بد أنه مرّ في البادية. وتذكر الوثائق نشوء تحالف بين القبائل العربية والآراميين والملك البابلي شمش ـ شون ـ أكين ضد الملك الآشوري الذي أمر بإحراق مناطق البادية.

في فترة الفاعلية الآشورية هذه تمت حماية الطرق التجارية فتوسعت النشاطات التجارية وأصبحت تدمر مدينة قوافل كبيرة ومع هذا فإن اسم تدمر يختفي من الوثائق الأثرية بين القرن الحادي عشر قبل الميلاد وحتى القرن الثالث قبل الميلاد حيث تسقط سورية تحت حكم السلوقيين ٣٣٢ ق.م.



تدمر في العصر السلوقي ٣٣٢ ق. م ـ ٦٣ ق. م

مع سقوط بابل في آذار عام ٥٣٨ ق. م بيد الفرس بقيادة كورش تشكلت امبراطورية فارسية على أنقاض امبراطورية بابل شاملة الرافدين وبلاد الشام وبالتدريج استطاعت أن تضم العالم المتمدن آنذاك الممتد من مصر والمدن الأيونية في آسيا الصغرى إلى البنجاب في الهند [١٧] والجدير ذكره هنا أن اللغة الرسمية للامبراطورية الفارسية كانت اللغة الآرامية حيث كانت اللغة العالمية آنذاك.

كما قام كورش بإصدار مرسوم يخول اليهود المسبيين في بابل العودة إلى فلسطين وهذا سيكون لاحقاً شأنا مهماً في موقف مملكة تدمر من اليهود ولا سيما في العهد الروماني.

إلى أن يأتي عام ٣٣٣ ق. م حيث تقع معركة أسوس بين الفرس والمقدونيين بقيادة الاسكندر الكبير المقدوني حيث ينتصر المقدونيون لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ المشرق العربي وتالياً انعكاس الظروف السياسية في العصر السلوقي على تدمر التي يبدو أنها كانت مدينة مكتفية بنفسها وتمارس تجارتها ونشاطاتها بعيداً عن النظم التجارية السلوقية.

ولدى تتبع خطوط التجارة الدولية في العصر السلوقي في المشرق العربي نلاحظ أن تدمر لم تكن تتبع شبكة الخطوط التجارية للدولة السلوقية ومع هذا ولكونها فاعلة حضارياً وليست منفعلة بالآخر إلى حد التماهي فقد استطاعت أن تؤسس خطوط تجارتها وتمارسها. ونعتقد أن تدمر في العهد السلوقي كانت في مرحلة المخاض الحضاري الذي سوف ينجب فاعلية حضارية تاريخية في القرون الثلاثة الميلادية الأولى. فقد استطاعت تدمر في العصر الهلنستي أن تجلب إليها خطوط القوافل لتكون محطة بين الفرات من جهة وحمص وأنطاكية من جهة أخرى.

أما طرق التجارة السلوقية الرسمية فقد استعاضت عن تدمر بدورا أوربوس على الفرات وكان ثمة طريق شمالية اعتمدتها الدولة السلوقية حيث تعبر أنطاكية وسلوقية (السويدية) إلى حلب ثم تنعطف إلى الفرات ولكنّ هذه الطريق هجرت عندما قام الفرثيون باحتلال الرافدين في القرن الثاني ق. م. وكانت هناك طريق جنوبية من البحر الأحمر إلى الخليج العربي وهذه الطريق سببت ازدهار الاسكندرية والبتراء لحين العصر الروماني عام ٦٣ ق. م.

ويبدو أن تدمر كانت تسيطر على دورا أوربوس حيث جعلت منها قلعة عسكرية لحماية التجارة التدمرية تماماً كما أراد لها السلوقيون حين أبدوا اهتمامهم بموقعها الاستراتيجي.

وبالرجوع إلى الوثائق السلوقية نلاحظ أن تدمر لم تكن تحظى بأهمية المدن الأخرى، فالدولة السلوقية كانت تمنح الألقاب للمدن السورية الأصيلة والسلوقية التأسيس وقد تأرجحت هذه الألقاب بشكل عام بين مدن تمتلك «الحصانة» أو مدن «مقدسة» أو مدن «مقدسة محرّمة» أو «مدن إلهية» [١٨]. وهذه الألقاب كانت تعطي المدن حصانة جزئية في المسائل القانونية مما يحتم عدم تعرضها للقوة من قبل الدولة.

وتذكر الوثائق أسماء مدن منحت هذه الألقاب ولم يرد اسم تدمر بينها مما يدل كما أسلفنا إلى عدم اعطاء الدولة السلوقية تدمر أي حظوة، وقد يعزى هذا إلى ابتعاد خطوط التجارة السلوقية الرسمية عنها.

ومن المدن التي منحت ألقاباً نذكر: دمشق، عسقلون، جبيل، أفاميا، غزة، اللاذقية، صيدا، صور، طرابلس [١٩]. ولكن الذي يبدو أن هذا لم يمنع تدمر من انشاء جيشها الخاص والذي ساهم إلى جانب الجيش السلوقي في حربه ضد البطالمة في مصر، حيث تذكر الوثائق أنه في معركة «رافيا» والتي جرت بين السلوقيين والبطالمة كان إلى جانب الملك السلوقي انطيوخوس الثالث شيخ عربي يدعى «زبدي بل» حيث كان تحت امرته ١٠ آلاف مقاتل ويبدو أن هذا الشيخ تدمريّ يؤكد ذلك اسمه [٢٠].

وتذكر الوثائق أيضاً أن زبدي ايل العربي /وقد يكون تدمرياً/ قطع رأس الملك السلوقي اسكندر بالآس، عام ١٤٥ ق. م الذي طالب وحصل على عرش سورية مدّعياً أنه ابن أنطيوخوس الرابع.

ويبدو أنه في حوالي ٣٠٠ ق. م أصبحت تدمر جزءاً من الامبراطورية السلوقية لكن الفاعلية التاريخية آنذاك تحولت بمشيئة الدولةالسلوقية، إلى مدينة «سلوقية» على نهر دجلة ومدينة أنطاكية.

ومع هذا فقد استطاعت الثقافة التدمرية أن تؤكد فاعليتها الحضارية، أكّد ذلك العثور في دورا أوروبوس، على رسم منقوش على صفيحة حجرية يعود تاريخه إلى ١٥٨ ق. م يبين سلوقس نيكاتور مؤسس الدولة السلوقية في زيّه العسكري الذي يتألف من درع هلنستي تحت رداء قصير وينتعل جزمة عسكرية عالية الساق وكان يحمل في أذنيه قرطين كبيرين أما سيفه كما بدا من الرسم فقد كان من النموذج الفارسي ـ التدمري [٢١].

أما النشاط التجاري لتدمر في هذا العصر؛ فقد اعتبرت تدمر وسيطاً تجارياً بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط، ومع نهاية القرن الثاني ق. م وحين عادت العلاقات التجارية بين الصين والامبراطورية الفرثية في بلاد فارس إلى الحياة، عاد طريق الحرير للوصول إلى البحر المتوسط عبر تدمر.

وتؤكد المعطيات التاريخية أن التدمريين كانوا أكثر فاعلية تجارية من السلوقيين، فمع مطلع القرن الأول قبل الميلاد كان رجال القوافل التدامرة ينظمون طريق الفرات التي كانت تمر بدورا أوروبوس ثم تنزل بمحاذاة الفرات إلى المحمرة في مملكة ميسان على الخليج العربي.

وحين كان الفرثيون يقطعون طريق الحرير المار عبر تدمر كانت تدمر تستخدم طريقاً آخر عبر الفرات إلى الخليج العربي ثم إلى الشرق الأقصى [٢٢].

ومع انتهاء فاعلية «سلوقية» دجلة التجارية في مطلع القرن الأول قبل الميلاد، كونها معبراً تجارياً ورثت تدمر هذه المهمة، واستطاعت السيطرة على طريق التجارة وضمان أمنه وتقديم المياه والأغذية للقوافل وحوائجها، وهذا ماسوف يتفّعل في القرون اللاحقة.

أما لجهة الوضع الديمغرافي لتدمر في العصر الهلنستي فقد تألفت من الآراميين والعرب، ويذكر الدكتور البني أن عدد العرب كان مساوياً لعدد الآراميين.

ويبدو من مجمل المعطيات التاريخية أن تدمر في العصر السلوقي كانت مدينة عامرة تتمتع باستقلالها ومارست فاعليتها التجارية بغض النظر عن خطوط التجارة الرسمية للدولة السلوقية وتمكنت بذلك من تأسيس مشروعها الحضاري والذي سوف يتبدى انطلاقاً من القرن الأول الميلادي.





تدمر والامبرطورية الرومانية ٦٣ ق. م ـ ٢٧٣ م

لابد من الإشارة إلى أنه وفي القرن الثاني قبل الميلاد بدأ نجم روما، يسطع في الأفق الغربي وهذا ما جعلها، تتدخل في شؤون السلوقيين في سورية والبطالمة في مصر، وحين حمل الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع(١٧٥ ـ ١٦٤ ق.م) على مصر وكاد أن يستولي عليها تدخلّت روما وأمرته بالرجوع حفاظاً على دولة البطالمة. لقد أصبحت روما قوية وكان من واجب الدول الأضعف أن تسمع كلمتها.

ففي عام ٦٣ ق. م يدخل الرومان سورية والغاية من ذلك أن تكون بلاد الشام محطة للجيوش الرومانية في توسّعها نحو الشرق. وهذا سوف يستتبع نشوء خطوط تجارة عالمية جديدة بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب تبعاً للطبوغرافيا والجغرافيا السياسية للإمبراطورية الرومانية.

ومع أن بلاد الشام وقعت تحت الاحتلال الروماني إلا أن تدمر لم تضم رسمياً إلى الإمبراطورية الرومانية إلا في حدود عام ١٨ ميلادي[٢٣]. وهذا الأمر لم يحصل نتيجة صراع عسكري بقدر ما كان انعكاساً لمصالح الطرفين، فروما تريد أن تكون تدمر قوية وهي التي تسيطر على الفرات كما أن لتدمر مصلحة ألاّ تدخل في صراع عسكري مع روما يفقدها مكانتها التجارية والاستراتيجية والحضارية والتي بدأت بتأسيسها في العصر السلوقي.

كان يهم روما أن تكون تدمر قوية في وجه الفرس لحماية خطوط التجارة العالمية والمارة من تدمر كما والمارة من والى الخليج العربي ولكن لا مانع من انضوائها تحت جناح الإمبراطورية الرومانية. يقول المؤرخ مومزين: إن تدمر كانت تعتبر مستعمرة رومانية الاّ أن تبعيتها للإمبراطورية الرومانية كانت ذات طابع فريد تذكرنا على الأرجح بالممالك التابعة اسمياً لروما.[٢٤]

ولا بد هنا من ذكر حادثة جرت عام (١٤ ق. م) حيث أرسل أنطونيو (زوج كليوباترا) فرسانه إلى تدمر لنهبها ولم تكن تدمر آنذاك تشكل خطراً ما على روما ولكن دافع أنطونيو كان نهب المدينة ما يعني أن تدمر كانت مدينة ذات اعتبار وازدهار.. وهذا ما يؤكده المؤرخ أبيان المعاصر لتلك الفترة حيث يقول: «أرسل أنطونيو فرسانه لنهب المدينة متهماً إياها اتهاماً سخيفاً بأنها تحابي الرومان والفرثيين (في فارس)، ولكن حقيقة هدف أنطونيو كانت إثراء فرسانه»[٢٥].

ويؤكد بعض مؤرخي تلك الحقبة أن تدمر كانت مدينة مسالمة بدليل عدم وجود سور ليحميها آنئذ. وقد هرب سكان تدمر آنذاك بأملاكهم الثمينة نحو الفرات وعبروه وحاربوا فرسان أنطونيو بالنبال والسهام، ويذكر أن الجيش الروماني نهب تدمر ودمرها.

وتعليلاً لهذه الحادثة يقول المؤرخ بلين الأكبر أن القدر جعل تدمر قائمة بين امبراطوريتي الرومان والفرثيين وكان كل منهما يفكر بتدمر أول ما يفكر حين يبدأ النزاع بينهما.

غير أن شيفمان يذكر أن حملة أنطونيو كانت سبباً للحرب التي قامت بين الفرثيين والرومان حيث وقف ملوك سورية إلى جانب الفرثيين واستطاع أنطونيو أن يطرد الملوك المحليين إلى بلاد الفرثيين ويفرض على المدن السورية بما في ذلك تدمر أتاوات قاسية جداً.

وإن كان تحليل شيفمان موضوعياً فلعلنا أمام حقيقة أن سورية كانت عبرّت عن رفضها للاحتلال الروماني عبر استعانتها بالفرثيين لصد هذا الاحتلال.

وهذا ما سوف يتكرر مراراً في القرون الميلادية الثلاثة الأولى، لأن العداء التقليدي بين روما وفارس كان ينعكس على مدن بلاد الشام ولا سيما تدمر. وهذا ما دفع تدمر لاستغلال هذا الصراع والعداء لمصلحتها الوطنية كما سنرى لاحقاً.

في عام ١٨ م وحين أصبحت تدمر تحت سلطة روما أصبحت خطوط التجارة الدولية والمرافئ التجارية في سورية تحت سيطرة روما وبذا أصبحت تدمر نقطة التقاء القوافل المتجهة من دمشق أو حمص أو بصرى إلى الرافدين وفارس، ورغم العداء الروماني ـ الفرثي فقد كان من مصلحة روما إعادة النشاط للطريق الصحراوي المختصر عبر تدمر لكونه مباشراً وآمناً واقتصادياً.

وفي فترة حكم الامبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧) م وضعت في تدمر حامية رومانية عسكرية وكان هدف تراجان إيصال حدود الإمبراطورية الرومانية حتى دجلة والخليج العربي وكانت تدمر آنذاك تمتلك أهمية استراتيجية في الدفاع عن الفرات الفاصل بين الامبراطورية الرومانية في حدودها الشرقية وبين بلاد الفرثيين مع الإشارة إلى سقوط البتراء عام ١٠٦ م بيد الرومان وتحول خط التجارة منها نحو تدمر.

عام ١٢٩م يزور تدمر الامبراطور أدريان ويمنح تدمر لقب «المدينة الحرة» وهذا ما أعفاها من دفع الضرائب للخزينة الامبراطورية وبالتالي شكّل دفعاً قوياً لاقتصاد تدمر التجاري.

ويذكر هنا أن أدريان وضع حاكماً تدمرياً على البحرين وسلم مدناً أخرى ليحكمها تدمريون. وهذا يدل على سعة الحيوية والانتشار التدمري والإثبات الحضاري لتدمر.

ولا يخفى في هذا المجال أن منح الإمبراطورية الرومانية الامتيازات للمدن السورية الشامية كان غايته توسيع القاعدة الاجتماعية لسلطة روما من أجل استقطاب سكان سورية إلى الدائرة الرومانية للوقوف في وجه الفرس، والذي يبدو أنه في القرن الثاني الميلادي ولا سيما زمن التعرفة الجمركية (١٣٧) م التدمرية كانت العلاقة بين روما وتدمر تحالفية وكانت سياسة روما أن إعادة الحقوق لتدمر للقيام ببعض شكليات الحكم تعطي التحالف محتوى واقعياً.

ومع مجيء السلالة السورية لحكم روما وفي ٢١٢ م تسجل النقوش التدمرية حصول تدمر على الحقوق التي تتمتع بها المستعمرات الإيطالية وهذا شكل حدثاً ومنعطفاً هاماً في تاريخها السياسي الذي سوف يتطور ويتفعّل اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً للوقوف في وجه الاحتلال الروماني.

خطوط التجارة الدولية في عصر تدمر الذهبي

منذ عام ٧٥ م وضع الرومان أيديهم بقوة على المحطات الرئيسية لخطوط التجارة الشمالية ما بين تدمر والرصافة وهذا ما دفع لإلغاء خدمات البتراء التجارية والتي كانت تمتد سلطة أراضيها على جنوب فلسطين والأردن وخليج العقبة وشبه جزيرة سيناء وبالتالي فإنها كانت تسيطر على شبكة القوافل بين مصر والخليج العربي وبين غزة والجزيرة العربية.

إن سلطة البتراء كانت تتضارب مع الخطة الاستراتيجية لروما وهذا ما دفع روما للقضاء عليها عام ١٠٦ م وبذا انتقل خط التجارة الدولية إلى تدمر حيث أصبحت تسيطر على كل الطرق التجارية في الشرق بين مصر والجزيرة العربية وأوربا من جهة وفارس والهند والصين من جهة أخرى.

وبذا وصلت تدمر إلى أوج نشاطها وازدهارها الاقتصادي في القرن الثاني الميلادي والذي سوف يؤدي في القرن الثالث إلى بلوغ فعلها السياسي والعسكري أقصى قمة له.

وقد تركز النشاط التجاري لتدمر بين الشرق الأقصى (الهند والصين) والبحر المتوسط وكان طريق الحرير البري الذي ينطلق من الصين إلى روما عابراً تركستان وأفغانستان والهند وباكستان وإيران وبلاد الرافدين وبلاد الشام ثم المتوسط تشكل تدمر محطة أساسية من محطاته لا بل عاصمة تجارية هامة.

يقول خالد الأسعد: «أصبحت تدمر مركزاً تجارياً هاماً لا بل عاصمة التجارة الدولية في العالم كله بين الشرق الذي كان صناعياً والغرب الذي كان زراعياً.»[٢٦]

ولم تكتف تدمر بأن تكون محطة تجارية لا بل مارست التجارة البحرية فقد كانت مراكب تدمر تسير إلى الهند لتجلب البضائع من ميناء بربريكوم وكان لها أسطول تجاري في الخليج العربي وقد وصلت فعالياتها التجارية المباشرة إلى الصين وقد عثر على نحت بارز يمثل تاجراً تدمرياً يقف إلى جانب سفينته ويبدو أن السفينة كانت تبحر في مياه الخليج العربي. بالإضافة إلى صلات تجارية مع أرمينيا والأناضول والجزيرة العربية[٢٧].

وكان يجري في تدمر تنظيم معارض تجارية دورية في أراضي المعبد وكانت تعتبر معارض دولية. ويذكر شيفمان أن يوليان بن سعد التدمري جاء إلى جنوب فرنسا إلى غاليا كي يؤسس شركة تجارية كما تذكر النقوش أن التدمريين أصبحوا من ذوي الشأن في مدن بلاد الرافدين وكانت حكومة تدمر تشجع التجار ليطوروا أعمالهم في تلك البلاد وكانت ثمة قوافل تدمرية تتوجه إلى وادي النيل.

وكان يأتي تدمر من جزيرة العرب اللآلئ والبخور والأحجار الكريمة ومن سلوقية دجلة قرب بغداد كانت تأتي الألبسة ومن الساحل السوري الأواني الزجاجية والفضة والذهب والصباغ الأرجواني ومن لبنان ومنطقة دمشق الخمور ومن كشمير وهيملايا وتركستان الصينية كانت تأتي التوابل والأصبغة والحرير والفرو.

ويذكر خالد الأسعد أن ثمة امتزاجاً أو تبادلاً ثقافياً بين حضارة موهنجيدار في جنوب الهند وبين تدمر سواء في التماثيل أو في طريقة اللباس وهذا ما دفع المؤرخ أبيان للقول أن التدمريين هم تجار الهند.

وكان لتدمر موانئها ، فعلى الخليج العربي كان لها ميناء ميسان وعلى النيل في مصر كان لها ميناء قفط قرب أسوان ووطدت علاقتها مع دورا أوربوس على الفرات ووضعت فيها حامية عسكرية لحماية تجارة تدمر. بالإضافة إلى حصن آخر على الفرات هو حلبية زلبية.

وكان لها مراكز تجارية في بلاد فارس ويذكر فرانتس ألتهايم أن التدمريين أقاموا خطاً تجارياً بين البحر الأحمر ومصب نهر الهندوس.

وكان ثمة طريق تجاري مباشر بين تدمر والبتراء ثم منها إلى سناء وغزة ، وحين كان الفرثيون في بلاد فارس يغلقون طريق الحرير المار عبر تدمر ، كانت الأخيرة تستعيض عنه بطريق بحرية عبر الفرات إلى الخليج العربي فالشرق الأقصى.

أما من ناحية الانتشار التدمري في أوربا فقد عثر في جنوب بريطانيا على آثار تدمرية قد تكون انتقلت عن طريق التجار أو الجنود وكان ثمة مستوطنة تدمرية في بودابست في هنغارية وعلى نهر الهندوس في تركستان عثر على قطع تدمرية وفي الجزائر عثر على كتابات تدمرية تتحدث عن حنين التدمريين للعودة إلى بلدهم.

أما في روما فقد عثر على الكثير من النقوش الكتابية التي تعود لأشخاص من مختلف مناطق سورية وخاصة من تدمر وقد تبادلت تدمر السفراء مع بعض مدن الجنوب العربي فقد عثر في وادي بيجان على نص يتحدث عن احتفال إقامة الملك هناك لتكريم بعض المواطنين وكان يرافقه السفراء الأجانب ومنهم سفير تدمر وسفير الهند.

كما بنى التدمريين في روما معبداً في حي يدعى حي الشرقيين وأقاموا مشاغل ومصانع في الخليج العربي وقد حدد العالم أولينغ المسافة التي تقطعها القوافل بين عاصمة الصين وتدمر بأنها تقدر بمسيرة ست سنوات للذهاب والإياب.

أما عدد السفن التي كانت تمخر في المحيط الهندي بين البحر الأحمر ومرافئ الهند ذهاباً وإياباً فكان ١٢٠ سفينة[٢٨] ولعل إقرار مجلس الشيوخ التدمري لنص التعرفة الجمركية التدمري عام ١٣٧ م هو دليل على ازدهار النشاط التجاري التدمري وقوة اقتصادها.. مع ملاحظة أن تدمر لم تكن مدينة تجارية فقط.

فقد أشار هورست كلينغل إلى أن النشاط التجاري التدمري جلب لها الثراء لكن الزراعة التي وفرتها الواحة شاركت أيضاً في توطيد هذا الرفاه فتدمر لم تكن معزولة بل كانت على اتصال مباشر مع القرى المنتشرة في البادية والتي تعيش على الزراعة والرعي وكان الزيتون هو النبات الأساسي في تدمر كما أنهم زرعوا الحنطة والتمر والتين والرمان والتفاح والأجاص والبطيخ.[٢٩]

وبالإضافة إلى كل هذه الفاعلية التجارية لمدينة وسط الصحراء فقد كان على تدمر أن تؤمن حماية القوافل وخطوط التجارة لهذا كان يتم تشكيل فرق من الهجانة لحفظ أمن القوافل ولا سيما المنطقة الممتدة من الفرات إلى حماه ودمشق.

وفي نقش تدمري يعود إلى عام ١٩٩ م جاء ما يلي:

بقرار من المجلس ، والشعب تقيم العشائر التدمرية الأربع نصباً على شرف عقيل بن مكي بن عقيل بن سيفور عرفاناً له بالخدمات التي أداها إبان الحملة ضد البدو الرحل وكذلك لقاء تأمينه حماية للقوافل على نفقته الخاصة[٣٠]. وكانت حكومة تدمر تضع تمثالاً في ميدان المدينة لمن قدم عملاً جليلاً لتدمر كنوع من التكريم والاحتفاء.

ثقافة تدمر في القرون الميلادية الثلاثة الأولى

الكتابة التدمرية واللغة العربية المحكية

من المعلوم أن التدمريين كتبوا بالآرامية لكن لغة حياتهم اليومية كانت العربية بلهجاتها الشمالية ، ويعزو البعض عدم كتابة تدمر بالكتابة العربية لأن هذه الكتابة كانت في طور الكمون وربما المخاض بالإضافة إلى أن الكتابة الآرامية كانت كتابة عالمية في ذلك العصر

وكما أسلفنا سابقاً فإنه مع القرن الأول الميلادي سادت القبائل العربية على تدمر ولئن كانت في نهاية العصر السلوقي تساوي في عديدها تعداد الآراميين فإنه مع القرن الأول الميلادي ومع تأسيس تدمر العربي عبر اتحاد القبائل الأربع الكبيرة فإن تتبع الكتابات التدمرية ينبئ عن محاولات بدايات لتعريب سكان المدينة فاستناداً إلى نقوش القرن الأول الميلادي يلاحظ أن المفردات العربية بدأت تتغلغل إلى الوثائق التدمرية وهو ما يعني بداية تعريب سكان المدينة وهذا ما يتضح أكثر من الأسماء العربية التي نصادفها في النقوش التدمرية بالإضافة إلى





استبدال للمصطلحات اليونانية باصطلاحات عربية وهذا دليل على أن هناك اتجاهاً معادياً لاستخدام الاصطلاح اليوناني.[٣١]

ومن الأمثلة على ذلك استبدال مصطلح DEMOS اليوناني الذي يعني اجتماع أو حشد باصطلاح عربي هو gbl التدمري عوضاً منه ويذكر الدكتور عدنان البني أنه مع مطلع القرن الميلادي الأول ساد العنصر العربي في تدمر وتجلى ذلك في أسرة أذينة زوج زنوبيا الذي كان من منبت عربي وكانت الأسماء العربية في تدمر لها الغالبية العظمى.

والجدير ذكره هنا هو أن الكتابة الآرامية تتآلف من ٢٢ حرفاً وتكتب من اليمين إلى اليسار وحروفها هي نفس حروف اللغة العربية.

أما في مجال العمارة التدمرية فيذكر خالد الأسعد أن ٩٩ % من عمارتها ذات مخطط معماري سوري بينما يؤكد الدكتور سليم عبد الحق أن عمران تدمر ليس هلنستياً ولا رومانياً بل مزيجاً من العمرانين مع أصالة سورية سائدة بوضوح وقد حاول بعض الباحثين في مجال تاريخ العمارة أن يجرد تدمر من كل إبداع معماري أصيل ويلقيه على العمارة الرومانية.

لكن تاريخ كمبردج يذكر أن بعض العلماء يعتقدون أن سورية في مجال العمارة كانت متقدمة على روما لا بل كانت بالنسبة لها النموذج الذي احتذته وأن سورية تقدمت على روما في عبقريتها المبدعة وفي معارفها التقنية وفي مهارة عمالها.[٣٢]

وخير مثال على ذلك هو أبو لودور الدمشقي ٦٠ ـ ١٢٥ م الذي كان صديقاً للإمبراطور تراجان والذي استدعي إلى روما لبناء أهم وأكبر عمائرها ومنها السوق والميدان التراجاني والجسر العملاق على الدانوب وقوس النصر ودار العدل وعمود تراجان وما زالت بعض آثار إبداعاته موجودة في إيطاليا.

يقول بيانكي باندينيللي: «إن أكثر الدفعات الثقافية الحيوية كانت تأتي غالباً من مقاطعات الشرق سواء في الفكر أم من الفن ومنها يأتي أنشط رجال السياسية وأكفأ الموظفين والقادة العسكريين»[٣٣].

ويشير د. عبد الحق إلى فضل تدمر في إشاعة التاج الكورنتي الكلاسيكي على منافسيه التيجان الأيونية والطوسكانية في جميع أنحاء العالم آنذاك في أوربا وآسيا وأفريقيا بعد أن ابتدع في معبد بل بتدمر.[٣٤]

مجال المعتقدات الدينية:

فكما أسلفنا أن تدمر كانت واحة للتسامح والتعددية الدينية ، فثمة ٦٠ إلهاً وكافة أتباعهم يحيون حياة هانئة وولائهم لم يكن لجهة تدمر ولاءً دينياً بل ولاءً للمدينة ودولتها.

غير أن ما يلفت النظر في هذا المجال هو العثور في نفق نبع أفقا على نقوش وكتابات تكرّم إلهاً يحمل لقب «الرب الرحمن الرحيم» وقد ورد بالتدمرية (لبريك شمه عالما) الرب الذي بورك اسمه إلى الأبد الرحمن الرحيم ، حيث يؤكد شيفمان أن هذا الرب ومنذ منتصف القرن الثاني ميلادي عظمت شعبيته على أي رب آخر ويعتقد أنه كان مؤشراً لاتجاه نحو التوحيد.

والذي نعتقده أن هذا الاتجاه نحو التوحيد كان انعكاساً لوحدة المجتمع التدمري وانصهاره في وحدة حياة واحدة. ويذكر الباحث الفرنسي رينيه دوسو في هذا المجال أن الأنباط كانوا يعبدون الله كما عند التدمريين ويتحدث عن نقش عثر عليه في تدمر يعود إلى عام ٢٠٠ ميلادي يقول: «اهداء للرب الواحد الأحد الرحمن الرحيم».[٣٥]

النحت التدمري:

يعتبر النحت التدمري بمثابة مدرسة فنية قائمة بحد ذاتها ويمكننا أن نطلق عليها تعبير مدرسة الحياة. فالمعلوم أن أغلب هذه المنحوتات هي منحوتات جنائزية مصدرها المدافن ومع هذا فالتعابير التي توشحها هي تعابير تضج بالحياة. ويؤكد الباحثون على أن النحت التدمري كان فناً ناضجاً وواضحاً وقائماً بذاته منذ القرن الأول قبل الميلاد لابل يؤكد الدكتور البني على أن الفن التدمري لا يخرج عن التقاليد المعروفة للفن السوري في القرون الميلادية الأولى وغيره من الفنون الشقيقة ويركّز العالم الفرنسي سيريغ على ذلك بقوله: لم يتمكّن الحكم الروماني الذي دام قرنين ونصف مع كل ما رافقه من احتكاك مع الغرب من تغيير النحو الغريب في ترتيب الأشكال المنحوتة ذلك النحو الذي يشارك فيه التدمريون جيرانهم الشرقيين.[٣٦]

أما في مجال التأثيرات الفنية للثقافات الأخرى المعاصرة فلا بد أن نؤكد على فعل المثاقفة بين تدمر وبين المراكز الثقافية في العالم آنذاك مع التركيز على مبدأ الأصالة الذي يعتبر خصيصة رئيسية من خصائص الحضارة السورية بعامة.

يقول العالم سيريغ: ان التأثير الغربي في الفن التدمري سطحي بوجه الإجمال وهذا يدل على عدم الاستعداد للتأثر ليس بأسلوب أجنبي وانما بعقلية أجنبية. وهذا الأمر يرد أيضاً عند جان شارل بالتي حيث لوحظ أن التدمريين يبدون مقاومة ثقافية نحو روما. ولدى دراسة اللقى التدمرية التدمرية ولاسيما في بانونيا على نهر الدانوب لوحظ أن البيئة التحتية المحلية المشرقية ظاهرة بقوة وحيوية ولاسيما في اللباس الوطني التدمري وفي ارتداء اللباس المحلي ويصل للقول على أن هذه الظاهرة هي شاهد على المقاومة لظاهرة الاندماج (٣٧).

ولا تبتعد الباحثة ماري موريهات عن المضمون العام الذي ذكرناه بقولها:" إن أقرب الأساليب الفنية شبهاً بالأسلوب الفني التدمري نجدها في الأساليب التي ازدهرت في القرون الثلاثة الميلادية الأولى في سورية الداخلية والنحت النبطي في الأردن وجنوب سورية".[٣٨]

الحياة اليومية في تدمر:

تنبغي الإشارة إلى أن العيد السنوي عند التدمريين كان في ٦ نيسان وهو يوم مقدس أطلقوا عليه اسم «اليوم الطيب». ولم يحفل التدمريون بالموت كثيراً وتخلو المدافن من المرفقات الجنائزية الثمينة لغلبة العقلية التجارية على الاعتقادات الماورائية فمن العبث وضع أشياء ثمينة مع الميت الذاهب إلى بيت عالما أي بيت الأبدية. وتحوي الشواهد التدمرية على كلمة «حبل» أي «أسف» على الميت.

ويبدو أنه لم يكن لديهم اعتقاد بحياة مادية بعد الموت بدليل استخدامهم للمدافن البرجية في معارك الدفاع عن تدمر لابل وكانوا اذا فتحت ثغرة في سور تدمر أثناء الحروب فسرعان ما يغلقونها بالقبور الحجرية.

وكانت التدمريات يتمتعن بملكية خاصة ويقدن القوافل التجارية كما دلت المنحوتات. وكان اسم تدمر يستخدم كاسم علم مثل تدمر بنت حسان[٣٩] وكانت حكومة تدمر تشرك الفقراء في بعض أرباح القوافل.[٤٠]

وجاء في كتاب تدمر لستاركي والمنجد أن سكان تدمر كان تعدادهم حوالي ٣٠ ألف نسمة موزعين على حوالي ١٠ كيلومتراً مربعاً في حين كان عدد سكان بلاد الشام في القرن الثاني ميلادي حوالي ٧ مليون نسمة.[٤١]

اليهود وتدمر:

جاء في التلمود: «يا لسعادة من سوف يرى نهاية تدمر فقد

اشتركت في هدم المعبد الأول والثاني.. ففي المرة الأولى قدمت ٨٠ ألفاً من الرماة!!؟ ولهدم المعبد الثاني ٨ آلاف».

ففي عام ٧٠ للميلاد قام القائد الروماني تيطس الروماني بمهاجمة القدس وكعادتهم كان الرومان يستعينون بالرماة التدامرة المشهورين في العالم آنذاك. ولا نعتقد أن عدد الرماة الوارد في التلمود صحيحاً فهذه المبالغات ألفناها في المرويات اليهودية ونعتقد أن غايتها استدرار شفقة الأمم عليهم كونهم واقعون تحت ضروب عقدة الاضطهاد.

وفي عام ١٣٧ للميلاد يساهم التدمريون مع الجيش الروماني في الهجوم على اليهود ولسنا هنا في وارد البحث عن أسباب هذا الهجوم وما يعنينا هنا هو أن اسهام تدمر في هذا المجال كان استجابة لظروف سياسية دولية أملتها مصالح روما السياسية مع الأخذ بعين الاعتبار أن مدينة دورا أوروبوس حوت في القرن الثالث الميلادي على كنيس يهودي وجالية يهودية ولم تقترب منهم حكومة تدمر بأي سوء طالما أكدوا تفاعلهم مع الهيئة الاجتماعية حيث كانت ترابض في المدينة حامية عسكرية تدمرية.

ولكن الأغرب أن يلجأ كاتب التوراة إلى تلفيق وتزوير/كما العادة/ حيث يرد في سفر أخبار الأيام الأول وسفر الملوك الثاني على أن «سليمان بنى تدمر في البرية»!!؟. علماً أن بين سليمان /إن وجد أصلاً/ وبين عصر تدمر الذهبي حوالي ألف عام!؟.

وكنا أجرينا سبراً لآراء عدد من الباحثين والعلماء السوريين والعرب والأجانب حول هذه النقطة ونشرناها في إحدى المجلات اللبنانية [٤٢] ولأهمية هذا السبر فقد أرفقناه في نهاية الكتاب مع الانتباه إلى أجوبة بعض العلماء الأجانب، الذين هربوا في إجابتهم من الموضوعية عبر التفلسف واستخدام عبارات مطاطة ومبهمة لا مكان لها في نطاق الأبحاث العلمية الرصينة.

الصراع السياسي بين إمبراطوريات عالم القرون الميلادية الثلاثة الأولى

كان العالم القديم في عصر تدمر يتألف من أربع إمبراطوريات: ففي الشرق كانت بلاد فارس التي حكمها الفارثيون (٢٤٧ ق. م ـ ٢٢٦ م) ثم الساسانيون (٢٢٦ م ـ ٦٥١ م). وفي الهند كانت المملكة الكوشانية أما في الصين فكانت تحكم سلالة هان. وفي الغرب كانت روما التي امتدت إمبراطوريتها من الأطلسي وبحر الشمال غرباً إلى الفرات شرقاً ومن الراين والدانوب شمالاً إلى الصحراء الكبرى جنوباً.

وفي حين أن مملكة كوشان وهان لاتهمنا لجهة البحث بتاريخ تدمر فاننا سنحصر اهتمامنا ببلاد فارس والرومان وانعكاس ذلك على تدمر التي كانت حدودها /حسب شلومبرجيه/ بعد دراسته لنقوش تدمر في القرن الثاني ميلادي تمتد من الشمال والشمال الشرقي وعلى امتداد الفرات ثم عبر منطقة سهل الرصافة في الجنوب حتى خربة بلعاس ومن هناك إلى خربة الفي وعبر قصر الحير وسهل الضو. [٤٣]

الدولة الفرثية ثم الساسانية في بلاد فارس:

في عام ٢٤٧ ق. م انفصلت دولة الفرثيين عن الدولة السلوقية، ومع دخول الرومان إلى سورية والأناضول احتدم الصراع بين الفرثيين وروما وكان الفرات فاصلاً بينهما ونظراً لوقوع تدمر على الخط الفاصل فقد لعبت دوراً حاسماً في التوازن الدولي القائم آنذاك، ويبدو أن الصراع الفرثي ـ الروماني كان على الخطوط التجارية الدولية ولا سيما خط الهند والصين وكان الفرثيون كلما سنحت الفرصة لهم يغلقون هذا الخط في وجه الرومان وبالتالي في وجه تدمر والتجارة التدمرية وهذا ما كان يدفع بتدمر كي تستخدم الفرات في نقل بضائعها إلى الخليج العربي وهذا ما دفع الرومان أيضاً في عهد تراجان إلى اجتياح عاصمتهم طيسفون بالقرب من بغداد عام ١١٤ م ثم في عهد سبتيم سفير عام ١٩٧م ثم عام ٢٣٣م على الساسانيين ورثة الفرثيين.

كانت حدود الدولة الفرثية تمتد من أقصى شرق إيران إلى نهر الفرات غرباً ومن أرمينيا شمالاً إلى إقليم كابل في الجنوب الشرقي وكانت حدودها تنكمش أو تتبدل تبعاً للظروف الدولية.

عام ٢٢٦ م تقوم دولة الساسانيين على أنقاض الدولة الفرثية وكحيوية أي دولة جديدة تمتد إلى الهند وتصل إلى ماوراء النهر وإلى الغرب تصل حتى أنطاكية وتواجه الجيش الروماني وتأسر امبراطوره وجيشه وتنهي مملكة الحضر العربية وعام ٢٢٨ م يحتل الساسانيون مصبات الفرات ودجلة ومملكة ميسان (ميناء تدمر) على شط العرب ما أدى إلى قطع خط التجارة في وجه تدمر وسبب خنقاً لنشاطها التجاري وعام ٢٥٣ م يستولي الساسانيون على أنطاكية وعام ٢٥٦ م يستولون على دورا أوربوس.

إن وقوع تدمر بين الإمبراطوريتين سوف يؤدي إلى محاولة إيجاد موطئ قدم لها وسط صراع الأقوياء للمحافظة على خطوط تجارتها وهذا ما كان ليتحقق إلاّ بعدة عوامل:

الأول: الاقتصاد القوي والذي منح تدمر بنشاطها التجاري قوة ومنعة.

الثاني: وجود قيادة وطنية تصون كرامة وحدود وشعب تدمر وهذا ما تحقق في أسرة أذينة وزنوبيا في القرن الثالث ميلادي.

الثالث: ضعف إحدى القوتين، الكبيرتين وهذا ما حصل لروما بدءاً من سقوط حكم السلالة السفيرية ٢٣٥ م وإنهاء أذينة للقوة الساسانية حين احتل عاصمتها طيسفون ٢٦٧ م.

الإمبراطورية الرومانية:

يعود الفضل إلى أغسطوس (٢٧ ق. م ـ ١٤ م) في وضع القواعد الأساسية التي قام عليها النظام الامبراطوري الروماني في كافة أوجهه ثم توالى على عرش روما الأسرة اليوليانية (نسبة إلى يوليوس قيصر) من ١٤ م ـ ٦٩ م ثم الأسرة الفلافية ٦٩ ـ ٩٦ م. [٤٤] ثم تأتي مرحلة حكم فيها أباطرة أطلق عليهم لقب الأباطرة الصالحين وذلك من ٩٦ م ـ ١٨٠م.

وفي عام ١٩٣ م ونتيجة لضعف الأباطرة وتدخل الجيش في الإدارة قام الحرس الامبراطوري بعرض الامبراطورية للبيع في المزاد ورسا المزاد على أحد أعضاء مجلس الشيوخ «د يدوس يوليانوس» حيث اشترى العرش بـ ٢٥ ألف سترسة وهنا تدخّل سبتيم سفير اللبدي من مدينة لبدة الفينيقية في ليبيا زوج الحمصية جوليا دومنا لينقذ الامبراطورية من الانهيار ولتبدأ فترة حكم الأسرة السفيرية من ١٩٣ ـ ٢٣٥ م

ولا يمكن فهم الاعتبارات التي قادت سبتيم سفير لاعتلاء عرش روما سوى سعيه لإعادة الاعتبار لمفهوم العرش كونه رجلاً عسكرياً ومن ثم اعتبار إحساسه بالانتماء إلى العروبة بمفهومها الحضاري وهذا ما جعله في نظر الكثيرين [٤٥] منتقماً من الاجتياح الروماني للشرق ولقرطاج حيث أن أول ما فعله عند اعتلائه العرش أن أعاد الاعتبار إلى قبر هانيبعل حيث بنى له تمثالاً من المرمر وأهداه إلى «أكبر رجل حرب بين قدماء الرجال» ويتأكد هذا الأمر أكثر في منح تدمر في عهد كركلا عام ٢١٢ م لقب مستعمرة وجعلها تابعة لولاية «فينيقية» وعاصمتها حمص.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن فترة حكم الامبراطور فيليب العربي ٢٤٤ ـ ٢٤٩ م لعرش روما لم تشهد أي اهتمـام بتدمر واقتصر اهتمامه على مدينته شهبا في حوران.

وبعد انقضاء حكم الأسرة السفيرية عام ٢٣٥ م دخلت الامبراطورية الرومانية حقبة من الفوضى السياسية امتدت من ٢٣٥ م وحتى ٢٨٤ م فقد دمر الاقتصاد وأصبحت قيمة النقد منخفضة إلى درجة الصفر وتعرضت بلاد الإمبراطورية إلى هجمات من وراء الحدود.

ففي عام ٢٥٠ م انتصر القوط على الإمبراطور داسيوس وقتلوه وفي عام ٢٦٠ م انتصر الساسانييون على الإمبراطور فاليريان وأسروه واستطاعوا احتلال المناطق الواقعة إلى غرب الفرات وهذا ما سوف يؤثر على تدمر وتجارتها وسوف يدفع تدمر كي تدافع عن نفسها في غياب الجيش الروماني المتهالك.

يقول جميس برستد أنه وبانتهاء حكم الأسرة السفيرية حدث الانفجار العظيم في الإمبراطورية الرومانية وهذا ما جعل الجيش يتدخل في تعيين الأباطرة حتى أنه وخلال تسعين سنة بلغ عدد الأباطرة الذين اغتيلوا ثمانين امبراطوراً معظمهم من غير الإيطاليين.[٤٦]

ومقابل هذه الفترة كان عصر الملوك التدامرة (حسب هورست كلينغل) قد بدأ يصعد.. وبدأت تدمر تقطف ثمار وجود اقتصاد متين وتجارة ناشطة وقيادة واعية في وقت تبدّل على عرش روما من ٢٣٥ـ٢٧٠م ٣٧ إمبراطورا وبالإضافة إلى ذلك كانت تدمر قد أعدّت جيشاً مكنّها من الدفاع عن نفسها، ونتيجة لكل هذه الحيوية التدمرية أخذ دور تدمر يكبر ويتعاظم في وقت كانت الأوبئة تجتاح روما عامي ٢٦٠ ـ ٢٦٥م وتذكر المراجع التاريخية أنّ الملاريا فتكت بسكان روما وتذكر المصادر التاريخية أن خمسة آلاف إنسان كانوا يقضون يومياً واستمرت هذه الحال لعدة أسابيع.

ووسط هذه الحال كان نجم تدمر يلمع ويتعالى لتجد لها مكاناً جديراً بما تستحق بين الأمم ولتبدأ بلعب الدور القوي والحاسم في الحياة السياسية السورية وفي عالم المتوسط وشرقه بشكل عام.

تدمر وعصر الملوك التدامرة

اعتباراً من منتصف القرن الثالث الميلادي سوف يكون لتدمر شأن على الساحة السياسية العالمية آنذاك وذلك لعدة اعتبارات:

أولاً: حكم تدمر من قبل أسرة أذينة منذ عام ٢٥٣ م وهذا ما وطد دعائم النظام السياسي في تدمر الذي أخذ يدرس المعطيات الدولية والإقليمية والمحلية ويوّظفها لمصلحته.

ثانياً: الانهيار في مؤسسات الإمبراطورية الرومانية وتكالب الأباطرة على بعضهم البعض.

ثالثاً: ثمة محرض من جهة الدولة الساسانية حيث كانت هذه الدولة تطمع بسد منافذ التجارة في الخليج العربي مستغلة ضعف روما ما جعل تدمر تتنكب هذه المهمة وتصد الساسانيين عن ذلك.

لقد كان حكم دولة أذينة زنوبيا نموذجاً واقعياً للإمبراطورية الرومانية في الشرق. ففي عام ٢٦٢ م وعام ٢٦٧ يشن أذينة /وكانت زنوبيا زوجته تشاركه في معاركه/ حملة على الساسانيين ويصل عاصمتهم طيسفون واستطاع أن يسيطر على معظم مدن سورية والرافدين بما فيها أنطاكية وقد بقيت أنطاكية تحت سيادة تدمر حتى سقوط تدمر عام ٢٧٣ م.

وبذا أصبح أذينة ملكاً على سورية بما فيها كليكياو بلاد العرب وكبادوكيا وأرمينيا.

وبحكم التقاليد العسكرية الرومانية أعلن أذينة نفسه إمبراطورا وكذلك ابنه وهذا يعني أنه أصبح على قدم المساواة مع الإمبراطور الروماني. وتشير المعطيات حسب شيفمان إلى أن أذينة كان يحظى بدعم السوريين خارج تدمر أيضاً.

وقد كانت ألقابه «كاهن الشمس» و«أسد الشمس المروع المخيف» أما ألقابه الإمبراطورية فكانت «امبراطور الرومان استراتيجي الرومان» و«رئيس القناصل» و«الملك القدسي» «ملك الملوك ومجدد الشرق كله».[٤٧] لقد استغل أذينة فترة ضعف الإمبراطورية الرومانية ليعيد الفاعلية المشرقية العربية ضد الرومنة واستطاع أن يكون صاحب السيادة المطلقة على آسيا الرومانية من أرمينيا حتى جزيرة العرب.

والجدير ذكره هنا هو أن أذينة ومنذ ٢٢٥ م كان عضواً في مجلس الشيوخ الروماني وعندما وضع حداً للتمدد الساساني بدا وكأنه أنقذ روما من الانهيار لكنه كان يسعى كما يبدو إلى أمرين:

أولهما: إظهار الفاعلية العسكرية والسياسية لتدمر وضمان مصالحها الحيوية.

ثانيهما: الشروع في اعتلاء العرش الروماني بعد القضاء على الخطر الساساني.

ولكن هذا لم يحصل بسبب تعرضه للقتل مع ابنه من زوجته /غير زنوبيا/ في عام ٢٦٧ م. وكالعـادة يشير بعض المؤرخين إلى دور زنوبيا في قتله وقتل ابنه كي تأخذ سدة الحكم بعده، غافلين أن من له مصلحة في قتله بالدرجة الأولى هم الساسانيون كانتقام منه والرومان كخوف، من «مقوم الشرق كله» و«القائد العام للجيوش الرومانية في سورية» حسب الألقاب الرومانية ولم يخطئ مومسون حين قال: إن المؤرخين الرومان كانوا يدونون ما هو حري بالحذف ويحذفون ما هو جدير الأهمية بالتدوين.[٤٨]

وثمة شيء آخر نلاحظه في تكتيك أذينة كرجل دولة وقد يدفع هذا ببعض التحاليل غير الموضوعية حول استراتيجيته ففي عام ٢٦٠ م وفي عهد الإمبراطور غاليانوس قام أحد السوريين واتخذ من مدينة حمص مقراً له وأخذ يطالب بعرش روما وأمر بسكّ نقود عليها صورة إله الشمس، لكن أذينة مضى إلى حمص وقضى على هذا التمرد.

إن تحليل هذه الحادثة السطحي يقول: أن أذينة كان يدافع بذلك عن العرش الروماني غير أن خصائص وروحية الحضارة السورية عبر التاريخ تؤكد أن أذينة لم يشأ أن يقف أحد أمامه حجر عثرة في طريق اعتلاء عرش روما وباللحظة المناسبة ويبدو أن هذا المشروع انتقل إلى زوجته زنوبيا.

والذي يبدو من كل ذلك هو أن عجز الأباطرة الرومانيين من القضاء على تدمر آنذاك دفعهم إلى عمل كل ما من شأنه أن يبقيها ولو شكلياً في إطار الإمبراطورية الرومانية ويكسب ود حكامها.

بعد مقتل أذينة وابنه تقام في تدمر النصب التذكارية التي تخلده[٤٩] ويرث ابنه وهب اللات ألقاب والده ولكونه دون السن القانوني فقد أدارت زنوبيا دفة الحكم في تدمر. ويبدو أنها كانت تكمل مشروع زوجها. ويشير شيفمان إلى أن زنوبيا كانت ترغب أن تكون سلطتها مماثلة في وضعها لسلطة جوليا دومنا بعد موت زوجها سبتيم سفير وهذه كانت وجهة نظر الأعراف القانونية الرومانية.

وهذا ـ إن صحّ ـ يشير بدلالة قاطعة إلى تطلع زنوبيا لاعتلاء عرش روما حيث تذكر المعطيات بنائها لعربة إمبراطورية أمرت بصنعها آملة أن تدخل روما بها.[٥٠]

واستطاعت زنوبيا استغلال أحوال الإمبراطورية المنهارة لمصلحة تدمر ومصلحة مشروعها ذي البعد الإمبراطوري. فحين أرسل الإمبراطور غاليان القائد الروماني هيركليانوس لحرب الفرس، تعقبّته زنوبيا حتى نجا بصعوبة بالغة منها. وحين هزم توطد نفوذ زنوبيا في سورية وبلاد الرافدين. ولم تكن تميل لعقد تحالف مع الرومان. وفي عهد الإمبراطور كلاوديوس الذي اهتم بإصلاح أحوال شعبه استغلت زنوبيا هذا الوضع واحتلت مصر عام ٢٧٠ م ثم احتلت الأناضول وصولاً إلى أنقره وبذلك أصبح كامل القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية تحت سلطة تدمر ويعتقد أن الجيش التدمري توجه إلى مصر عبر سيناء مروراً بالبتراء.

وباكتمال دائرة الفتوحات التدمرية أصبحت إمبراطورية تدمر تمتد من البوسفور إلى دجلة إلى النيل شاملة كامل مصر وقسم كبير من الجزيرة العربية وبلاد الشام. ويبدو أن احتلال مصر لم يكن ذا مغزى عسكري فقط بقدر ما كان يؤمل منه بقطع الغلال والتموين عن روما فالمعلوم أن بلاد الشام ومصر كانتا سلة الغلال للإمبراطورية الرومانية.

بالإضافة إلى ذلك فإن احتلال مصر كان يعني احتلال أكبر مرافئ الشرق وهو الإسكندرية وبذا تستطيع تدمر أن تحول تجارة هذا المرفأ لصالحها حيث أنه ومنذ عهد أغسطس قيصر كانت الإسكندرية تجهز ما لا يقل عن ١٢٠ سفينة للوصول إلى الموانئ الهندية وهذه نقطة لم تكن في صالح تجارة تدمر.[٥١]

ويبدو أن قطع الغلال عن روما كان غايته إنهاك روما المتهالكة من أجل اعتلاء زنوبيا لعرشها. ففي عام ٢٧١ م تعلن زنوبيا استقلال تدمر ويؤكد ول ديورانت على أن انتصارات زنوبيا لم تكن إلا فصلاً من مسرحية واسعة النطاق هي مسرحية انهيار روما.[٥٢]

وفي موازاة مشروع زنوبيا الإمبراطوري كانت روما المنهكة تسعى إلى لملمة أشلائها وقد حصل لها ذلك عبر استلام العرش مجموعة من الأباطرة الالليريين الذين ينتسبون إلى البلدان الواقعة جنوب نهر الدانوب وقد عرفت شعوب هذه المنطقة الواقعة تحت السيادة الرومانية أن توفق بين أصلها وميلها إلى الطبيعة الرومانية ودليل ذلك أن موقف الأباطرة الالليرين الذين حكموا عرش روما لم يتغير من الإمبراطورية الرومانية وثقافتها. فقد بذلوا جهودهم في سبيل الحفاظ على التقاليد الرومانية ـ وكان أورليان /خصم زنوبيا/ أحد هؤلاء الأباطرة ويعتقد أنه نشأ في مستوطنة رومانية في يوغسلافيا (بنونيا السفلى).

يقول فرانتس إلتهايم: كان القيصر الاليري أورليان ٢٧٠ ـ ٢٧٥ م يعارض ما لم يكن له لون روماني في الفلسفة والأدب السياسي وأخذ يحارب تقلب السوريين وأحلام ملكة تدمر.[٥٣]

بالإضافة إلى هذا فقد أمر ببناء سور حول روما لدرء الأخطار عنها وفي وقت كانت تدمر محاطة بسور مدعم بأبراج مربعة.

وبعد أن وطّد أورليان أحوال الإمبراطورية الرومانية على الدانوب من هجمات البرابرة واستقرت أموره توجه بنظره إلى الشرق حيث تدمر التي قطعت الخطوط التجارية عن روما وسحبت المؤن والغلال لصالحها فما كان من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني إلا أن يصرخوا عالياً نجّنا أيها الإمبراطور من زنوبيا.

فقد أدخلت زنوبيا شبح الفقر إلى كل بيت في روما.[٥٤] وتوجه أورليان بجيشه إلى الأناضول واستعادها وأرسل جيشاً رومانياً لاستعادة مصر وتمّ له ذلك. وفي النصف الأول من عام ٢٧٢ م يتواجه أورليان مع زنوبيا في أنطاكية عاصمة سورية آنذاك.

أورليان الذي يريد المحافظة على عرش روما والذي لقب بـ «يد على سيف» مقابل زنوبيا الحالمة أيضاً بعرش الإمبراطورية والتي تحمل لقب (أوغستا).

ويعود الجيش التدمري إلى حمص ويتواجه مع الجيش الروماني ثم يعود الجيش التدمري إلى تدمر ويتحصن خلف أسوارها آملاً بأن يتدخل الأعراب في إلحاق الهزيمة بجيش أورليان ولكنهم حاولوا ولم يفلحوا بذلك فحاصر أورليان تدمر وقطع خطوط الإمدادات عنها و التي كانت ترد من العرب البدو أو من الساسانيين أو الأرمن.

وحصلت مراسلات بين أورليان وزنوبيا في وقت كان الرومان يسخرون من أورليان الذي يحارب امرأة حيث قال لهم: «ليتكم تعرفون من هي هذه المرأة وأي امرأة أقاتل وليتكم يا من تعتبرون أنفسكم رجالاً تشبهون زنوبيا في أي صفة من صفاتها، وماذا سيقول التاريخ إذا غلبتني زنوبيا..؟» وأجهد أورليان حصار تدمر وفشل في اقتحام أسوارها فقرر التفاوض مع زنوبيا ويبدو أنه صاغ رسالة آمرة لزنوبيا بأن تستلم وتسلم المدينة له.

غير أن زنوبيا أجابته: «لم يجرؤ أحد من قبلك أن يطلب مني ما طلبته أنت... في الحرب كل شيء يحسم بالشجاعة.... إنك تطلب مني الاستسلام.. إن الأعراب قد قهروا جيشك وإذا ما جاءتني الإمدادات فإنك ستتخلص من غرورك وتتوقف عن طلب استسلامي... أيها الإمبراطور.. الأرجوان هو لباس الملوك ولكن بالنسبة لي سيكون خير الأكفان.».

فما كان من أورليان إلا أن أمر بالهجوم حيث عزز الحصار وأسر بعض عملائها من الفرس وقام بشراء ضمائر البعض من الأعراب البدو لتسقط تدمر تحت سلطة الجيش الروماني وتروي المصادر أن زنوبيا اتجهت بنفسها نحو الفرات كي تطلب مساعدة الساسانيين فتم إلقاء القبض عليها وفتحت أسوار تدمر أمام الجيش الروماني.[٥٥]

لتسقط تدمر عام ٢٧٢ م وتترك فيها حامية مؤلفة من ٦٠٠ عسكري روماني. وما أن قفل أورليان راجعاً نحو روما حتى قامت ثورة في تدمر قضت على الحامية ـ فما كان من أورليان إلا أن عاد إليها حيث قتل الشيوخ والأطفال والنساء وهدمت البيوت والمعابد على رؤوس ساكنيها، حصل ذلك في ربيع عام ٢٧٣ م.

والجدير ذكره هنا هو أنه حين ثارت تدمر على الحامية الرومانية قامت ثورة في مصر تعترف بتدمر مرة ثانية، وهددت روما بالمجاعة لانقطاع طرق الإمداد.[٥٦] بالإضافة إلى ذلك فحين سقوط تدمر أضربت البتراء، وقام سكانها بتدمير المعبد الرئيسي الذي أصبح مركزاً لعبادة الإمبراطور الروماني.[٥٧]

وعام ٢٧٤ م يعود أورليان إلى روما وقد لقّب بأنه «مرجّع العالم» غير أنه في عام ٢٧٥ م يتم اغتياله على يد جماعة من ضباطه. والجدير ذكره هنا هو أنه أمر ببناء معبد لاله الشمس الحمصي في روما إبّان عودته إلى روما [٥٨] ما يؤكد قوة الروح السورية العربية مقابل الخواء الروحي لروما.



مصير زنوبيا:

تضاربت الآراء حول مصير زنوبيا، فمن قائل أنها أسرت في طريقها في طلب الإمدادات من الساسانيين، ومنهم من يقول أنّها انتحرت بالسمّ، وبعض الآراء تذكر أنها أخذت إلى روما حيث شوهدت في موكب النصر للامبراطور أورليان، لا بل أعطت أوصاف المركبات التي رافقت الحفل كمركبة أذينة ومركبة زنوبيا [(٥٩)] إلخ وثمة رأي يقول أنّه أطيح برأسها بعد موكب النصر.

أمّا التاريخ الأوغستي فيذكر أن زنوبيا أنهت حياتها بهدوء كسيدة رومانية حيث تزوجها أحد أعضاء مجلس الروماني وأنجبت أولاداً منه. لكننا ولأننا بدأنا بحثنا هذا بخصائص وروحية الحضارة السورية، فإننا نرى حسب الخط الحضاري التاريخي الاجتماعي لسورية من جهة، ولأن مشروع زنوبيا وممارستها للصراع الحضاري ضد الرومنة، لا يمكن أن يجعل زنوبيا تستسلم للذل ولحياة السكينة بعد دمار مدينتها. وبذا نكون أميّل في رأينا إلى أن زنوبيا أسرت ولكن الذي حصل فيما بعد إمّا أنها أضربت عن الطعام حتى الموت أو تجرّعت السم وهي في طريقها إلى روما.

وأخيراً وللإضاءة على هذا الأمر بشكل آخر وأعمق لا بأس من أن نحلل شخصية ونمط وتفكير زنوبيا وانعكاس ذلك على مصيرها.

اسم زنوبيا التدمري هو «بت زبّاي» أي ابنة العطاء أو العطية، أما زنوبيا فهو اسم يوناني ـ لاتيني أطلق على ملكة تدمر وهو مؤنث زنوبيوس وتعني هذه (قوة زيوس الحيوية) كانت تتكلم المصرية واليونانية، علّمها مستشارها لونجين الآداب اليونانية حيث كان استناداً للفلسفة في أثينا قبل مجيئه إلى تدمر.

قرأت زنوبيا تاريخ روما باليونانية (وهذا على قاعدة أعرف عدوك). وكتبت كتاباً حول تاريخ الشرق ومصر، يقول عنها خصمها أورليان: لو تعلمون أناتها في المجالس، وثباتها في القرارات، وحزمها مع الجنود، وتسامحها عند الضرورة. إن أذينة مدين لها بنصره على الفرس.

أما مواقفها الفكرية فنلاحظ أنه بالإضافة إلى لونجين، ضمت إليها الأسقف بولص السميساطي أسقف أنطاكية. وبعد موت الامبراطور غاليانوس وعودة الأباطرة الالليريين تجمّع أتباع الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ومعظمهم سوريون، أمثال فورفوريوس وكلينيكوس ولونجين وغيرهم في سورية، وكان أملهم أن تكون زنوبيا ملكة تدمر دعماً لهم ويصبح بلاطها مركزهم الفكري. وهذا ما كان، حيث وضع لونجين في البلاط التدمري وأصبح موجهاً لسياسة تدمر.

يقول فيليب حتي: أنه في القرن الثالث للميلاد أصبحت أفامية مركز مدرسة الأفلاطونية الحديثة وتتمتع ببعض الأهمية وقد أسسها أمبيلوس تحت رعاية زنوبيا. [(٦٠)] أمّا اشبنجلر فيقول في كتابه تدهور الحضارة الغربية: إن الأفلاطونية الحديثة تمتّ إلى الحضارة العربية ولا يدخلها في سياق الحضارة اليونانية بينما يلاحظ فرانتس إلتهايم أن معظم أتباع أفلوطين كانوا من أصل سوري. [(٦١)]

فكما كانت الرواقية ذات بعد مشرقي في وجه المتضادات الفلسفية اليونانية كانت الأفلاطونية الحديثة التي تبنّتها زنوبيا تمتلك البعد المشرقي والسوري في القرن الثالث الميلادي الذي شهد أحياء قوياً للهلنستية في نواحي الفلسفة.

وللإيضاح ولفهم خلفية زنوبيا الفكرية فإن الأفلاطونية الحديثة نشأت على يد أفلوطين ٢٠٥ ـ ٢٧٠ م وكان لها فروع في الاسكندرية وسورية وأثيناو ترتكز على أنّ أول شيء انبثق من الواحد هو العقل وهذا العقل له وظيفتان وظيفة التفكير في الله ووظيفة التفكير في نفسه ومن هذا العقل انبثقت نفس العالم التي لها ميلان، ميل علوي نحو الله وميل سفلي نحو الطبيعة.

ويلاحظ أنّ الأخلاق في الأفلاطونية الحديثة هي نفس الأخلاق في الرواقية وكذلك علم ما بعد الطبيعة، ولم يكن ثمة صراع بين المادة والروح بل ثمة صلة. [(٦٢)] وفي هذه الصلة تكمن روح المشرق العربي عبر تاريخه وفي هذا التاريخ المستند على التوازن المادي ـ الروحي، كانت تدمر، وكانت زنوبيا المعبرّ عن جوهر الحضارة السورية العربية.

الهوامش

(١) مجلة البناء اللبنانية ـ العدد ٨٣٧ ـ تاريخ ٢٣/٥/ ١٩٩٢ ـ من حوار أجريناه مع الباحث خالد الأسعد أمين متحف وآثار تدمر.
(٢) د. عدنان البني ـ تدمر والتدمريون ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٨
(٣) جان بابليون ـ امبراطورات سوريات ـ ترجمة: يوسف شلب الشام ـ دار العربي ـ دمشق ١٩٨٧
(٤) اسحق شيفمان ـ المجتمع السوري القديم ـ ت: د حسان اسحاق ـ مؤسسة الوحدة ـ دمشق ١٩٨٧
(٥) المرجع السابق.
(٦) المرجع السابق.
(٧) رينيه دوسو ـ الديانات السورية القديمة ـ ت: موسى الخوري ـ دار الأبجدية ـ دمشق ١٩٩٦
(٨) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٩) خ. تيكسيدور ـ ب. كانيفه ـ الحياة الدينية في سورية قبل الاسلام ـ ت: موسى خوري ـ الأبجدية ـ دمشق ـ ١٩٩٦
(١٠) فرانتس التهايم ـ اله الشمس الحمصي ـ ت: ايرينا داوود ـ العربي ـ دمشق ـ ١٩٩٠
(١١) الحوليات الأثرية السورية ـ مجلد ٤٢ ـ ١٩٩٦ ـ ندوة طريق الحرير ـ تدمر.
(١٢) تيكسيدور ـ مرجع سابق.
(١٣) شيفمان ـ مرجع سابق.
(١٤) الحوليات ـ مرجع سابق.
(١٥) د. علي أبو عساف ـ آثار الممالك القديمة في سورية ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٨
(١٦) الحوليات ـ مرجع سابق.
(١٧) أرنولد توينبي ـ تاريخ البشرية ـ ج١+ج٢ ـ ت: نقولا زيادة ـ دار الأهلية ـ بيروت ـ ١٩٨٢
(١٨) ي. بيكرمان ـ الدولة السلوقية ـ ت: حسان اسحاق ـ الأبجدية ـ ١٩٩٣
(١٩) المرجع السابق.
(٢٠) عدنان البني ـ المرجع السابق.
(٢١) بيكرمان ـ مرجع سابق.
(٢٢) الحوليات ـ مرجع سابق.
(٢٣) البني ـ مرجع سابق.
(٢٤) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٢٥) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٢٦) مجلة البناء ـ مرجع سابق.
(٢٧) الحوليات ـ مرجع سابق.
(٢٨) جيمس بريستد ـ العصور القديمة ـ ت: داوود قربان ـ مؤسسة عز الدين ـ بيروت ـ ١٩٨٣
(٢٩) هورست كلينغل ـ آثار سورية القديمة ـ ت: قاسم طوير ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٥
(٣٠) شيفمان ـ مرجع سابق.





(٣١) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٣٢) عدنان البني ـ أبولودور الدمشقي ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٩٠
(٣٣) المرجع السابق.
(٣٤) الحوليات ـ مرجع سابق.
(٣٥) رينيه دوسو ـ مرجع سابق.
(٣٦) تدمر والتدمريون ـ
(٣٧) الحوليات ـ مرجع سلبق.
(٣٨) الحوليات ـ مرجع سابق.
(٣٩) تدمر والتدمريون.
(٤٠) الحوليات ـ مرجع سابق.
(٤١) جان ستاركي ـ صلاح الدين منجد ـ تدمر ـ مديرية الآثار ـ ١٩٤٧
(٤٢) مجلة البناء اللبنانية ـ العددان ـ ٨٣٥ ـ ٨٣٦ ـ تاريخ: ٥. ٩ ـ ٥. ١٩٩٢/١٦
(٤٣) الحوليات ـ مرجع سابق.
(٤٤) د. نقولا زيادة ـ المسيحية والعرب. دار قدمس ـ دمشق ٢٠٠٠
(٤٥) جان بابليون ـ مرجع سابق.
(٤٦) جيمس بريستد ـ مرجع سابق.
(٤٧) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٤٨) اشبنغلر ـ سقوط الحضارة الغربية ـ ت: أحمد الشيباني ـ دار مكتبة الحياة ـ ج ١.
(٤٩) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٥٠) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٥١) بريستد ـ مرجع سابق.
(٥٢) ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ الحضارة الرومانية ـ ت: محمد بدران ـ جامعة الدول العربية.
(٥٣) فرانتس التهايم ـ مرجع سابق.
(٥٤) مجلة البناء ـ ٨٣٧.
(٥٥) تدمر والتدمريون ـ مرجع سابق.
(٥٦) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٥٧) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٥٨) التهايم ـ مرجع سابق.
(٥٩) شيفمان ـ مرجع سابق.
(٦٠) فيليب حتي ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ ج ١ ـ ت: جبرائيل جبوروكمال يازجي ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٨٢
(٦١) التهايم ـ مرجع سابق.
(٦٢) زكي نجيب محمود وأحمد أمين ـ قصة الفلسفة الحديثة ـ دار المكتبة المصرية ـ ١٩٣٥.

مراجع البحث الأخرى

- هورست كلينغل ـ تاريخ سورية السياسي ـ ت: سيف الدين دياب ـ دار المتنبي ـ دمشق ـ ١٩٩٨
- الفرد هالدر ـ العموريون ـ ت: د. شوقي شعث ـ دار الأبجدية ـ ١٩٩٣ ـ دمشق.
- فيليب حتي ـ خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى. ج ١ ـ الدار المتحدة ـ بيروت ـ ١٩٨٢
- عدنان البني ـ الفن التدمري ـ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ـ دمشق.
- تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ايران والأناضول ـ د. سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي ـ وزارة التعليم ـ العراق.
- روبرت وود ـ أثار تدمر. ت: ابراهيم أسعد. دار المعارف ـ حمص ـ ١٩٩٣
- مجلة دراسات تاريخية ـ عدد ٣٩ـ ١٤٠ ـ ١٩٩١ ـ ملف طريق الحرير.
- عبد الرحمن بدوي ـ ربيع الفكر اليوناني ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٧٩
- جلانفيل داوني ـ أنطاكية القديمة ـ ت: ابراهيم نصحي ـ دار النهضة ـ مصر ـ ١٩٦٧
- كافين رايلي ـ الغرب والعالم ـ ت: عبدالوهاب المسيري وهدى حجازي ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ عدد ٩٠
- مجموعة مقالات في مجلة syria ـ اصدار المعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى ـ ifpo.



News from Palmyra

A new sarcophagus seen from the south east necropolis by the National team in 4.December.2008

عثرت البعثة الوطنية العاملة في تدمر على سرير جنائزي هو الأول من نوعه في تدمر ، وهو يتميز باحتواءه على مشهد يضم رب الأسرة وهو كاهن ذو مرتبة هامة مضطجع على فراش وثير ويحمل صحن التقدمات ويرتدي الزي التدمري المؤلف من سروال مزركش يعلوه قميص فاخر ، وتجلس بجانبه زوجته بوقار مرتدية الثوب الطويل وتلتف بعباءة تغطي رأسها وتبرز من جانبي غطاء الرأس خصلات الشعر الملفوفة ، ويقف على يسار الكاهن خادمه مرتدياً اللباس التقليدي الشائع في تدمر)حاملاً قرن الخصب (بوق الخصب في اليد اليسرى وممسكاً باليمنى صحن أو كأس التقدمات. وتزين هذا المشهد زخارف نباتية على شكل أغصان مورقة وملتفة لم يسبق أن شوهدت بهذا الشكل في المنحوتات المشابهة بتدمر ، وهذه الزخارف النباتية تؤكد على مضمون الخصب والتجدد وبعث الحياة الثانية بعد الموت. كما تحتوي اللوحة على نص كتابي باللغة التدمرية ترجمتها: ملكو ابن تيما ابن حنبل حمطوش وزوجته ربنة .

يذكر بأن البعثة الوطنية قد عثرت على هذا السرير الجنائزي المتميز خلال أعمالها المستمرة في مدفن أرضي يقع في منطقة المدافن الجنوبية الغربية بتدمر ، وعلى الغالب يعود هذا المدفن للقرن الثاني أو الثالث للميلاد. ولا تزال أعمال البعثة الوطنية مستمرة.

▪ المهندس وليد أسعد مدير آثار ومتاحف تدمر



الكتابة المقدسة "الهيروغليفية"



إسراء محمد عبد ربه
عضو هيئة التحرير
كاتبة وباحثة - جمهورية مصر العربية
e-m83@hotmail.com

لم تكن حضارة قدماء المصريين فلتة حضارية في عمر الزمن. لأن حضارتهم كانت منفردة بسماتها الحضارية وإنجازاتها الضخمة وأصالتها. وهذا ما أضفي عليها مصداقية الأصالة بين كل الحضارات. مما جعلها أم حضارات الدنيا بلا منازع. وهذه الحضارة أكثر مكونا وانبهارا وشهرة بين حضارات الأقدمين.

فلقد قامت حضارة قدماء المصريين The Ancient Egyptians Civilization بطول نهر النيل بشمال شرق أفريقيا منذ سنة ٥٠٠٠ ق.م. إلي سنة ٣٠ ق.م.. وهي أطول حضارة استمرارية بالعالم القديم ، ويقصد بالحضارة المصرية القديمة من الناحية الجغرافية تلك الحضارة التي نبعت بالوادي ودلتا النيل حيث كان يعيش المصريون القدماء. ومن الناحية الثقافية تشير كلمة الحضارة للغتهم وعباداتهم وعاداتهم وتنظيمهم لحياتهم وإدارة شئونهم الحياتية والإدارية ومفهومهم للطبيعة من حولهم وتعاملهم مع الشعوب المجاورة.

ولقد عني المصري القديم بتسجيل كل شيء كتابة من أصغر حدث إلي أعظم ما يمر به ، بداية من طريقة معيشته مروراً بمشاكله والأفكار التي تشغله.كما دون بعض النصوص الأدبية لكنها لم تصل إلينا كاملة أما النصوص الدينية التي كانت منتشرة في المقابر ، فهي أكمل شيء وصل إلينا. وبسبب ذلك اهتم المصري بالكتابة اهتماما شديداً وعمل على تطويرها لتناسب احتياجاته وظروفه. ومرت الكتابة بأطوار رئيسية خمسة هي:

١- الطور الصورى - عندما كانت ترسم المادة عينا فإذا أراد إنسان أن يرسل رسالة يقول فيها انه ذاهب إلى صيد السمك فانه يرسم صورة رجل بيده قصبة في رأسها شخص متجه نحو بحيرة سمك.

٢- الطور الرمزي - وهو الطور الذي استنبط فيه الإنسان صوراً ترمز إلى المعنى فمثلا صورة الشمس للتعبير عن الضياء.

٣- الطور المقطعي - وهو بداية الكتابة بالفعل حيث أصبحت الصورة لا علاقة لها بهجاء الكلمة كما في الكتابة المصرية والبابلية وهي الصورة وأصواتها - مثلا إذا أراد أن يكتب كلمة تبدأ بالمقطع يد كما في يهس أو يدخر فانه يرسم صورة يد ويعتبرها مقطع هجائى لا يراد بها الكف نفسه.

٤- الطور الصوتى وفيه لجأ الكاتب إلى استخدام الصورة للتعبير عن الحرف الأول وكرمز للهجاء الأول من اسم الصورة أي أن صورة الكلب ترمز إلى حرف الكاف وصورة الغزال ترمز إلى حرف الغين على نحو ما يقرأه الصغار في دروس القراءة.

٥- الطور الهجائى - وذلك عندما اشتدت حاجة البشرية إلى التقدم في الكتابة تم اختراع العلامات وذلك في حدود ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد حيث نشأت الكتابة الهيروغليفية في مصر والمسمارية في العراق.

وتعتبر اللغة المصرية القديمة من أقدم كتابات البشر المعروفة ، فقد نشأت نشأة محلية أصيلة واستمدت علاماتها الهيروغليفية من الحيوانات والنباتات وبعض الأواني والأدوات المستخدمة منذ العصر الأدنى للحضارات النحاسية الحجرية ، مما يدل على أنها نتاج للحضارة المصرية التي نشأة على ضفاف النيل دون غيرها ،وهذه الكتابة وصلت في ثلاث صور:

الأولى: الهيروغليفية وهى مدونة على الأنصاب والعمائر
والثانية :الهيراطيقية وهى كتابة مختصرة استخدمت في غالبية النصوص الأدبية والإدارية والقانونية
والثالثة : وهى الديموطيقية وهى اختصار للهيراطيقية والتطور الذي طرا على علاماتها بلغ حد يصعب معه التعرف على النماذج الهيروغليفية الأصلية واستخدمت في تدوين الوثائق القانونية الهامة.

ولقد عرفت اللغة المصرية القديمة من نصوص تغطي فترة نحو أربعة آلاف عام ؛ من حوالي ٣٠٠٠ ق.م ، وحتى أواخر الألفية الميلادية الأولى: عندما حلت اللغة العربية محلها ، كلغة تحدُث.

الكتابة الهيروغليفية

طالما اختلف العلماء حول الأسبقية التاريخية للكتابة الهيروغليفية والمسمارية ، وطالما اتفق الكثير منهم على النشأة الزمنية الواحدة لهما.. لكن الاكتشاف الأخير الذي قام به الدكتور الألماني دراير النائب في المعهد الاثري الالماني بالقاهرة والذي تمثل في العثور على نصوص تعتبر أصل الكتابة الهيروغليفية يؤكد على أن الهيروغليفية هي أقدم الكتابات في العالم ذلك لان النصوص التي تم اكتشافها تم استخدامها قبل الهيروغليفية بعدة قرون..

ويؤكد الباحثون وعلماء المصريات أن الهيروغليفية هي أصل لغات العالم كله ماعدا أبجديات شرق أسيا ، حيث انتقلت الهيروغليفية إلى الفينيقيين والآراميين والأنباط عبر سيناء ومن خلال الأبجدية السينائية التي قام عمال مناجم الفيروز بتطويرها وتبسيطها عن الهيروغليفية ويقول عالم المصريات "سير آلان جاردنر" إن كتابة اللغة المصرية القديمة ظلت قائمة على أساس الصورة في كافة حقب التاريخ المصري القديم.

كلمة هيروغليفية تعني "نقش مقدس" (من الإغريقية ἱερογλύφος) فقد أشتقت كلمة (هيروغليفي) من الكلمتين اليونانيتين (هيروس) (Hieros) و (جليفوس) (Glyphos) وتعنيان الكتابة المقدسة.

وتعتبر الهيروغليفية شكل من أشكال الكتابة التي تستخدم فيها الرموز التصويرية ؛ لتمثل أفكاراً وأصواتاً معينة ، وتدل الهيروغليفية- في الأعم الأغلب- على الكتابة المستخدمة في مصر القديمة لتسجيل اللغة المصرية. وهي أولى الخطوط التي كتب بها المصري القديم لغته ، وأخذت الهيروغليفية صورها من الصور الشائعة في البيئة المصرية. وكانت تضم الأعداد والأسماء وبعض السلع.

وتمثل كل علامة هيروغليفية شيئا واقعيا له وجود فعلي في الحياة اليومية المصرية القديمة: مثل النباتات وأجزاء الجسد والأشكال الهندسية والطيور. وقد تستخدم تلك العلامات لكتابة الكلمة ، أو الشكل (فتسمى إيديوجرام) أو لكي تعطي نطق الكلمة ، أو الصوت (فتسمى فونوجرام).

وكانت تستخدم الهيروغليفية للكتابة على جدران الأماكن المقدسة مثل المعابد والمقابر ، حيث تعني النصوص الهيروغليفية بكافة الأمور التي يراد لها أن تبقى مكتوبة إلى الأبد. كما أن الكتابة المنقوشة كانت تتم على الأحجار بأسلوبي النقش البارز أو الغائر على الجدران الثابتة وعلى الآثار المنقولة مثل التماثيل واللوحات والصلايات ، فكانت تعد في آن واحد تسجيلا و فنا زخرفيا جميلا.

وضمت الكتابة الهيروغليفية في آخر الأمر حوالي ٧٠٠ رمز.

ولتلك الرموز خاصية الأناقة والوضوح اللذان يعتبران نموذجاً للفن المصري القديم. وتتكون الكتابة الهيروغليفية من مجموعة من النقوش المستمدة من الحياة اليومية فهي كتابة تصويرية بالإضافة لوجود حروف أبجدية وإن كانت أكثر تعقيدا من الأبجدية المعروفة الآن في اللغات المنتشرة فالأبجدية في الهيروغليفية تنقسم لثلاثة مجموعات..

- المجموعة الأولى: هي الرموز الأحادي ، أي الحروف أحادية الصوت مثل الحروف المعتادة اليوم.
- المجموعة الثانية: الرموز الثنائية الصوت ، وهي رمز أو نقش واحد ولكن ينطق بحرفين معا.
- المجموعة الثالثة: الرموز ثلاثية الصوت ، وهي نقش أو رمز واحد ولكن يعني ثلاثة.



وذلك بالإضافة لمجموعة من العلامات الأخرى والتي لا تنطق نهائيا وإنما هي من أجل أغراض نحوية مثل تحديد المثنى والجمع والمذكر والمؤنث وبعض الرموز المؤكدة للمعنى والتي تعرف بالمخصصات. فالكتابة المصرية تحمل علامات تصويرية واخرى صوتية على غرار الحروف الهجائية :

١ــ العلامات الصوتية وكل علامة تمثل صوتا واحدا ولا يوجد تمثيل لمعظم الحروف اللينة.

٢ــ العلامات المقطعية وتمثل اثنين أو ثلاث حروف ساكنة وهى كثيرة تبلغ عدة مئات يلحق بها دائما علامة أو اثنين أو ثلاث هجائية للتعزيز وتسهيل القراءة.

٣ــ علامات تصويرية تصور كلمات وذلك باستخدام صور الأشياء تتبعها علامة قائمة وذلك للدلالة على أن الكلمة اكتملت في علامة واحدة وتفسيرها التفسير الصحيح.

٤ــ علامات تحديدية وهى عبارة عن صورة شيء يساعد القارئ على فهم المعنى للدلالة على أن معنى هذه الكلمة يمكن التعبير عنها بشكل تصويري ولكن ليس مباشر وذلك عكس العلامات التصويرية.

وكانت الهيروغليفية تكتب من اليمين إلي اليسار أو العكس أحياناً أو من أعلى إلي أسفل ويمكن تمييز طريقة الكتابة من خلال أشكال الإنسان والحيوان والتي تتجه بوجهها ناحية بداية السطر ، أما الهيراطيقية والديموطيقية كانتا تكتبان من اليمين إلي اليسار دائماً. ويمكن أن يقرأ النص الهيروغليفي في اتجاهين مختلفين ، إما في أسطر رأسية أو أفقية ؛ من اليمين إلى اليسار أو العكس ، خاصة عندما يسهم الأخير في تحقيق التماثل مع نص آخر ؛ فيُقرأ الاثنان باتجاه المحور الأوسط للنُّصب أو الأثر: كما هو الحال مع الباب الوهمي للمدعو



"إيكا". ولا تتوفر هذه الخصائص أبدا في الكتابة الهيراطيقية والديموطيقية للنصوص. وكانت الهيروغليفية المختصرة والجارية (المتصلة) قليلا تكتب بالحبر، وفي العادة من اليمين إلى اليسار، مثلا: "كتاب أمديوات" و"كتاب الموتى". وتوجد آخر النصوص التي كتبت بالهيروغليفية بجزيرة فيلا، وترجع إلى القرن الرابع الميلادي.

أما بالنسبة إلى قواعدها فتتميز بان موضع كل كلمة من كلماتها له ترتيبه الصارم الذي لا يحيد عنه فتتعاقب الكلمات على النحو التالي (الفعل فالفاعل ثم المفعول المباشر واخيرا المفاعيل غير المباشرة) وحالات الإعراب كما عرفتها اليونانية واللاتينية لا وجود لها في المصرية إذ أنها تنفرد بمشكلة خاصة بها وهى افتقارها إلى أدوات العطف والوصل مما يؤدى إلى صعوبة في تحديد الرباط الذي يربط الجملة بما يسبقها او يليها. وعندما أصبحت الكتابة أكثر شيوعاً، نشأت الحاجة لمادة أفضل من الحجر، من حيث سهولة الكتابة عليها، وحفظها، ونقلها، ولهذا الغرض اخترع المصريون ورق البردي، حيث كان النساخون يكتبون على ورق البردي بأقلام مصنوعة من قصب حاد، كما كانت هناك أقلام ذات رأس معدني، واستخدم السّخام المخلوط بالماء حبراً. والطريقة التي استخدمت لصنع ورق البردي من سيقانه هي:

١. تقطع سيقان البردي الطويلة إلي أجزاء أصغر طول ٣٠ سم ثم ينزع منها القشر.
٢. يقطع اللب الناتج طولياً إلي شرائح رقيقة ترص متجاورة.
٣. ترص فوق الطبقة السفلية طبقة أخرى من الشرائح بنفس الطريقة حيث تكون متعامدة عليها.
٤. تكبس الطبقتان معاً أو تقريان حتى تلتحما.

ولم يستخدم المصري القديم أي مواد لاصقة سوى العصارة الناتجة من عملية الضرب أو الكبس وهي عصارة طبيعية تحتوي على النشا. كما استخدم المصري مواد كتابية أخرى غير الورق منها رقائق الحجر الجيري الأبيض وكسر الأواني الفخارية واستخدموا أيضاً ألواح الخشب بعد كسوها بالجص. ومثل هذه الأدوات كانت مخصصة لأغراض مؤقتة مثل التمارين المدرسية أو المسودات أو المعاملات الغابرة أو الخطابات أو سجل حضور العاملين. بالإضافة إلى استخدامهم أيضاً الجلد المكسو وفي العصر المتأخر استخدم في التدوين العاج والطين والكتان وحتى البرونز.

و قد كانت لوحة الكاتب الحجرية أبعادها من ٢٠- ٤٣ سم طول و٥-٨ سم عرض و٥١٠ سمك، وعند إحدى حافات اللوحة يوجد تجويفان أو أكثر لوضع الألوان حيث يوضع اللون الأحمر في التجويف الأول واللون الأسود في التجويف الثاني وأي لون آخر في أي تجويف آخر أما الألوان فكانت على صورة أقراص جافة، اللون الأسود كان مصدره الكاربون واللون الأحمر مصدره منطقة المغارة الحمراء وكانوا يعدون أقراص الألوان عن طريق هي خلط الصبغة بمحلول صمغي مخفف فيتخثر المداد عند الجفاف. أما إذا أراد إذابة المداد مرة أخرى يكفيه غمس الفرشاة في الماء و تمريرها فوق سطح القرص (مثل الألوان المائية). وكانت الفرشاة تصنع من سيقان البوص بقطع طولها من ١٥- ٢٥ سم ويشطف طرفها شطفاً مائلاً ثم يهرس السن بفصل الألياف عن بعضها وأحياناً كانت أقلام البوص تستخدم مثل الريشة، ويتم ذلك عن طريق شق السن من الوسط. بدلا من هرسه بعد الشطف.

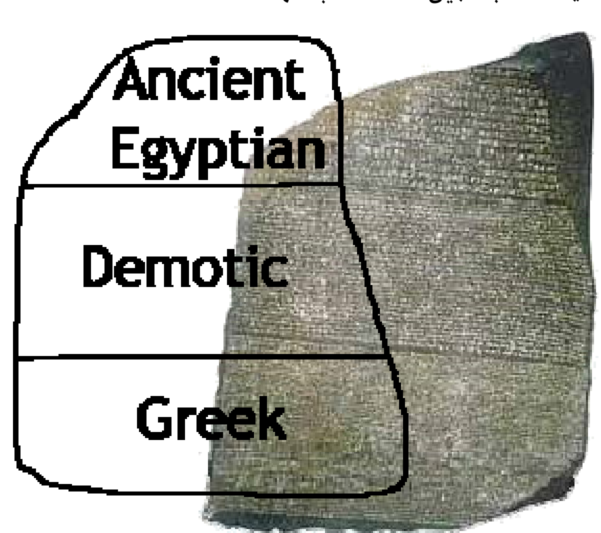
فك رموز الكتابة الهيروغليفية

تعود المحاولات الأولى لفك طلاسم الكتابة الهيروغليفية إلى الإغريق. وقد ساد الاعتقاد لديهم أن الرموز الهيروغليفية هي رموز صورية من كتابات الإغريق، وعن هذا الموضوع وصلتنا مخطوطة واحدة هي "الهيروغليفية" لمؤلفها هورابولون Hieroglyphica of Horapollon.

ففي أوروبا خلال العصور الوسطى لم يكن هنالك اهتمام بالهيروغليفية إلا أنه عام ١٤٢٢ وصلت مخطوطة هورابولون إلى البندقية مما أثار الاهتمام بها حتى أن بعض فناني عصر النهضة قاموا برسم رموز متخيلة بناء لأوصاف هورابولون واستعملوها في رسومهم كعناصر فنية. وقد قامت عدة محاولات لكشف طلاسم الهيروغليفيه قبل اكتشاف حجر رشيد في العصر الحديث، منها محاولات الأب كرشر اليسوعي الذي عرف أن القبطية ما هى إلا لهجة أو لغة منحدرة من المصرية القديمة.

وبعد أن أسدل التاريخ الستار عن الحضارة المصرية القديمة ونسي العالم اللغة الهيروغليفية وكل ما يتعلق بقراءتها وكتابتها حدث أعظم كشف في علم المصريات في أغسطس سنة ١٧٩٩ (وذلك أثناء حفر الأساسات لتقوية قلعة سميت بعد ذلك بقلعة جوليان البريطانية في رشيد) عثر أحد العسكريين البريطانيين ويدعى بيير فرانسوا كسافييه بوشار (١٧٧٢-١٨٣٢) على الحجر الذي نسميه الآن حجر رشيد وعندما عرض هذا الحجر على المتخصصين في بريطانيا أدركوا أهميته حيث وجدوا فيه نصاً هيروغليفياً تم ترجمة يونانية يمكن قراءتها.

وقد احتوى هذا اللوح الحجري، على نقش مكتوب بثلاثة خطوط: الخط الهيروغليفي المصري، والخط الديموطي المصري، والخط الإغريقي. ولمدة ٢٠ عاماً من وصول الحجر لبريطانيا عكف الدارسون في محاولة لفك الرموز. و بالفعل حدث أول نجاح عام ١٨٢٠م على يد أحد الدبلوماسيين السويديين يسمى" توماس اكربال " الذي تمكن من التعرف على عدد من الأسماء مثل: بطليموس وذلك بمقارنة النص الاغريقي بالنص الديموطيقي، وبقراءة الجزء الإغريقي في الحجر، عرف أن النص احتوى على مرسوم صادر في عام ١٩٦ ق.م تشريفاً للملك بطليموس الخامس ومسجل عليه محضر تنصيب الكهنة الملك بطليموس الخامس والاعتراف به ملكا على البلاد، وقد قام الكهنة في مدينة منف بتسجيل هذه المناسبة الهامة.



وبعده في ١٨١٤م ، اكتشف توماس يونج ، وهو طبيب وباحث إنجليزي أن العلامات والرموز الهيروغليفية المكتوبة داخل الإطار البيضاوي (الخرطوش) هي أسماء الملوك ، ولكنه اخطأ الخصائص الصوتية لهذه الرموز .

وفي عام ١٨٢٢ حقق عالم فرنسي أسمه جان فرنسوا شامبليون ، إنجازاً مفاجئاً لفك رموز الكتابة الهيروغليفية في حجر رشيد ، فبدراسته لموقع أسماء الأعلام وتكرارها في النص الهيروغليفية تمكن من معرفة الأسماء نفسها وتمييزها في النص المصري. بالإضافة إلى ذلك ، ساعدت معرفة شامبليون بالقبطية ، وهي لغة مصرية حديثة ، على تمكينه من التعرف على كثير من الكلمات المصرية القديمة ، في القسم الهيروغليفي من النص فنجح في التوصل إلي بعض قواعد نقش الهيروغليفية ، ثم بحث عما ترجمه إلى القبطية في النص الهيروغليفي للاهتداء إلي الكلمات الهيروغليفية المقابلة لمثيلاتها في القبطية ولكنه وجد صعوبة شديدة لأن النص الهيروغليفي كتب حسب العادة المتبعة بدون فواصل بين الكلمات وبعد تمكنه من حل كثير من الرموز استخدم الأسلوب العكسي ليترجم من الهيروغليفية إلي القبطية ما استطاع تمييزه منها ليعرف معناها ، ولكن هذه الطريقة لها محاذيرها حيث أن الكلمات الهيروغليفية التي دخلت إلي اللغة القبطية عددها قليل جداً بالنسبة لمجمل الكلمات الهيروغليفية وأيضاً بسبب تطور الكلمات القبطية بحيث يصعب معرفة أصولها . لذا فقد استخدم بعد ذلك الاستنباط عن طريق الوصول إلي المعنى من ورود الكلمة في أكثر من سياق. وفي آخر الأمر فك شامبليون رموز النص كاملاً ، وبذلك أمكن الكشف عن كثير من معان اللغة المصرية القديمة.

إلا أنه عام ٢٠٠٤ كشف عالم المصريات عكاشة الدالي أن أول من اكتشف أن الرموز هي عبارة عن رموز صوتية أي حرف هو العالم العربي ابن وحشية وكان ذلك في مؤلفه شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام الذي درس فيه ٨٩ لغة و نظام كتابة قديمة منها الهيروغليفية وقام بتحليل العديد من رموزها الذي وضعه سنة ٨٦١م ، وقد حقق المستشرق النمساوي جوزف همر تلك المخطوطة وترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها في لندن عام ١٨٠٦ أي ١٦ عاما قبل اكتشاف شامبليون ، و نشر خبر ذلك في عدة وسائل إعلام غربية. كما أن الباحث السوريّ يحيى مير علم توصل إلى ذات النتيجة وذهب البعض إلى القول أن شامبليون كان قد اطلع تلك هذه المخطوطة إلا انه لا توجد لدينا دلائل تؤكد أو تدحض هذا الادعاء.

كتابات هيروغليفية أخرى

تعود أقدم الأمثلة على الكتابة الهيروغليفية المايانية في أمريكا الوسطى ، إلى نحو عام ٣٠٠م. وكانت حروف هذه الكتابة تتألف من رموز تعتبر تمثيلاً حرفياً للأفكار ، إلا أن بعض الباحثين يعتقدون أن عدداً من الإشارات تمثل أصواتاً ، ولم يتم حتى الآن فك رموز معظم الحروف الهيروغليفية المايانية. وتتناول النصوص التي تمكن الباحثون من فك رموزها أموراً ، تتعلق بالدين ، والفلك ، وتسجيل الوقت.

وكانت الحروف الهيروغليفية الأزتكية تتألف من صور تمثل أفكاراً ، ولها أيضاً قيمة صوتية. لقد دمجت الأزتكية رموز أشياء متعددة ، لتكوين صوت ، أو اسم لشيء ، أو فكرة مجردة ، لم يتم تمثيلها بصورة. وتشبه تلك الرموز الكتابة الحديثة التي تستخدم فيها (الكتابة عن كلمة أو عبارة برسم يذكر المرء بها أو بمقطع منها) واستحدث الحيثيون أيضاً ، نظام كتابة هيروغليفياً نحو عام ١٥٠٠ق.م.

وقد مثلت بعض الرموز الحيثية كلمات بينما مثل الرموز الأخرى مقاطع صوتية.

أخيراً ؛ إن اللغة المصرية القديمة لها شخصيتها المتميزة النابعة من شخصية الإنسان المصري وتراب أرضه ، ولكنها ككل لغة وكان ولابد وأن يحدث التقارب والتفاعل بينها وبين لغات أخرى للشعوب المجاورة ، ولا يعيب هذه اللغة أو تلك أن تأخذ من غيرها ما يمكن أن يثريها ويحقق لها التكامل طالما احتفظت بخصائصها الأصلية.

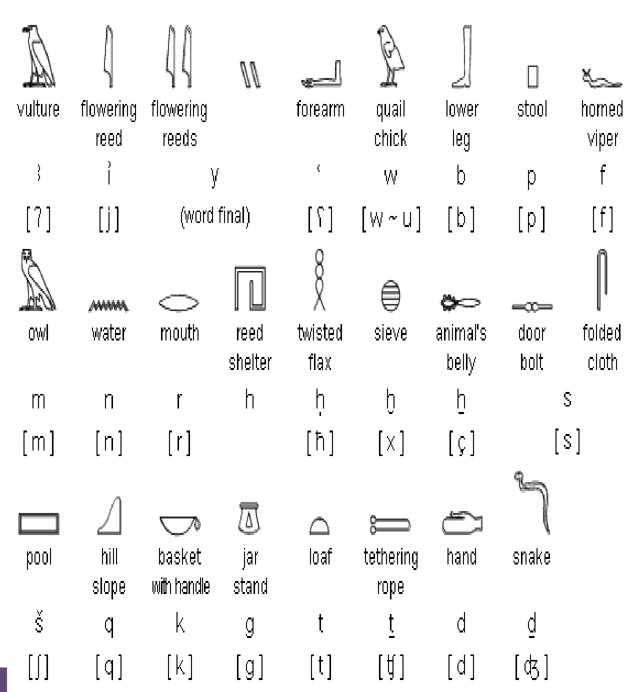
ولأن اللغة المصرية القديمة تذكر لا بد وأن تذكر معها الكتابة الهيروغليفية كأقدم كتاباتها وأطولها عمراً وأكثرها وضوحاً وخلوداً ، فهي كتابة العلامات الكاملة والمنشآت الضخمة كالمعابد والمقابر.

المراجع والمواقع الإلكترونية العربية

- عبد الحليم نور الدين ، اللغة المصرية القديمة ، الخليج العربي للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٩٨.
- محمد حماد ، تعلم الهيروغليفية :لغة مصر القديمة وأصول الخطوط العالمية.
- موسوعة حضارة العالم/ أنشأها أحمد محمد عوف .- الناشر ويكي الكتب .- الجزء الثالث: حضارة عربية (/http://ar.wikibooks.org/wiki)
- http://saidhabeeb.com
- http://www.toutankharton.com
- http://www.moqatel.com

المراجع الإنجليزية

- Egyptian Grammar, Being an introduction to the study of Hieroglyphs, By, Alan Gardiner, Third Edition 1957





حسن سالم
عضو هيئة التحرير
جامعة الدول العربية -الجمهورية اليمنية
hassan_ali_44@hotmail.com

كان الحجاج بن يوسف الثقفي يستحم بالخليج فاشرف على الغرق فانقذه أحد المسلمين وعندما حمله إلى البر قال له الحجاج :أطلب ما تشاء فطلبك مجاب ، فقال الرجل :ومن أنت حتى تجيب لي أي طلب ؟ قال: أنا الحجاج الثقفي ، قال له : طلبي الوحيد أنني سألتك بالله أن لا تخبر أحداً أنني أنقذتك

وذات يوم أعد الحجاج مائدة في يوم عيد فكان من بين الجالسين أعرابي فأراد الحجاج أن يتلاطف معه فانتظر حتى شمر الناس للأكل و قال :من أكل من هذا ضربت عنقه. فظل الأعرابي ينظر للحجاج مرة وللطعام مرة أخرى ثم قال : أوصيك بأولادي خيرا... وظل يأكل فضحك الحجاج و أمر بان يكافأ.



ورد في كتاب قصص وحكايات من اليمن أن العلامة الموسوعي شيخ العروبة أحمد زكي باشا أراد أن يزور اليمن في عهد الإمام يحيى حميد الدين ، فلما وصل إلى الحديدة أحضروه إلى صنعاء على بغلة ، وخافوا أن يحملوه على السيّارة ؛ خوفاً من حوادث الطريق ، وهو في الطريق بين الحديدة وصنعاء ، كان لا يرى حوله إلا الجبال الشامخة المرتفعة التي لم ير مثلها ، فلما وصل إلى الإمام يحيى ، قال له أهلاً وسهلاً ، فقال شيخ العروبة: قل أهلاً وجبلاً .. أين السّهل عندكم ؟!!



كشفت وثائق تاريخ الري المصري القديم في متحف الثورة الذي اقامته ثورة يوليو في منطقة القناطر الخيرية عام١٩٥٧ أن محمد علي أصدر أمرا إلي المهندس الفرنسي لينان بهدم الهرم الأكبر ، واستخدام أحجاره الضخمة لبناء قناطر جديدة عند رأس دلتا النيل في منطقة شلقان ، التي أصبحت فيما بعد القناطر الخيرية. وتشير الوثائق إلي أن المهندس الفرنسي حاول إثناء محمد علي عن قراره علي أساس أن كميات أحجار الهرم الأكبر ستزيد أربعة أمثال المطلوب لبناء القناطر الجديدة ، وأن أحجار الهرم الأصغر "منقرع" لا تكفي للتشييد ، وطلب المهندس لينان المساعدة من قنصل فرنسا العام في مصر ، الذي انحاز بشدة لجهود حماية الهرم.

لكن ما دفع محمد علي إلي التخلي عن إصراره لم يكن إلا فكرة وجود بديل آخر يمكن أن يوفر ٢٠ مليما. فقد ذكر لينان للوالي أن تكلفة نقل المتر الواحد من أحجار الهرم عشرة قروش ، أي مائة مليم ، وأن تكلفة نقلها من محاجر قريبة من منطقة شلقان تبلغ ثمانية قروش ، أي ثمانين مليما ، وهنا فقط تراجع والي مصر عن قرار هدم الهرم الأكبر. والدليل على ذلك أن الحوار الذي دار بين الوالي محمد علي ، والمهندس الفرنسي مسجل في وثائق تاريخ الري المصري.



عصمت إينونو
١٨٨٤-١٩٧٣

عندما دخل الاتراك اليمن كان من ضمن ولاتهم على اليمن أحمد عزت باشا وكان سكرتيره هو عصمت اينونو ، وفي أحد الأيام مرّ احمد عزت باشا وياوره بالسيارة في أحد شوارع صنعاء ، وكان أحد سكان صنعاء قد وضع بعض الملابس في الشمس فوق سطح البيت وثبتها بحجر ، فهبت ريح شديدة أثناء مرورهما ، فوقع الحجر على السيارة وحطم سقفها ، وقال بعض أهالي صنعاء أن الوالي مات ، ونجّم رجل تركي يدعى رجب أفندي ، وقال الوالي لم يمت ، وقالوا: والياور ؟ فضرب الرمل وقال سيكون سلطاناً. . فتعجب الناس ، فأعاد ضرب الرمل ، فخرج — بزعمه — أنه سلطان.

تلك القصة وقعت في صنعاء عام ١٣٢٩هـ، ومرت سنوات طويلة سقطت فيها الخلافة العثمانية ، وتولى الحكم في تركيا أتاتورك ، وكان نائبه عصمت إينونو ، وكان أحد احفاد العمري يستمع لإحدى الإذاعات ، فسمعهم يذيعون خبر تولّي عصمت رئاسة الجمهورية التركية ، وذكروا في ترجمته —في الإذاعة—أنه عمل في اليمن ، فاستغرب وسأل جدَّهُ المولى حسين العمري ، فقال: نعم ، وحكى له هذه القصة.

فتح القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح ١٤٥٣م



عمـــــاد البحراني

عضو هيئة التحرير

كاتب وباحث- سلطنة عمان

imad-80@hotmail.com

The Conquest of Constantinople During the Era of Sultan Mohammed El-Fateh



لقد انتظر المسلمون أكثر من ثمانية قرون حتى تحققت البشارة النبوية بفتح مدينة القسطنطينية ، حيث قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش ".

وقد حاصر المسلمين القسطنطينية إحدى عشرة مرة قبل المرة الأخيرة التي تم فيها فتحها ، منها سبعة في القرنين الأولين للإسلام. لكن المدينة المحصنة ظلت صامدة أمام هذه المحاولات المتعددة التي قام بها المسلمون. ثم تجدد الأمل في فتح القسطنطينية في مطلع عهود العثمانيين ،فحاصرها كل من السلطان بايزيد الأول ومراد الثاني ، ولكن لم تكلل جهودهما بالنجاح ، حتى شاء الله أن يكون السلطان محمد الثاني فاتح المدينة العتيدة ، وبحظى بشرف تحقيق بشارة المصطفى ﷺ

وقد ارتأيت أن يكون موضوع بحثي عن فتح القسطنطينية وذلك بسبب أهمية هذا الحدث التاريخي والذي يعتبر أهم أحداث القرن ١٥ م ،كما يعتبره معظم المؤرخون نهاية للعصور الوسطى وبداية للعصر الحديث في أوروبا بالإضافة إلى أنه أدى إلى سقوط إمبراطورية عريقة استمرت لعدة قرون وهي "الإمبراطورية البيزنطية".

ويتضمن البحث النقاط التالية :

١. نبذة عن مدينة القسطنطينية .
٢. محاولات المسلمين فتح القسطنطينية قبل عام ١٤٥٣م.
٣. مقدمات فتح القسطنطينية .
٤. محمد الفاتح والتجهيز للفتح.
٥. حصار القسطنطينية .
٦. مجريات الحرب وفتح المدينة.
٧. نتائج فتح القسطنطينية.

نبذة عن مدينة القسطنطينية

أسس مدينة القسطنطينية الإمبراطور الروماني قسطنطين الأكبر وهو الذي اختارها لتكون عاصمة للدولة الرومانية وليصعب الدنو منها كما يسهل الدفاع عنها. وقد عاشت القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية حوالي ألف عام كانت فيه مركزا للثقافة ورمزا للحضارة فقد امتلأت القسطنطينية بالميادين الواسعة وبواباتها وكنائسها وملاعبها وحماماتها وحصونها المنيعة ومعاقلها المشيدة وطالما وقفت عقبة دون الغازين من مختلف أجناس الأرض.

بلغ عدد سكان هذه المدينة المسيحية المليون واجتمع فيها الإغريق أهل البلاد الأصليين والأسيويين والروس والبلغار والأوروبيين الصقالبة والتجار منم مسلمين ومسيحيين ومن مختلف أنحاء أوروبا كلها.[١]

محاولات المسلمين فتح القسطنطينية

بدأت المحاولات الجادة في عهد معاوية بن أبي سفيان وبلغ من إصراره على فتح القسطنطينية أن بعث بحملتين الأولى سنة ٤٩ هـ ٦٦٦ م ، والأخرى كانت طلائعها في سنة ٥٤ هـ= ٦٧٣م ، وظلت سبع سنوات وهي تقوم بعمليات حربية ضد أساطيل الروم في مياه القسطنطينية ، لكنها لم تتمكن من فتح المدينة العتيدة ، وكان صمود المدينة يزيد المسلمين رغبة وتصميما في معاودة الفتح ؛ فنهض "سليمان بن عبد الملك" بحملة جديدة سنة (٩٩ هـ= ٧١٩م) ادخر لها زهرة جنده وخيرة فرسانه ، وزودهم بأمضى الأسلحة وأشدها فتكا لكن المدينة بقيت منيعة امام المسلمين ، وفي عهد مسلمة بن عبدالملك عاجم المسلمون القسطنطينية فلجأ الامبراطولر البيزنطي ليو الثالث الى عقد حلف مع البلغار فهزم المسلمين برا وبحرا.

وقد توقفت الحملات بعد موت مسلمة بن عبد الملك حيث ظهرت الخلافات في الدولة الأموية وشغل المسلمون بشؤونهم الداخلية ثم انصرف المسلمون بعد قيام الدولة العباسية عن محاولاتهم في الحرب ضد البيزنطيين الى حين ثم ظهر الأتراك العثمانيين وحاصر العثمانيون في عهد بايزيد الأول القسطنطينية ثم اضطر بايزيد لدفع الحصار عنها حين ظهر الخطر المغولي ثم جاء مراد الثاني فحاصرها ولم يتمكن من النيل منها لضعف الاسطول العثماني كقوة مهاجمة فتركها حتى جاء الفتح على يد السلطان محمد الثاني سنة ١٤٥٣م.[٢]

مقدمات فتح القسطنطينية

أدرك السلطان محمد الفاتح أن وجود دويلة تجارية يونانية على شكل جيب في داخل الامبراطورية العثمانية أمر لا يتمشى مع حقائق العصر فوجودها حتى وان كان أقل مما كان عليه في السابق ، يعرقل المواصلات وعمليات نقل القوات ، ومن ناحية أخرى فان الاستيلاء على عاصمة الامبراطورية الرومانية القديمة ومن ثم تحويل الدولة العثمانية الى امبراطورية ذات توجه عالمي كان حلما يراود الباب العالي منذ زمن بايزيد الأول.[٣]

محمد الفاتح

أراد السلطان محمد الفاتح أن يحصن مضيق البوسفور حتى لا يأتي لها مدد من مملكة طرابزون وذلك بأن يقيم قلعة على شاطئ المضيق من جهة أوروبا تكون مقابلة للحصن الذي أنشأه السلطان بايزيد الأول على ضفة البوسفور الآسيوية في أثناء حصاره للقسطنطينية حصنا تجاه أسوارها عُرف باسم قلعة الأناضول ، وكانت تقوم على أضيق نقطة من مضيق البوسفور ، وقد جلب السلطان محمد الفاتح لهذه القلعة مواد البناء وآلاف العمال ، واشترك هو بنفسه مع رجال دولته في أعمال البناء ، وهو ما ألهب القلوب وأشعل الحمية في النفوس ، وبدأ البناء في الارتفاع شامخ الرأس في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور قسطنطين لا يملك وقف هذا البناء ، واكتفى بالنظر حزنا وهو يرى أن الخطر الداهم سيحدق به دون أن يملك مندفعه شيئا.





ولم تمض ثلاثة شهور حتى تم بناء القلعة على هيئة مثلث سميك الجدران ، في كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص ، وأمر السلطان بأن ينصب على الشاطئ مجانيق ومدافع ضخمة ، وأن تصوب أفواهها إلى الشاطئ ، لكي تمنع السفن الرومية والأوروبية من المرور في بوغاز البوسفور ، وقد عرفت هذه القلعة باسم "روملي حصار" ، أي قلعة الروم.توسل الإمبراطور قسطنطين إلى محمد الفاتح بالعدول عن إتمام القلعة التي تشكل خطرًا عليه ، لكنه أبي ومضى في بنائه ، وبدأ البيزنطيون يحاولون هدم القلعة والإغارة على عمال البناء ، وتطورت الأحداث في مناوشات ، ثم لم يلبث أن أعلن السلطان العثماني الحرب رسميا على الدولة البيزنطية ، وما كان من الإمبراطور الرومي إلا أن أغلق أبواب مدينته الحصينة ، واعتقل جميع العثمانيين الموجودين داخل المدينة ، وبعث إلى السلطان محمد رسالة يخبره أنه سيدافع عن المدينة لآخر قطرة من دمه.

وأخذ الفريقان يتأهب كل منهما للقاء المرتقب في أثناء ذلك بدأ الإمبراطور قسطنطين في تحصين المدينة وإصلاح أسوارها المتهدمة وإعداد وسائل الدفاع الممكنة ، وتجميع المؤن والغلال ، وبدأت تردد على المدينة بعض النجدات خففت من روح الفزع التي سيطرت على الأفئدة ، وتسربت بعض السفن تحمل المؤن والغذاء ، فقداستنجد الإمبراطور قسطنطين بأهل جنوة فأرسلوا له عمارة بحرية تحت إمرة جستنياني ، والذي نجح مع ٧٠٠ مقاتل محملين بالمؤن والذخائر في الوصول إلى المدينة المحاصرة ؛ فاستقبله الإمبراطور قسطنطين استقبالا حسنًا وعينه قائدًا عامًا لقواته ، فنظم الجيش وأحسن توزيعهم ودرب الرهبان الذي يجهلون فن الحرب تمامًا ، وقرر الإمبراطور وضع سلسلة لإغلاق القرن الذهبي أمام السفن القادمة ، تبدأ من طرف المدينة الشمالي وتنتهي عند حي غلطة.

استعدادت محمد الفاتح

كان السلطان محمد الثاني يفكر في فتح القسطنطينية ويخطط لما يمكن عمله من أجل تحقيق الهدف والطموح ، وسيطرت فكرة الفتح على عقل السلطان وكل جوارحه ، فلا يتحدث إلا في أمر الفتح ولا يأذن لأحد من جلسائه بالحديث في غير الفتح الذي ملك قلبه وعقله وأرقه وحرمه من النوم الهادئ.

وساقت له الأقدار مهندس مجري يدعى "أوربان" ، عرض على السلطان أن يصنع له مدفعا ضخما يقذف قذائف هائلة تكفي لثلم أسوار القسطنطينية ؛ فرحب به السلطان وأمر بتزويده بكل ما يحتاجه من معدات ، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تمكن أوربان من صنع مدفع عظيم لم يُر مثله قط ، فقد كان يزن ٧٠٠ طن ، ويرمي بقذائف زنة الواحدة منها ١٢ ألف رطل ، ويحتاج جره إلى ١٠٠ ثور يساعدها مائة من الرجال ، وعند تجربته سقطت قذيفته على بعد ميل ، وسمع دويه على بعد ١٣ ميلا ، وقد قطع هذا المدفع الذي سُمي بالمدفع السلطاني الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية في شهرين.(٤)



حصار القسطنطينية ١٤٥٣م

تحتل القسطنطينية موقعا منيعا ، حبته الطبيعة بأبدع ما تحبو به المدن العظيمة ، تحدها من الشرق مياه البوسفور ، ويحدها من الغرب والجنوب بحر مرمرة ، ويمتد على طول كل منها سور واحد. أما الجانب الغربي فهو الذي يتصل بالقارة الأوروبية ويحميه سوران طولهما أربعة أميال يمتدان من شاطئ بحر مرمرة إلى شاطئ القرن الذهبي ، ويبلغ ارتفاع السور الداخلي منهما نحو أربعين قدمًا ومدعم بأبراج يبلغ ارتفاعها ستين قدما ، وتبلغ المسافة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدما.

أما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه خمسة وعشرين قدما ، ومحصن أيضا بأبراج شبيهة بأبراج السور الأول ، وبين السورين فضاء يبلغ عرضه ما بين خمسين وستين قدما ، وكانت مياه القرن الذهبي الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي يغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور غلطة وسور القسطنطينية ، ويذكر المؤرخون العثمانيون أن عدد المدافعين عن المدينة المحاصرة بلغ أربعين ألف مقاتل.

وقد وصل السلطان العثماني في جيشه الضخم أمام الأسوار الغربية للقسطنطينية المتصلة بقارة أوروبا يوم الجمعة الموافق (١٢ من رمضان ٨٠٥هـ= ٥ من إبريل ١٤٥٣م) ونصب سرادقه ومركز قيادته أمام باب القديس "رومانويس" ، ونصبت المدافع القوية البعيدة المدى ، ثم اتجه السلطان إلى القبلة وصلى ركعتين وصلى الجيش كله ، وبدأ الحصار الفعلي وتوزيع قواته ، ووضع الفرق الأناضولية وهي أكثر الفرق عددًا عن يمينه إلى ناحية بحر مرمرة ، ووضع الفرق الأوروبية عن يساره حتى القرن الذهبي ، ووضع الحرس السلطاني الذي يضم نخبة الجنود الانكشارية وعددهم نحو ١٥ ألفًا في الوسط.

وتحرك الأسطول العثماني الذي يضم ٣٥٠ سفينة في مدينة جاليبولي قاعدة العثمانيين البحرية في ذلك الوقت ، وعبر بحر مرمرة إلى البوسفور وألقى مراسيه هناك ، وهكذا طوقت القسطنطينية من البر والبحر بقوات كثيفة تبلغ ٢٦٥ ألف مقاتل ، لم يسبق أن طُوقت بمثلها عدة وعتادًا ، وبدأ الحصار الفعلي في الجمعة الموافق (١٣ من رمضان ٨٠٥هـ= ٦ من إبريل ١٤٥٣م) ، وطلب السلطان من الإمبراطور "قسطنطين" أن يسلم المدينة إليه وتعهد باحترام سكانها وتأمينهم على أرواحهم ومعتقداتهم وممتلكاتهم ، ولكن الإمبراطور رفض ؛ معتمدًا على حصون المدينة المنيعة ومساعدة الدول النصرانية له.



مجريات الحرب وفتح المدينة

بعد ما أحسن السلطان ترتيب وضع قواته أمام أسوار القسطنطينية بدأت المدافع العثمانية تطلق قذائفها الهائلة على السور ليل نهار لا تكاد تنقطع ، وكان دوي اصطدام القذائف بالأسوار يملأ قلوب أهل المدينة فزعا ورعبا ، وكان كلما انهدم جزء من الأسوار بادر المدافعون عن المدينة إلى إصلاحه على الفور ، واستمر الحال على هذا الوضع.. هجوم جامح من قبل العثمانيين ، ودفاع مستميت يبديه المدافعون ، وعلى رأسهم جون جستنيان ، والإمبراطور البيزنطي.

وفي الوقت الذي كانت تشتد فيه هجمات العثمانيين من ناحية البر حاولت بعض السفن العثمانية تحطيم السلسلة على مدخل ميناء القرن الذهبي واقتحامه ، ولكن السفن البيزنطية والإيطالية المكلفة بالحراسة والتي تقف خلف السلسلة نجحت في رد هجمات السفن العثمانية ، وصبت عليها قذائفها وأجبرتها على الفرار.

وكانت المدينة المحاصرة تتلقى بعض الإمدادات الخارجية من بلاد المورة وصقلية ، وكان الأسطول العثماني مرابطا في مياه البوسفور الجنوبية منذ (٢٢ من رمضان ٨٠٥هـ = ١٥ من إبريل ١٤٥٣م) ، ووقفت قطعة على هيئة هلال لتحول دون وصول أي مدد ولم يكد يمضي ٥ أيام على الحصار البحري حتى ظهرت ٥ سفن غربية ، أربع منها بعث بها البابا في روما لمساعدة المدينة المحاصرة ، وحاول الأسطول العثماني أن يحول بينها وبين الوصول إلى الميناء واشتبك معها في معركة هائلة ، لكن السفن الخمس تصدت ببراعة للسفن العثمانية وأمطرتها بوابل من السهام والقذائف النارية ، فضلا عن براعة رجالها وخبرتهم التي تفوق العثمانيين في قتال البحر ، الأمر الذي مكنها من أن تشق طريقها وسط السفن العثمانية التي حاولت إغراقها لكن دون جدوى ونجحت في اجتياز السلسلة إلى الداخل.

كان لنجاح السفن في المرور أثره في نفوس أهالي المدينة المحاصرة ؛ فانتعشت آمالهم وغمرتهم موجة من الفرح بما أحرزوه من نصر ، وقويت عزائمهم على الثبات والصمود ، وفي الوقت نفسه أخذ السلطان محمد الثاني يفكِّر في وسيلة لإدخاله القرن الذهبي نفسه وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها وتشتيت قوى المدينة المدافعة.

واهتدى السلطان إلى خطة موفقة اقتضت أن ينقل جزءًا من أسطوله بطريق البر من منطقة غلطة إلى داخل الخليج ؛ متفاديا السلسلة ، ووضع المهندسون الخطة في الحال وبُدئ العمل تحت جنح الظلام وحشدت جماعات غفيرة من العمال في تمهيد الطريق الوعر الذي تتخلله بعض المرتفعات ، وغُطي بألواح من الخشب المطلي بالدهن والشحم ، وفي ليلة واحدة تمكن العثمانيون من نقل سبعين سفينة طُويت أشرعتها تجرها البغال والرجال الأشداء ، وذلك في ليلة (٢٩ من رمضان ٨٠٥هـ = ٢٢ من إبريل ١٤٥٣م).

فقد اعتبر هذا العمل معجزة بمقاييس العصر آنذاك على أن الفكرة نفسها ليست من ابتكار السلطان العثماني وإنما عرفت قديما ولكن السلطان العثماني بقدرته الفائقة على القيادة وتصميمه على بلوغ أهدافه ساعد على النجاح ، فقد دبر الأمر وهكذا صارت المدافع العثمانية بإمكانها أن تضرب أهدافها في داخل المدينة.(٥)

وكانت المدافع العثمانية تواصل قذائفها حتى تشغل البيزنطيين عن عملية نقل السفن ، وما كاد الصبح يسفر حتى نشرت السفن العثمانية قلوعها ودقت الطبول وكانت مفاجأة مروعة لأهل المدينة المحاصرة.

وبعد نقل السفن أمر السلطان محمد بإنشاء جسر ضخم داخل الميناء ، عرضه خمسون قدما ، وطوله مائة ، وصُفَّت عليه المدافع ، وزودت السفن المنقولة بالمقاتلين والسلالم ، وتقدمت إلى أقرب مكان من الأسوار ، وحاول البيزنطيون إحراق السفن العثمانية في الليل ، ولكن العثمانيين علموا بهذه الخطة فأحبطوها ، وتكررت المحاولة وفي كل مرة يكون نصيبها الفشل والإخفاق.

استمر الحصار بطيئا مرهقا والعثمانيون مستمرون في ضرب الأسوار دون هوادة ، وأهل المدينة المحاصرة يعانون نقص المؤن ويتوقعون سقوط مدينتهم بين يوم وآخر ، خاصة وأن العثمانيين لا يفتئون في تكرار محاولاتهم الشجاعة في اقتحام المدينة التي أبدت أروع الأمثلة في الدفاع والثبات ، وكان السلطان العثماني يفاجئ خصمه في كل مرة بخطة جديدة لعله يحمله على الاستسلام أو طلب الصلح ، فقد لجأ العثمانيون إلى استخدام طريقة السراديب كما استخدموا طريقة الحصن المتحرك ولكنهم فشلوا في خططهم هذه جميعا(٦) ولم يعد أمام السلطان سوى معاودة القتال بكل ما يملك من قوة.

وفي فجر يوم الثلاثاء (٢٠ من جمادى الأولى ٨٥٧هـ = ٢٩ من مايو ١٤٥٣م) ، كان السلطان العثماني قد أعد أهبته الأخيرة ، ووزَّع قواته وحشد زهاء ١٠٠ ألف مقاتل أمام الباب الذهبي ، وحشد في الميسرة ٥٠ ألفًا ، ورابط السلطان في القلب مع الجند الإنكشارية ، واحتشدت في الميناء ٧٠ سفينة بدأ الهجوم برًا وبحرًا ، واشتد لهيب المعركة وقذائف المدافع يشق دويها عنان السماء ويثير الفزع في النفوس ، وتكبيرات الجند ترج المكان فيُسمع صداها من أميال بعيدة ، والمدافعون عن المدينة يبذلون كل ما يملكون دفاعا عن المدينة ، وما هي إلا ساعة حتى امتلأ الخندق الكبير الذي يقع أمام السور الخارجي بآلاف القتلى.



وفي أثناء هذا الهجوم المحموم جرح "جستنيان" في ذراعه وفخذه ، وسالت دمؤه بغزارة فانسحب للعلاج رغم توسلات الإمبراطور له بالبقاء لشجاعته ومهارته الفائقة في الدفاع عن المدينة ، وضاعف العثمانيون جهدهم واندفعوا بسلالمهم نحو الأسوار غير مبالين بالموت الذي يحصدهم حصدا ، حتى وثب جماعة من الانكشارية إلى أعلى السور ، وتبعهم المقاتلون وسهام العدو تنفذ

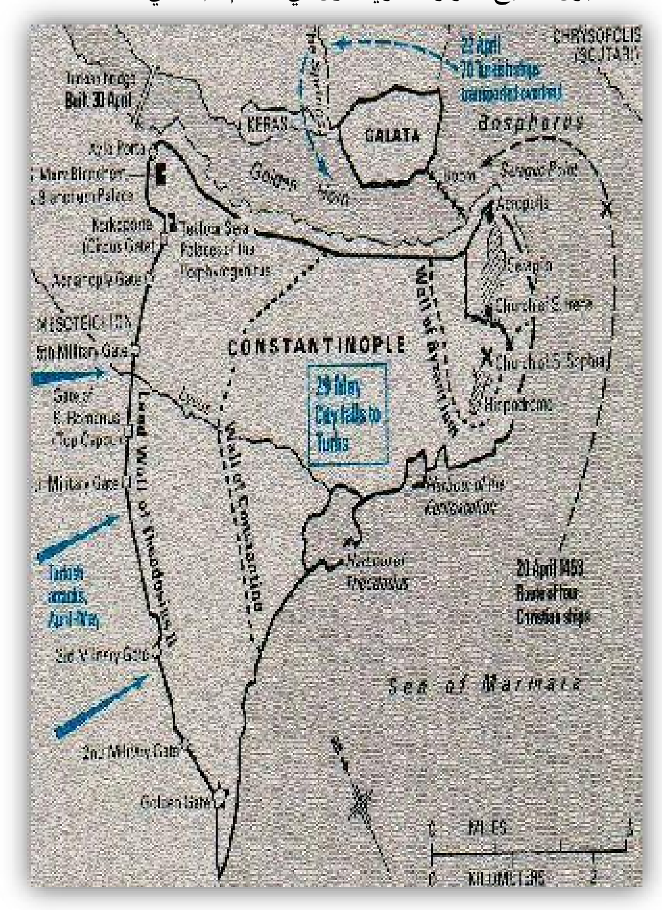


إليهم ، ولكن ذلك كان دون جدوى ، فقد استطاع العثمانيون أن يتدفقوا نحو المدينة.

ونجح الأسطول العثماني في رفع السلاسل الحديدية التي وُضعت في مدخل الخليج ، وتدفق العثمانيون إلى المدينة التي سادها الذعر ، وفر المدافعون عنها من كل ناحية ، وعندئذ تمكن الجنود الانكشارية من إنزال الأعلام العثمانية كدليل على انتصار العثمانيين على البيزنطيين.[(٧)]

وهكذا سقطت المدينة في يد العثمانيين وتحقق النصر للمسلمين ودخل السلطان محمد الفاتح المدينة ظافرا ترجل عن فرسه ، وسجدلله شكرا على هذا الظفر والنجاح ، ثم توجه إ لى كنيسة "أيا صوفيا" ؛ حيث احتشد فيها الشعب البيزنطي ورهبانه ، فمنحهم الأمان ، وأمر بتحويل كنيسة "أيا صوفيا" إلى مسجد ، وأمر بإقامة مسجد في موضع قبر الصحابي الجليل "أبي أيوب الأنصاري" ، وكان ضمن صفوف الحملة الأولى لفتح القسطنطينية ، وقد عثر الجنود العثمانيون على قبره فاستبشروا خيرًا بذلك.

وقرر الفاتح الذي لُقِّب بهذا اللقب بعد الفتح اتخاذ القسطنطينية عاصمة لدولته ، وأطلق عليها اسم "إسلام بول" أي "دار الإسلام" ، ثم حُرفت واشتهرت بـ "إستانبول" ، وانتهج سياسة سمحة مع سكان المدينة ، فمنح أهالي حنوة من سكان حي جلاطا شروطا مناسبة للصلح ، وأعطى لكبار رجال الدين المسيحي حرية دينية كاملة ، بل أنه زاد من سلطانهم بان وكل إليهم أمر القضاء المدني والفصل في القضايا الخاصة بالأحوال الشخصية للمسحيين من رعايا كنيستهم ، وأمر بانتخاب بطريك لهم ، وسمح كذلك بعودة اليونانيين الذين غادروا المدينة قبل سقوطها ، كما تدفق إليها العديد المسلمين من مختلف أنحاء آسيا الصغرى ، وسرعان ما تحولت استانبول لتصبح المركز الفكري الأول في العالم الإسلامي.[(٨)]



نتائج فتح القسطنطينية

لم يكن فتح القسطنطينية أمراً سهلاً كما يحلو لبعض المؤرخين أن يصوروه بسبب ضعف الدولة البيزنطية ، والانشقاق الكنسي في الشرق والغرب ، بل الحق يقال: إن الجنود الإسلاميين بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل ذلك ، وقاموا بالتضحية والفداء حتى تم لهم النصر المبين ، كما أن السلطان محمداً أعدّ كل ما يمكن من الوسائل العسكرية الناجحة ، ولم يشك لحظة في ثقته بنصر الله عز وجل حتى تم له ذلك .

وصدق المؤرخ الفرنسي الشهير (كارادي فو Carra De Vaux) في قوله بهذا الصدد: «إن هذا الفتح لم يتيسر لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسر بمجرد ضعف الدولة البيزنطية ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ويستخدم له ما كان في عصره من العلم»[(٩)]

وكان من آثار هذا الفتح أن اتحد كلا القسمين الجنوبي والشمالي ، الآسيوي والأوروبي للدولة الإسلامية العثمانية ، وتحولت العاصمة من أدرنة إلى القسطنطينية التي سميت بأسماء عدة: إسلام بول (أي مدينة الإسلام) ، ودار السعادة ، واسمها الرسمي الآستانة ، وفي العهد الكمالي قرر اسمها رسمياً إستانبول ولا تزال.

وأصبحت القسطنطينية بعد ذلك قاعدة للأعمال العسكرية في الشرق والغرب ، وامتد النفوذ الإسلامي إلى شواطئ البحر الأسود الشمالي وكييف (حالياً في روسيا) وإلى المجر واليونان وسواحل البحر الأدرياتيكي الشرقية ، وإلى شرقي البحر الأبيض المتوسط.[(١٠)]

الخاتمة

تناولنا في بحثنا هذا حادثة فتح القسطنطينية ابتداء من محاولات المسلمين فتح هذه المدينة منذ العصر الأموي حتى تحقق هذا الحلم في العصر العثماني على يد السلطان محمد الثاني ، ثم استعرضنا دوافع السلطان محمد الثاني لفتح هذه المدينة ،مرورا بحصار العثمانيين لها ،ومجريات الحرب بينهم وبين البيزنطيين المدافعين عنها ،وانتهاء بسقوط المدينة بيد العثمانيين ، والنتائج التي ترتبت على هذا الفتح العظيم للمسلمين للعثمانيين وعلى أوروبا والعالم بأسره ، فقد غير هذا الحادث ملامح التاريخ الأوروبي بأسره .

وقد مكننا هذا البحث من التعرف على شخصية تاريخية إسلامية فذة ،وهي شخصية السلطان محمد الفاتح ،وما تميزت به من صفات العظيمة أهلته لأن ينجز هذا العمل التاريخي رغم صغر سنة ، فقد كان حماسه الديني والذي غرسه في نفوس قادته وكبار رجالات الدولة وعامة الشعب الأثر الكبير في تحقيق هذا النصر ، وبواسطته أزيلت كافة الصعاب التي واجهت العثمانيين في حصار المدينة ، كما كان لدهائه وذكائه ومعرفته بكيفية وضع الخطط الحربية في ميدان القتال دور هام في نجاح العثمانيين في اختراق السلسة الحديدية التي وضعها البيزنطيون حول ميناء القرن الذهبي بعد أن اهتدى الفاتح إلى طريقة مكنته من نقل الأسطول العثماني إلى داخل القرن الذهبي ، وقد ساهمت هذه الطريقة بشكل كبير في نجاح عملية الفتح.

كما تميز السلطان محمد الفاتح بقوة العزيمة والإصرار فكان شجاعا مقداما شديد المراس يصبر على المكاره ولا يعرف اليأس طريقا إليه رغم كل العوائق التي واجهها من موقع المدينة الحصين ودفاع



البيزنطيين المستميت عنها ، ولهذه الصفات كلها ولقيامه بهذا العمل الجبار وهو فتح القسطنطينية فنحن نعتبر محمد الفاتح أعظم سلاطين الدولة العثمانية قاطبة ومن أكبر المجاهدين في التاريخ الإسلامي.

ومن يتأمل شخصية السلطان محمد الفاتح وأعماله الخالدة وظروف عصره ويقارنها بعصرنا الحاضر يدرك أن سبب قوة المسلمين في تلك العصور وسبب ضعفهم وهوانهم في وقتنا الراهن هو بلا شك ضعف العامل الديني ، فقد كان للحماس الديني لدى السلطان الفاتح وجنده والرعية والرغبة في إعلاء كلمة الله ونشر الإسلام من خلال الجهاد في سبيله أبلغ الأثر في تحقيق هذا الفتح المبين للإسلام والمسلمين ، وإزالة أعرق إمبراطورية في ذلك العصر من الوجود ، وعلى النقيض تماما نجد أن ضعف الحماس الديني لدى المسلمين اليوم هو السبب الرئيسي لتفككهم وضعفهم وتكالب القوى الكبرى وسيطرتها عليهم.

الهوامش

(١) أ . د . محمود السيد – تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها – مؤسسة شباب الجامعة – القاهرة – ٢٠٠٠م – ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) المرجع نفسه -ص ٣٩ .

(٣) نيقولا فاتان - تاريخ الدولة العثمانية – ج١-اشراف : روبير مانتران-ترجمة - بشير السباعي –دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع –القاهرة –ط١-١٩٩٣ –ص ٧٦.

(٤) خليل حسن فخر الدين : محمد الفاتح وملحمة القسطنطينية - مقال في مجلة الأمة-الكويت -العدد ٢١-١٤٠٢ هـ

(٥) أ.د. محمود السيد –ص ٥٥.

(٦) المرجع نفسه–ص٥٧ .

(٧) المرجع نفسه–ص ٦١ .

(٨) د. محمد فريد- تاريخ الدولة العلية العثمانية –تحقيق إحسان حقي –دار النفائس –بيروت –١٩٨٣م ص٦١ ، ٦٧ .

(٩) الأمير شكيب أرسلان- حاضر العالم الإسلامي ج ١-مصر – ١٣٩٢هـ-ص ٢٢٠

(١٠) خليل حسن فخر الدين – مرجع سبق ذكره .

المراجع

- السيد (أ.د . محمود): تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها – مؤسسة شباب الجامعة – القاهرة – ٢٠٠٠م
- أرسلان (الأمير شكيب) : حاضر العالم الإسلامي ج ١- مصر –١٣٩٢هـ
- فاتان (نيقولا) : تاريخ الدولة العثمانية – ج١-اشراف : روبير مانتران-ترجمة : بشير السباعي –دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع –القاهرة –ط١-١٩٩٣ .
- فخرالدين (خليل حسن) : محمد الفاتح وملحمة القسطنطينية -مقال في مجلة الأمة-الكويت -العدد ٢١ - ١٤٠٢ هـ
- فريد (دكتور محمد) : تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق إحسان حقي –دار النفائس –بيروت –١٩٨٣م.



السلطان محمد الفاتح

محمد الفاتح (٨٣٣-٨٨٦ هـ / ١٤٢٩ - ١٤٨١م). السلطان محمد بن السلطان مراد الثاني. أشهر سلاطين الدولة العثمانية. خلف والده في السلطة عام ٨٥٥هـ ، ١٤٥١م .تكلم بالفارسية والعربية واليونانية والسلافية ، وناصر العلوم الإسلامية ، وقرب إليه العلماء والأدباء والشعراء وأجزل لهم العطاء. أوصاه والده بفتح القسطنطينية ، فاجتهد ونجح في فتحها عام (٨٥٧هـ ، ١٤٥٣م) ولذا عرف بـ الفاتح لأهمية فتح هذه المدينة ، عاصمة الدولة البيزنطية. وأطلق عليها اسم إسلامبول الذي يعني بالتركية: عاصمة الإسلام. وحول كاتدرائية القديسة أيا صوفيا إلى مسجد.

أدت فتوحاته في أوروبا ، وبخاصة في بلاد البلقان إلى جعل بلاد الصرب ولاية عثمانية سنة ٨٦٤هـ، ١٤٥٩م. وخضع له إقليم البوسنة سنة (٨٦٩هـ، ١٤٦٤م) ، ثم إقليم الهرسك سنة ٨٧٢هـ، ١٤٦٧م. وانضمت إليه طائفة البوجوميل النصرانية عندما دخل البوسنة ، لقرب مبادئهم من مبادئ الإسلام. واحتل دوقية أثينا. ودانت له معظم بلاد المورة سنة ٨٦٥هـ ، ١٤٦٠م. وأقام قلعة حصينة في قلب ألبانيا بعد سقوط كرويا في يده عام ١٤٧٨م.

سيطر على كل المحطات التجارية التابعة لجمهورية جنوة في منطقة البحر الأسود .واعترف تتار القرم بالسيادة العثمانية. وحارب البنادقة ، ووقع معهم اتفاقية سنة٨٨٤ هـ، ١٤٧٩م ، تقرر بموجبها أن يدفعوا الجزية للعثمانيين ، وتنازلوا عن عدة جزر ومدن. ووصلت جيوشه إلى شواطئ بحر الأدرياتيك ، ودخل جنوب إيطاليا. وقضى على مملكة طرابيزون النصرانية اليونانية شمالي الأناضول عام ٨٦٦هـ، ١٤٦١م ، وأسر ملكها ، وقتله سنة ٨٧٥هـ، ١٤٧٠م. وتوفي بإسلامبول (إسطنبول) ، وهو يعد العدة لفتح روما.

ورد في مسند أحمد بن حنبل في الحديث رقم ١٨١٨٩

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ ، وَسَمِعْتُهُ أَنَا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ ، قَالَ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ ، قَالَ حَدَّثَنِي الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَعَافِرِيُّ ، قَالَ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بِشْرٍ الْخَثْعَمِيُّ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ.

مسألة البدعة في تاريخ المغرب الحديث



(نموذج شراكة من خلال الاستقصا)



د.عبد العزيز غوردو

باحث وكاتب، دكتوراه في الآداب
تخصص: تاريخ الإسلام والحضارة
المملكة المغربية

ghourdou.abdelaziz@voila.fr

كتب الناصري، تحت عنوان: ظهور بدعة الشراقة من الطائفة اليوسفية وما قيل فيهم، يقول:

«قال في "الدوحة": "كان الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي نزيل مليانة، تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعالات، فبعد صيته وكثرت أتباعه، فغلوا في محبته وأفرطوا فيها، حتى نسبه بعضهم إلى النبوة." قال: " وفشا ذلك الغلو على يد رجل ممن صحب أصحابه يقال له ابن عبد الله، فإنه تزندق وذهب مذهب الأباضية على ما حكي عنه، واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغاء وأجلاف العرب وأهل الأهواء من الحواضر، وتعرف هذه الطائفة باليوسفية." قال: "ولم يكن اليوم بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطائفة. وسمعت بعض الفضلاء يقول: إنه قد ظهر ذلك في حياة الشيخ أبي العباس المذكور، فلما بلغه ذلك قال: "من قال عنا ما لم نقله يبتليه الله بالعلة والقلة، والموت على غير ملة."

قال صاحب "الدوحة": "ولقد أشار الفقهاء على السلطان الغالب بالله بالاعتناء بحسم مادة هذه الطائفة، فسجن جماعة منهم وقتل آخرين. وهؤلاء المبتدعة ليسوا من أحوال الشيخ في شيء، وإنما فعلوا كفعل الروافض والشيعة في أئمتهم، وإنما أصحاب الشيخ كأبي محمد الخياط، والشيخ الشطيبي، وأبي الحسن علي بن عبد الله دفين تافلالت، وأنظارهم من أهل الفضل والدين، وإلا فالأئمة المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعترف له بالولاية والعلم والمعرفة".

وقال في "المرآة" ما نصه: "والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني، من كبار المشايخ من أهل العلم والولاية وعموم البركات والهداية، وكان كثير التلقين، فقال له الشيخ عبد الله الخروبي: "أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعامة حتى النساء" فقال له: "قد دعونا الخلق للخالق فأجابوا، فقنعنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر". قال الشيخ الخروبي: "فوجدته أوسع مني دائرة".

قال صاحب "المرآة": "وانتسب إليه الطائفة المعروفة بالشراقة، بتشديد الراء، وهو بريء من بدعتهم، فما كان إلا إمام سنة، وهدى مقتدى به في العلم والدين، قد نزهه الله وطهر جانبه. وقد أظهروا شيئا من ذلك في حياته فتبرأ منهم، وقاتلهم، وبلغ المجهود في تشريدهم." قال: "وحدثني شيخنا أبو عبد الله النيجي، أن الشيخ أبا البقاء عبد الوارث الياصوتي لما ظهرت بدعة الشراقة وانتسابهم إليه، وقع في نفسه من ذلك شيء فقيل له: "إن الشيخ محمد الخياط من أصحابه" فقال: "أنا تائب إلى الله، كفى في طهارة جانبه أن يكون الخياط من أصحابه". وكانت وفاة الشيخ الملياني سنة سبع وعشرين وتسعمائة، لكن ما كان عنفوان تلك البدعة المدسوسة عليه، إلا في دولة السلطان الغالب بالله كما مر، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. »

الناصري، الاستقصا، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥، ج.٥، صص. ٥٠-٥١

مقاربة جديدة لتحليل النص التاريخي

مع النهضة الأوربية انتهى المضمون الاقتصادي والاجتماعي والسياسي القديم للدول، من دول مرتبطة باليابس (المضمون القديم)، إلى دول ذات ارتباط وثيق بالبحر. وستؤكد القرون الثلاثة اللاحقة (١٦م/١٧م/١٨م)، أنه كلما توثقت العلاقة بالبحر إلا وتقوت الدولة أكثر، وهذا ما انتبهت له دول أوربا خاصة الغربية. أما العالم الإسلامي، الذي عجز عن مواكبة المسيرة التطورية للعالم، فقد أدرك بأن دول غرب أوربا قد تجاوزته، ورغم أنه واجهها عسكريا في عدة مناسبات: (تاريخ العثمانيين والسعديين مثلا) فإنه لم يواجهها ثقافيا وتقنيا بتثوير بناه الداخلية، ولم يحاول مجاراتها أو حتى تقليدها، بل أدار ظهره عنها مرتدا نحو الصحراء (السودان).

ونعتقد أن السبب هنا لا يعود إلى حتمية تاريخية أرغمته على الانطواء والتكور بدل التطور[١]، بقدر ما كان السبب راجعا لعاملين اختياريين[٢] تتحمل فيهما "السلطة السياسية والاجتماعية" كامل المسؤولية: "السلطة السياسية" من خلال الدول الحاكمة التي لم تبلور مشروعا قويا حاسما لتحديث بناها، رغم فترات الرخاء التي عرفتها أحيانا كثيرة، و"السلطة الاجتماعية" التي همشت العلوم الحقة، وأعطت قيمة تقديسية مبالغ فيها للتصوف والزوايا، فالمجتمع لا يقدّر، ولا يحترم، إلا أحد رجلين: رجل السلطة السياسية (الحاكم)، ورجل السلطة الدينية، بمدلولها المبتذل، الذي اختزل في الحركات الصوفية وما ارتبط بها من بدع.

لنشر أولا إلى قلة الوثائق في تاريخ المغرب الحديث بسبب هشاشة الدولة المدنية وتفشي الصراعات الداخلية، أي انعدام المخاطب المركزي وسيادة طابع البداوة، مما يعني سيادة الخطاب الشفهي بدل الكتابي. إذ منذ القرن ٨هـ/١٤م، شهدت بلاد المغرب الموجة الثانية من الهجرات العربية ممثلة في بني معقل، الذين تحركوا جنوب الأطلس الصحراوي والتلي، على هوامش الصحراء، وهي مناطق لها أهميتها، لأن السيطرة عليها تعني السيطرة على المصادر المالية لتحريك القوة السياسية[٣]. نتذكر بهذا الصدد أن الوطاسيين الجنوبيين أسسوا قوتهم على بني معقل، كما أن هؤلاء سيقومون بمحاولة فاشلة لبناء دولة (الدلاء)، ونجحوا فيما بعد في تكوين الدولة العلوية[٤] - كما أقاموا إمارة بني الطويل في صفاقس وإمارة أخرى في بسكرة قبل وصول العثمانيين -... هكذا ومع تحركات هذه القبائل، تحولت مناطق الصحراء شيئا فشيئا من نمط الترحال إلى نمط مجتمعات الواحات، وتحولت المدن: سجلماسة، توات، وركلة، غدامس... من مراكز حضرية تقوم بوظيفة مراقبة التجارة، إلى قصور مشتتة تشرف على كل واحد منها أسرة عربية. فإذا أضفنا لذلك أن أوربا أكدت تفوقها البحري، وأقامت شركات تجارية خاصة[٥]، وقلبت الطريق التجاري من صحراوي داخلي إلى بحري خارجي، قاطعة بذلك الطريق أمام مدن الصحراء، فهمنا كيف دخلت هذه المدن في مرحلة احتضار طويلة، حولتها من مراكز حضرية إلى قصور مجزأة: نظام الواحات والفئات الاجتماعية وسيطرة الزوايا، بحيث لم يعد الفقهاء هم الذين يرافقون ما تبقى من قوافل، ولكن شيوخ الطرق الصوفية.

هكذا ساهم البدو والأوربيون، كل من جهته، في هدم ما كان يعرف "بالجمهوريات التجارية الصحراوية"، في الوقت الذي شرع فيه في بناء الحصون الشبيهة بالرباطات، التي ظهرت مع ظهور الإسلام[٦]، وهذه التحصينات نتج عنها ظهور نظام حربي على طول السواحل المغربية ونقط التماس مع الأوربيين، مما جزأ المنطقة أكثر، خاصة وأن الداخل كان مجزأ أصلا بفعل تحركات القبائل وعدم ارتباطها بالأرض، وبالتالي غياب فكرة المواطنة: فالنظام السياسي الانقسامي، نتيجة حتمية للواقع الاجتماعي الانقسامي.

لنميز ثانيا بين ثلاث مستويات داخل التفكير الديني وهي: "العقيدة"، و"المذهب الشرعي"، و"الطريقة الصوفية": فالعقيدة هي المبدأ الذهني في الاعتقاد عند فرقة معينة اعتمادا على الحجة العقلية، وهي بذلك تمس الشخص في ذاتيته الخاصة، أما المذهب الشرعي فيندرج، مفهوما ومضمونا، في إطار التنظيم الجماعي المدني للحياة اليومية، بينما ترتبط الطريقة الصوفية بسلوك الفرد تجاه خالقه.

نحن نظريا حيال مجتمع موحد مذهبيا تحت إطار مالكي، لكن عقائده وطرقه الصوفية متعددة تجزيئية: الواقع الديني التجزيئي يتحرك، داخل الزمان والمجال المغربيين كعامل اجتماعي يصنع الأحداث، أي يساهم في تشكيل جسم التاريخ، لذلك نركز عليه مبضعنا بالتشريح.

منذ منتصف القرن ٨هـ/١٤م، انفصلت الرؤية المثالية تماما في الإسلام إلى قسمين: "الدين الشعبي" بقيادة التصوف والزوايا، و"الدين الرسمي" الذي انحسر في الفقهاء والعلماء وعناصر قليلة في المجتمع. هكذا انتشر العديد من زعماء التصوف والزوايا الأدعياء: أناس لا يقرؤون ولا يكتبون ولا يفقهون شيئا، بل يعتمدون على الخوارق والشعوذة ورجم الغيب، ولكنهم يمسكون برقاب الناس ونواصيهم، ويقومون بالإفتاء وقيادة السكان. كل مجموعة اجتماعية (محور سلطة)[٧]، كونت هيكلا تسير عليه، وهكذا تم خلق بنية مرتبطة بالنسق القبلي، وحاولت أن تدمجها بمفهوم الشرع إدماجا تعسفيا أحيانا كثيرة، وبما أن هذه المرحلة مبنية على هذا النحو، فإن ذلك يعني سيادة الدين الشعبي، وعودة الموروث التقليدي وانتشار البدع، وفي المقابل تراجع الإسلام الأصيل وابتعاده عن الحياة العامة.

ظاهرة "شراكة" تمثل واحدة من هذه البدع المنتشرة، حسب الناصري، أما الإطار المصدري الذي اعتمده فيتلخص في مصدرين مصرح بهما في النص، هما: "دوحة الناشر" لابن عسكر (ق.١٠هـ/١٦م)[٨]، أي نفس القرن الذي توفي فيه الملياني[٩] الذي تنسب إليه طائفة "شراكة"[١٠]، وهي فترة توازي ظهور مهدوية السعديين[١١]، ثم: "مرآة المحاسن" للعربي الفاسي (ق.١١هـ/١٧م)[١٢]، وهو يوازي ظهور مهدوية أخرى هي مهدوية أبي محلي[١٣]، لكنها فشلت في تحقيق مشروعها السياسي. قال عنه الناصري —وقد كان يعتبره من الفقهاء-: "قام طيشا ومات كبشا"[١٤]. أما المصدر الثالث فغير مصرح به، وهو "نشر المثاني" للقادري (ق.١٢هـ/١٨م)[١٥].

النص بدعوي حسب سياق العصر: بدعة دينية سلوكية مرتبطة بالتصوف الشعبي[١٦]. هل مهدوية السعديين وأبي محلي ليست بدعة؟ سبحان الله! زمان مرجعية النص، يحدد طبيعة الظاهرة بين مرجعية النص ومرجعية الظاهرة، أي أن النص مأخوذ من الناصري، لكنه يتحدث انطلاقا من مصادر سابقة طبعا، وبين الفترتين لا شك أن تطورا ما حصل على الذهنية الجماعية، فهل هناك استمرارية في

المحافظة على الموضوع (محتوى الظاهرة)؟ أي عند تحليل مصادر الناصري (الدوحة/المرآة/النشر)، نلاحظ أنها انسحبت على ثلاثة قرون، فهل تواصل الحدث المذكور (بدعة شراكة) طيلة هذه الفترة؟

بمتابعة النصوص خارج مصادر الناصري، أي بتتبع الظاهرة في مصادر أخرى كابن القاضي أو اليوسي... نسجل أن هناك تواصلا للحدث، لكننا نسجل، في الوقت نفسه، بأنه لم يستمر بنفس الفاعلية التي حدث بها أول الأمر، بفعل ضرب السلطة الرسمية له، ومحاربتها هذا العمل البدعوي. والناصري نفسه، الذي نعتمده هنا أساس عملنا، يذكر في أحداث سنة ١١٠٠هـ: "وفي أوائل ذي الحجة من هذه السنة، قتل السلطان (إسماعيل) ثلاثة وستين رجلا من الطائفة المسمون بالعكاكزة".[١٧]

النصوص المعتمد عليها في النص الأساس (الناصري) هي أقرب إلى منطقة فاس، مركز القيادة الروحية والفعلية للمغرب في هذه الفترة:

ابن عسكر، رغم أنه من منطقة غمارة، فهو فاسي الهوية العلمية والروحية، بدليل أنه يشيد ويركز على رجالات المدينة، وخاصة الذين تربوا علميا وروحيا في فاس. وهو ينتمي بوجه خاص إلى القرن ١٠هـ/١٦م، أي إلى مرحلة سيادة نظام الزوايا في قيادة المجتمع المغربي، وانتشار الاتجاه الجزولي[١٨] في المغرب، كما أنه عاصر أحداثا جساما ذات فاعلية كبيرة وآثار عميقة على المجتمع المغربي، مثل إحياء روح المهدوية التي تعتبر أساس قيام ونجاح السعديين، وهي مهدوية مذهبية، بينما المهدوية المضمرة بين ثنايا النص هي مهدوية صوفية.

المهدوية المذهبية تهدف إلى سلطة سياسية، وتوجهها الروحي يحمل مضمونا سياسيا/حكميا/عقديا في الوقت نفسه، في حين لا توجه المهدوية الصوفية هدفها إلا إلى تقويم السلوك اليومي الفعلي، على أساس شرعي، تبعا للمدرسة الصوفية التي تبنت هذا الاتجاه. فمهدوية ابن تومرت، مثلا[١٩]، هي ذات غاية سياسية لكن تحت مظلة دينية، سلطة دينية للوصول إلى سلط سياسية. أما المهدوية الصوفية، فهي حركة تهدف إلى "إصلاح" المجتمع و"تهذيبه" أخلاقيا، فهي تبقى ضمن الوظيفة الاجتماعية التي تمنحها لها السلطة الروحية، وهي بالتالي تعكس توجهها الخاص، أي الهروب من السلطة، فالرجل الصالح هو الذي يهرب من السلطان[٢٠]، والمجتمع بهذا المنظور كان مريضا بالانحراف، والذي يعيد له صوابه وتوازنه هم هؤلاء الأشخاص/المتصوفة، الذين يرحلون إلى الأشياخ هنا وهناك للأخذ عنهم، قبل أن يتحولوا بدورهم إلى محاور مستقطبة[٢١]، وهذا النوع الذي يفر من السلطة السياسية لا ننتظر منه أن يغيرها[٢٢].

كلما ظهرت حركة مضادة للموقف الشرعي، تعتبر خارجة عن الصواب والجادة الشرعية الروحية السنية، وتعتبر بعيدة عن سلوك "السلف الصالح". هذا الوضع انعكس، بكل مقولاته ومفاهيمه، على ابن عسكر، فردده في دوحته كلما ترجم لرجل أو ولي من رجالات وأولياء القرن الذي أرخ له، فهم يكادون يمثلون نمطا واحدا على المستوى الروحي، وأغلبهم ينتمي إلى منطقة جغرافية لها أهميتها في تاريخ التصوف المغربي خلال هذه المرحلة، وهي المنطقة الممتدة من شمال الأطلس الكبير إلى سواحل البحر المتوسط، والسؤال الذي يطرح هنا هو: لماذا لم يغط ابن عسكر المجال الجغرافي المغربي الكلي؟ هل هي النزعة المحلية التي التزم وتقيد بها؟ أم هي هيمنة الإشعاع الفاسي على طبيعته وتكوينه وذهنيته؟ أم لا زالت في ذاكرته ظاهرة انقسام المغرب إلى مملكتين: مملكة الشمال ومملكة الجنوب؟

المرجعية الثانية التي اعتمدها الناصر تتمثل في "مرآة المحاسن"، الذي يعتبر في روح مادته ممثلا لما اختصره ابن عسكر، رغم أنه يترجم لشخصية معاصرة فعلا لابن عسكر، لكن حياتها امتدت إلى ما بعد وفاة صاحب الدوحة. فصاحبها محمد العربي الفاسي (ت.١٠٥٢هـ) قد خصصها لترجمة شخصية صوفية توفيت سنة ١٠١٤هـ، وهي شخصية والده أبي المحاسن يوسف الفاسي —تلميذ المجذوب— الذي كان يمتاز بطبيعته الصوفية، وبانتمائه للمدرسة الجزولية، وبإيمانه بفعالية حركة الدوارين[٢٣] من المتصوفة المغاربة، بل كان يفتعل الجذبة والخروج عن السلوك الطبيعي[٢٤] ليبرهن عن امتيازه بالخوارق والمكاشفات، مع العلم أنه من لأسرة تجارية دينية كبرى قامت بالمضاربات التجارية، والسهر على ضبط الطريق التجاري بين طنجة والقصر الكبير وفاس.

هذه الشخصية مثلت فعلا نموذجا سلوكيا في الحياة الروحية المغربية بمنطقة الشمال، وقطبا للزاوية الفاسية، لكنها في الوقت نفسه، مثلت نوعا من التطور الديني الصوفي عما كان سائدا في عهد ابن عسكر[٢٥]، حيث إن أبا المحاسن الفاسي شهد أحداث وادي المخازن، وعاصر الانقلاب السياسي العام في تاريخ الدولة السعدية، التي كانت بطبيعتها مرتبطة بنمط المهدوي المذهبية، كما أنها اضطرت للاقتران بالصوفية الجزولية لتشكيل محورها السلطوي وتكوين الدولة، وقد حاول أبو المحاسن، وأسرته من بعده، أن يوثقوا الصلات بين مضمون التصوف السلوكي، الذي كان سائدا في الشمال، ومضمون التصوف المهدوي، الذي جاء من الجنوب. فالمرحلة التي عاصرها الرجل توفيقية من شأنها أن تعبر عن طبيعة التحول، لكن هل يعني هذا أن وجود الحركات الأخرى المؤثرة في الذهنية الدينية بالمغرب، والواردة من الشرق (أسرة القادري نموذجا)[٢٦]، كانت ذات طابع مختلف لم تقبله الذهنية الصوفية التي دافع عنها ابن عسكر، وضبطها إلى حد ما العربي الفاسي في ترجمته لأبيه أبي المحاسن الفاسي؟

لكن بين محمد العربي الفاسي، أو على الأصح بين مرحلة التصوف في القرن ١١هـ/١٧م، وما يمكن أن يكون عليه الحال في القرن اللاحق (١٢هـ/١٨م)، وهو عصر محمد بن الطيب القادري[٢٧]، صاحب "نشر المثاني"، والذي يمثل المرجعية الثالثة للناصري، هل وقع تحول في الصورة الذهنية أم ظلت الأمور على ما كانت عليه؟

مظهريا نلاحظ الاستمرارية، ولكن في العمق نجد بوادر وإرهاصات التحول، وبطبيعة الحال نتلمس:

أولا: التغير في الواقع السياسي، أي اختفاء الطابع التجزيئي (الشمال والجنوب) من المغرب، وبالتالي ميلاد جيل جديد امّحت من ذاكرته ظاهرة المملكتين، وتم إقناع المغاربة جميعا باحترام مركزية فاس دون غيرها (رغم أنها لم تكن عاصمة سياسية)، وهذا ما لم يكن موجودا في عهد ابن عسكر، أو في العهد الوطاسي من قبل، أو حتى في عهد العربي الفاسي (أواخر السعديين).

ثانيا: بداية سيادة ذهنية علماء الأمصار ، أي بروز الفقهاء والعلماء أصحاب كراسي العلم ، في كل المدن الكبرى ، وخصوصا القرويين ومراكش ومكناس[٢٨].

ثالثا: نلمس الاستقطاب الشمالي لرجالات التصوف. كأننا بكل هذا نعاصر توحيد فكرة أو تقنين مضمون "أهل الحل والعقد" الذي أصبح يحمل ما يلي: أ) إجماع العلماء بفاس. ب) إجماع أعيانها. ج) إجماع شيوخها. على رجل السلطة. وهذا هو المضمون الذي مثله نص القادري ، سواء في "نشر المثاني" أو في ملخصه "التقاط الدرر"[٢٩].

ينتج من هذا التحليل العام للنصوص المرجعية ، أن البدعة يجب أن تحمل هذا التحول في المفهوم والمضمون من القرن ١٠هـ/١٦م على القرن ١٣هـ/١٩م ، فهل راقب الناصري هذا التحول أم أنه اعتبر الظاهرة مستمرة ، بل ربما استمرت في ذهنه مما قبل القرن ١٠هـ/١٦م إلى عصره ، أي تاريخ تأليف "الاستقصا"؟

تختلف النصوص في حديثها عن مفهوم التصوف ومفهوم البدعة ، ودون أن نخوض في تفصيل المفهومين ، لأن أبحاثا عديدة أنجزت في هذا الصدد ، ولأن تاريخ تطور التصوف والبدع يقع خارج نطاق موضوعنا هذا ، فإننا سنركز على ما يفيدنا ، أو على الأقل ما نعتقد أنه يفيد هذه القراءة المقتضبة لنص الناصري ، الذي حكم ببدعوية الفرقة الصوفية التي أرخ لها. ولأجل ذلك ينبغي أن نميز في تاريخ التصوف الإسلامي بين تصوف الفقهاء (علماء الكراسي في الحواضر العلمية) ، الذي ينتمي للإمام الجنيد ، والذي ساد في القرون الأربعة الأولللهجرة ، وهو الموسوم بالتصوف السني ، والتصوف الطرقي (الزوايا) بعد القرن ٥هـ/١١م ، الذي دشن بداية تحلل الفكر الديني ودخوله مراحل الانحطاط ، ولهذا جاء الغزالي بإحياء علوم الدين[٣٠] لبعث التصوف السني من جديد ، لكن المؤثرات الشعبية كانت قد استحكمت في الدين الإسلامي ، خاصة مع استفحال الأمية وتفشي الجهل في المجتمع[٣١]. فالعالم الإسلامي عم فيه المنكر ، وهو يستوجب تغييره ، لذلك انبعثت حركة "الدوارين" ومنهم "العكاكزة" تحت شعار "النهي عن المنكر" ومحاربة البدع. لكن ما هو هذا المنكر؟ وكيف تم تحديد مفهوم البدعة؟[٣٢]

البدعة عند المتصوف يختلف مفهومها عنه لدى المشرع الفقيه ، فهي لدى المتصوف ما حدده شيوخ التصوف في طريقة ما ، بينما عند الفقيه كل ما خالف التصور السني الذي شرعه الفقهاء. وهكذا فشطحات الصوفية في مدرسة معينة ليست بدعة ، لكنها عند الفقهاء بدعة ، والذبيحة عند أضرحة الأولياء محكوم فقهيا ببدعويتها ، لكنها عند المتصوفة سلوك ضرري ، وخدمة السلطان عند الفقهاء ليست بدعة ، لكنها تتحول إلى بدعة لدى بعض المتصوفة... والحصيلة أن مفهوم البدعة ليس واحدا في كل التراث.

الأفكار التي انتظم حولها الدوارون/العكاكزة في عرفهم ليست بدعا ، بل هي عين السلوك الضروري والحقيقي الذي يجب على المجتمع أن يتبناه ، ومن هذه الأفكار أن النبوة ليست في محمد وإنما في علي ، وكذا شيوع المرأة دون عقد نكاح شرعي ، وأن الذي يغير المنكر هو "صاحب الثور الأبيض" وهي فكرة إسماعيلية شيعية متطرفة ، والفقهاء يصنفون الفكر الإسماعيلي من الروافض[٣٣].

ما يهمنا هنا هو كيف نظر الناصري للبدعة: هل من وجهة نظر الفقيه ، أم المتصوف[٣٤] ، أم المؤرخ؟

المؤرخ محكوم عليه أن يوازن بين جميع المواقف ، لكن حركة العكاكزة هنا محكوم ببدعويتها عند الفقهاء وعند السلطة وعند المتصوفة ، المجتمع رافض لهم بجميع المقاييس ويعتبرهم خارجين عن السلوك العام ، لا من وجهة المنظور الرسمي ، ولا من وجهة المنظور الشعبي.

الناصري إذن يقدم تاريخا يوحد فيه التصورات الثلاث: الرسمية والصوفية (المتفق عليها) والفقهية ، وهي تصورات تتفق في رفض حركة العكاكزة ، وهذا ما يفسر كون الحركة تحركت في مناطق الفراغ: المناطق البدوية البعيدة ، والجبال المرتفعة ، والقبائل الثائرة... بعبارة أخرى المناطق التي تقع –غالبا– خارج طرق المواصلات. لماذا هم منحرفون؟ ولماذا هذا الاستنكار؟ أي لماذا تم اتهامهم بالبدعة؟

"شرّاكة" (شرّاقة): إيتيمولوجيا نلاحظ أن ظاهر الكلمة يشير إلى أنهم من الشرق. (علينا أن نسجل هنا أن الطائفة اتخذت أسماء عدة لمضمون واحد) ، رئيسهم أحمد الملياني (ت.٩٢٧هـ) ، دفين مليانة بالمغرب الأوسط ، والمعروف في النصوص بصاحب مليانة "مولا مليانة" ، (علينا أن نسجل هنا أيضا بأن النصوص تنزه الملياني عن البدع التي أحدثها أتباعه) ، وقد عاصر ابن القاضي إعدام أتباعه في مراكش ، في عهد المنصور السعدي ، في ساحة قصر البديع ، التي سيتحول اسمها مباشرة بعد ذلك إلى ساحة "جامع لفنا" –كانت عملية الإعدام أيضا قد حدثت في فاس (باب الشريعة/باب المحروق) في عهد المرينيين -. انتشرت هذه الطائفة انتشارا واسعا خاصة في المناطق الشرقية للمغرب ، وهددت السلطة المسؤولة عن حماية الشريعة ، واعتبرها الموروث الذهني التاريخي خارجة عن الدين: بدعوية ، وبالتالي فهي ضالة ومصيرها إلى النار. أتباعها امتازوا بالتجوال ، والبساطة في العيش ، والخروج عن التقنينات التشريعية الإسلامية: "وقد اختلقوا بدعتهم من ترك الصلاة واستباحة الزنا والدياثة والقيادة..."[٣٥] ، آمنوا بشيوعية المرأة التي أصبحت كما يقول اليوسي[٣٦] "كالسجادة ، صلّ ، وأعط أخاك يصلي..." ، كما آمنوا بشيوعية المال والإنتاج الاقتصادي ، لذا نراهم يقضون معظم أوقاتهم بالبوادي ، يترددون على مناطق الإنتاج "للاستفادة" منها بطريقتهم الخاصة ، كما اعتمدوا طريقة خاصة في اللباس ، وترديد طقوس سرية مغلقة خاصة بهم ، حتى إنهم أصبحوا ظاهرة مثيرة للانتباه ، حيث جلبوا إليهم مجموعة كبيرة من اليائسين في المجتمع[٣٧] ، وهو ما يفسر أن أحد رؤوس البدعة (أبا عبد الله الومغاري) –الذي عاصر المنصور السعدي –ادعى الشرافة. قال عنه ابن القاضي: "وهو رأس الطائفة الأندلسية الملعونة ، ولقد شاهدت بمدينة مكناس ثلة عظيمة في الدين ، أجلسوه على كرسي بجامعها الأعظم ، وهو يتكلم في التصوف بزعمه ، ويضل العامة بمذهبه الشنيع."[٣٨] فالظاهر إذن أن الطائفة عرفت انتشارا كبيرا بين العامة ، وإلا بماذا يفسر جلوس رئيسها على كرسي الجامع الأعظم بمكناس؟ كما أنها لم تتردد في اغتيال معارضيها من الفقهاء ، كما حدث مع أحمد الصغير الذي كتب بعض الوريقات ردا على أفكارها[٣٩] ، مما يدل على الصراع المستحكم بينها وبين الفقهاء ، إذ علاوة على أحمد الصغير المذكور ، كتب أبو القاسم بن سلطان القسنطيني[٤٠] كتابا في مجلدين للرد على هذه الطائفة[٤١] ، بل إن ابن

القاضي نفسه حذر في مناسبتين من رئيسها أبي عبد الله الومغاري: "وإنما ذكرته لأحذر منه"[٤٢] ، "وإنما أطلنا في ذكر هذا الخبيث واشياعه ، ليتحفظ منه لانطماس بصيرته ، وإعماء عيني قلبه."[٤٣]

إن مراجعة المصادر التي عاصرت ازدهار الحركة ، تجعلنا نستنتج مباشرة أنها وازت القرنين ١٦م و١٧م ، أي عندما كانت الوضعية الروحية للمجتمع المغربي وضعية انقسامية طائفية ، مرتبطة بوضعية السلطة السياسية ، قبل توحيد المغرب سياسيا في العهد العلوي الأول. إلا أن الأمور لم تتم تصفيتها وتسويتها نهائيا ، بل استمرت في صور وأشكال أخرى ، مما جعلها تثير انتباه المؤرخين المغاربة ، ومن بينهم الناصري الذي سجلها لنا باعتبارها مسألة وطنية دينية روحية ، لها أهميتها في التراب المغربي كله ، ولكن أهمية تسجيله لها ترجع إلى رفض هذه الظاهرة من طرف أهل الحل والعقد ، سواء على مستوى السلطة العليا سياسيا ، أو على مستوى محاربة الفقهاء ورجال التشريع لها ، أو على مستوى رجال التصوف المعترف بهم عند الفقهاء والسلطة الرسمية ، والسواد العام التابع للنظام السياسي الحاكم.

مسألة البدعة واقعة تاريخية في المجتمع الإسلامي ومن ضمنه المغربي على طول تاريخه ، وهي تتخذ مضامين مختلفة ومتعددة حسب المستجدات التاريخية ، حاولنا رصد نموذج عنها ، لكنها لا تنتهي أو تموت ، بل تتجدد مع الأحداث والوقائع ، وهو ما يفسر أن الناصري تحدث عنها ، رغم أن مرحلتها التاريخية الحقيقية سبقته بمدة طويلة ، وهي المرحلة التي حددناها بنصوص مرجعيته (من القرن ١٠هـ/١٦م إلى القرن ١٢هـ/١٨م). وما يؤرخ له الناصري هنا ، هو في الواقع ما يمكن نعته بالمنسي في تاريخ المغرب ، أو ما أرغم على نسيانه تحت صفة "البدعة" ، وينبغي بالتالي محوه من الذاكرة الجماعية وكأنه وقع على هامشها ، ولنا أن نتذكر هنا نموذج برغواطة التي اتفقت النصوص –رغم قلتها –على بدعويتها أو تكفيرها ، وأهملها التاريخ الرسمي وكأنها توجد خارج المجال التاريخي المغربي.

الهوامش والإحالات

١ -حول التطور/التكور يراجع سمير أمين ضمن مجلة الوحدة ، ع.٤٢ ، مارس ١٩٨٨ ، ص.١٧٠.

٢ - بصدد اختيار المجتمع للرموز التي يقدسها ، انظر أرنولد توينبي ، تاريخ البشرية ، ترجمة نيقولا زيادة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط.٢ ، ١٩٨٣ ، ج.١ ، ص١٨

٣ -دور لعبته وتفوقت فيه منذ العصر الوسيط. انظر محمد القبلي ، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧ ، ص١٥

٤ - قيام الدولة العلوية هو ثمرة تشكيل محور السلطة المركب من آيت يفلمان البربرية ، وبعض القبائل المعقلية العربية المنتشرة بين فيكيك وبوعرفة إلى حدود بني يزناسن.

٥ -تأسست أول شركة وهي شركة الهند الشرقية الهولندية باتحاد ثمان شركات صغيرة سنة ١٦٠٢م ، ثم أسست هولندا شركة الهند الغربية (١٦٢١م)، ثم أصدر لويس ١٤ قرار تأسيس شركة غينيا (١٦٨٥م)، كما أسست إنجلترا شركتي "الشمال" و"المشرق".

٦ -انظر دراستنا حول التمدين والسلطة ببلاد المغرب خلال القرنين ١هـ - ٢هـ/ ٧م –٨م ، وجدة ، ١٩٨٨ ، ص.٧٢ وما بعدها.

٧ -المرجع نفسه ص.١١٢ –١٣٠.

٨ -ابن عسكر ، محمد بن علي السريفي الشفشاوني (ت.٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م)، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق محمد حجي ، دار المغرب للتأليف والنشر ، ١٩٧٦م.

٩ -وفاة الملياني كانت سنة ٩٢٧هـ، وترجمته وردت عند ابن مريم في البستان الذي نشر أول مرة سنة ١٩٠٨م ، وفي ١٩١٠م نشر بالفرنسية ، ثم أعاد نشره بالعربية عبد الرحمان طريف. كما وردت الترجمة عند ابن القاضي في درة الحجال ، نشر علوش ، الرباط ، ١٩٣+٦ ، وطبعة أخرى حققها محمد الأحمدي أبو النور ، دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس ، ١٩٧٠م ، وسنعود للملياني لاحقا.

١٠ -أول من انتبه لظاهرة الطوائف بالمغرب هو أبو العباس أحمد بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسمطيني (القسنطيني)، صاحب أنس الفقير وعز الحقير ، الرباط ، ١٩٦٥م. وهو أيضا أول من استعمل كلمة "طائفة". انظر محمد القبلي ، قراءة في زمن أبي صالح ، ضمن: الدولة والولاية والمجال في المغرب – علائق وتفاعل ، سلسلة المعرفة التاريخية ، دار توبقال للنشر ، ١٩٩٧م ، ص.٨٥ – ١٠١. وابن قنفذ يرد أصل كل الطوائف إلى طوائف كبرى وهي: طائفة الشعيبيين نسبة إلى الشيخ ابي شعيب الصنهاجي دفين أزمور ، وطائفة الأمغاريين التابعة للشيخ عبد الله أمغار دفين عين الفطر ، وطائفة الماجريين وتنتسب لأبي محمد صالح بن ينصارن الدكالي ثم الماجري دفين آسفي ، ثم طائفة الأغماتيين أتباع أبي زيد الهزميري ، وطائفة الحاحيين أتباع أبي زكريا الحاحي.

١١ -حول مهدوية السعديين يراجع على سبيل العد لا الحصر: مجهول ، تاريخ الدولة السعدية الدرعية التكمدارتية ، نشر ج.كولان ، الرباط ، ١٩٣٤م. والإفراني ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، نشر هوداس ، ١٨٨٩م ، ثم طبعة الرباط ، ١٩٧٧م. ودييكو دي طوريس ، تاريخ الشرفاء ، ترجمة محمد الأخضر ومحمد حجي ، مطابع سلا ، ١٩٨٨م...

١٢ -محمد العربي الفاسي (ت.١٦٤٢م)، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن ، طبعة فاس الحجرية ، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.

١٣ -له كتاب الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت ، تحقيق ونشر قدوري.

١٤ -وهي توازي بحساب الجمّل: ١٠١٩هـ(بداية ثورةأبي محلي) و١٠٢٢هـ (سنة مقتله)، انظر الناصري ، الاستقصا ، ج.٦ ، ص.٣٤.

١٥ -القادري ، محمد بن الطيب (ت.١١٨٧هـ/١٧٧٣م)، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق ، نشر مكتبة الطالب ، الرباط ، ج.١ سنة ١٩٧٧م ، ثم صدرت الأجزاء: ٢-٣ –٤ بعد ذلك.

١٦ -حول التصوف الشعبي والفرق بينه وبين الجذب والملامتية يراجع: عبد الله نجمي ، من تاريخ التصوف المغربي في القرن ١٠هـ: الملامتية ، ضمن مجلة تاريخ المغرب ، ع.١ ، س.١ ، فبراير ، ١٩٨١م ، الرباط ، ص.١٥ –٥٧ ، ثم متابعة القضية ضمن العدد ٥ من مجلة تاريخ المغرب ، نونبر ١٩٩٤م.

١٧ - الاستقصا ، ج.٧ ، ص.٧٧. وواضح أن الطائفة اتخذت أسماء عدة لمضمون واحد ، يشترك في البدعة. فشراكة/اليوسفية ، ينسبهم الناصري للملياني ، والعكاكزة ينسبون أيضا إليه. انظر: أحمد بوشرب ، أزمة ضمير المغربي خلال القرنين ١٦م و١٧م ، مجلة كلية الآداب ، فاس ، ع.٢ ، ١٩٨٥م ، ص.٩٣. ومحمد المنوني ، ورقات عن الحضارة المغربية في عص بني مرين ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، مطابع الأطلس ، الرباط ، صص.٢٤٦ –٢٦٧. وابن القاضي ، درة الحجال في غرة أسماء الرجال ، ١٩٧٠م ، ج.٢ ، صص.٣٥ –٣٦ ، حيث يتكلم أيضا عن الطائفة الأندلسية نسبة لمحمد الأندلسي "مخترع البدعة العظيمة المضرة بالسنة السمحة." والذي قتل بمراكش (حول مقتله يراجع أيضا الناصري ، ج.٥ ، ص.٥٠ ، حيث ينسب قتله للغالب ، والصحيح أن قتله كان بأمر ابنه محمد المتوكل كما عند ابن القاضي وابن عسكر)، أما عن طائفة اليوسفية فيراجع: درة الحجال ، ج.١ ، صص.١٦٤ –١٦٥.

١٨ - أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي صاحب "دلائل الخيرات" (ت.٨٧٠هـ/١٤٦٥م)، سمي أصحابه بالمُريدين، بالضم، قال زروق: "وما أحقها بالفتح"، انظر الناصري، ج.٤، ص.١٢٢. وقد أرخ له محمد المهدي الفاسي (ت.١١٠٩هـ/١٦٩٨م) في كتاب: ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، الذي طبع على الحجر بفاس، ١٣١٣هـ، ثم حققه عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، مطبعة محمد الخامس، فاس، ١٩٨٩م. كما أرخ له عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي (ت.١٠٩٦هـ/١٦٨٥م) في كتابه: ابتهاج القلوب بخبلا أبي المحاسن وشيخه المجذوب، مخطوط بالخزانة العامة، ك٣٢٦. والجزولي هو الذي رسخ الطريقة الشاذلية (مؤسسها أبو الحسن الشاذلي صاحب الحزب الكبير)، وهو الذي جمع "حزب الفلاح".

١٩ -خلف لنا ابن تومرت تعاليمه في كتابيه: "أعز ما يطلب" و"الموطأ".

٢٠ - عن علاقة التنافر التي تربط المتصوف بالسلطة، وعلاقة التعارض بين المتصوف والفقيه، يمكن الإحالة هنا على نموذج من المتصوفة الأوائل بالمغرب وهو أبو محمد صالح دفين آسفي. انظر محمد القبلي، قراءة في زمن أبي محمد صالح، ضمن الدولة والولاية، صص.٨٧ —٨٨، وص.٩٢، وكيف أن الفقهاء قد بدّعوه، والسلطة حاولت احتواءه. ص.٩٩—١٠١.

٢١ -ترتكز التراتبية الصوفية على المرور بمراحل: من الذكر إلى التفكّر إلى الفقر فالوجدان. ويتركب السلم الصوفي من: الفقراء فالنجباء فالأبدال فالأعلام ثم الأقطاب.

٢٢ -لا تكاد تفتح كتابا من كتب المناقب التي ذكرنا بعضها حتى تجده يغص بالعديد من النماذج التي نتحدث عنها: سيدي سعيد، وعبد العزيز التباع، وعبد الرحمان المجذوب، والغزواني، وابن عيسى، والهبطي، وأبو الرواين، وغيرهم كثير... ولنا أن نتذكر هنا سيرة سيدي عجال الغزواني وصراعه مع بني وطاس ورفضه لحكمهم عند: المهدي الفاسي، ممتع الأسماع، ط.١٩٨٧، صص.٤٢ — ٤٣.

أما إذا اتفقت المؤسستان: المخزنية والفقهية، على تبديع فرقة صوفية، فإن أتباعها يستتابوا أو يقتلوا، كما حصل مع العكاكزة زمن بني مرين. انظر معيار الونشريسي، ج.٢، ص.٣٥٢ —٣٥٨ — ٤٢٣. والمنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، البيضاء، ط.٣، صص.٤٢٣ —٤٢٤.

٢٣ -هناك التقاء غريب بين حركة الدوارين التي نتحدث عنها، وحركة الدوارين "سيركونسليون" التي ظهرت في تاريخ المغرب القديم (ق.٤م). انظر عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط.٤، ١٩٩٤م، ص.٨٨. وكذا محمد المبكر، القديس أغسطينوس وقضية العلاقات بين الدوارين والدوناتية، مجلة كلية الآدب، فاس، ع.٢، ١٩٨٥م، ص.١٩ وما بعدها. كما قام البعض بمناقشة العلاقة بين حركة الدوارين وحركات الخوارج، انظر: محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن ٤هـ، دار اليقافة، الدار البيضاء، ط.٢، ١٩٨٥م، صص.٢١٧—٢١٨.

٢٤ -رصد عبد الرحمان الفاسي العديد من الأعمال والخوارق التي كان يقوم بها بعض "المشعوذين"، كأكل الصابون، والدخول إلى الأفران، والوثب من أماكن عالية... دون أن يقع لهم أي ضرر، لكنه نزه "الأولياء" عن فعلها. انظر: ابتهاج القلوب بخبر أبي المحاسن وشيخه المجذوب، مخطوط بالخزانة العامة، ك٣٢٦، صص.١١٠—١١١.

٢٥ -معروف أن ابن عسكر شهد معركة وادي المخازن إلى جانب محمد المتوكل والبرتغال، وقتل فيها. قال عنه بروفنصال بأن كل تصوفه وأوليائه لم ينجياه من أن يقف إلى جانب الفرقة الهالكة. انظر ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٧م، مادة ابن عسكر.

٢٦ -نقول هذا بتحفظ شديد، لأننا نعلم أن التصوف نشأ أصلا بالمشرق، لكننا نعلم أيضا بأن الأسرة القادرية، مثلا، جاءت من العراق، ومرت على صقلية ثم الأندلس فشمال المغرب قبل أن تستقر بفاس، وتبنت الطريقة الجزولية: فهل يؤيد هذا ما نقول، أي أنه لم تأت بصوفية "شرقية" بل اندمجت ضمن المنتوج الصوفي المحلي المغربي؟

٢٧ -ولد بفاس عام ١١٢٤هـ/١٧١٢م، اشتغل بالتدريس بجامع الأندلس، (جامع القرويين كان إمامه عادة من الأسرة الفاسية)، عاصر عهد السلطان إسماعيل ثم ابنه عبد الله ثم محمد بن عبد الله. وتوفي القادري سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م.

٢٨ - من أهمهم علماء عاصروا القادري مثل الحسن اليوسي وعبد السلام جسوس... انظر بهذا الصدد محمد ضريف، مؤسسة السلطان الشريف —محاولة في التركيب، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٨٨م، صص.٥٤ —٥٥.

٢٩ -التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الثانية والحادية عشر، وقد حققه هاشم العلوي لنيل دبلوم الدراسات العليا، نوقشت الرسالة سنة ١٩٧٩، وطبع الكتاب بعد ذلك.

٣٠ -أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م. نذكر هنا بأن كتاب التشوف إلى رجال التصوف، الذي كتبه ابن الزيات (أبو يعقوب بن يوسف بن يحي التادلي) سنة ٦١٧هـ هو من المصادر الأولى التي عالجت مناقب المتصوفة الأوائل بالمغرب. وقد حققه أحمد التوفيق، الرباط، ١٩٨٤م. وتناولته بالدراسة مجموعة من الباحثين ضمن: التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي١، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٩م.

٣١ -راجع ما كتبناه بخصوص تأثير العادات الشعبية في الإسلام ببلاد المغرب منذ فترات مبكرة (القرنين ١و٢هـ/٧و٨م) ضمن التمدين السلطة، ص.١٩٣ — ١٩٧.

٣٢ -نعرف سلفا، حسب مضمون الحديث النبوي، أن شر الأمور محدثاتها، وأن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

٣٣ -يراجع عن الروافض: عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، دار الآفاق الجديدة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٣، ص.٣٩ وما بعدها. وكذا الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت. وقد كتب ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل — وبهامشه الملل والنحل، للشهرستاني، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٥م. ويكفي أن ابن تيمية قد ألف كتابا للرد على الشيعة وخاصة منهم الروافض، انظر: منهاج السنة في نقض كلام الشيعة والقدرية، بولاق —المطبعة الأميرية، ١٣٢١هـ

٣٤ -نذكر هنا بأن الناصري أيضا التزم بالتصوف وزيارة الأولياء والأضرحة. راجع ظروف وفاته، عند استعداده لزيارة ضريح عبد السلام بن مشيش، ضمن سيرة حياته في الاستقصا، ج.١، ص.٤٠.

٣٥ -درة الحجال، ج.١، صص.١٦٤ —١٦٥. لاحظ ما يرويه الحسن الوزان، عند زيارته لمصر، عن مجامعة بعض المتصوفة/المجاذيب للنساء أمام العموم الذين كانوا يرون في ذلك مسألة مقدسة. انظر الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف الترجمة والنشر، الرباط، ١٩٨٠م، ج.١، ص.٢١١. لكن: لماذا تُقدّس العملية هنا وتُبدّع (من البدعة) هناك؟

٣٦ -انظر رسالة العكاكزة ضمن الرسائل التي نشرتها فاطمة القبلي، ج.١. انظر أيضا: أحمد بوشرب، أزمة ضمير المغربي، مرجع سابق، صص.٩٢ — ٩٣، حيث يتساء عن أثر مجاعة ١٥٢١م، ووباء ١٥٢٢م، في ظهور الحركة وانتشارها. ونحن لا نرى ذلك لأن الوباء والمجاعة ظاهرتان تكررتا باستمرار قبل وبعد هذا التاريخ.

٣٧ -محورهم خليط من العناصر، بدء بمجموعة أولاد عيسى "شراكة" قرب فاس، وانتهاء بأولاد عيسى في منطقة "الرتب" بتافيلالت. والمجموعتان، رغم تشابه الأسماء، هما متباينتان في الأصل السلالي، كما أنهما متباعدتان جغرافيا، لكنهما متشابهتان في التنظيم.

٣٨ -درة الحجال، ج.٣، ص.١٦٨.

٣٩ -نفسه، ج.٢، ص.٣٧.

٤٠ -دليل على أن الطائفة انتشرت بالمغرب الأوسط أيضا.

٤١ -درة الحجال، ج.٣، ص.٢٠٨.

٤٢ -نفسه، ج.٣، ص.١٦١.

٤٣ -نفسه، ج.٢، ص.٣٧.



دعوة للمشاركة في كتاب



الأخوات والأخوة أبناء الوطن الفلسطيني

تحية طيبة وبعد

نفيدكم أن مكتب الشرق الأوسط للصحافة بصدد إصدار كتاب جديد بعنوان:

(أمجادهم ... أمجادنا)

يتضمن الكتاب نبذة عن مجموعة من الشخصيات الفلسطينية، أمثال:

عبد القادر الحسيني، حسن سلامة، الشيخ عز الدين القسام، الرئيس ياسر عرفات، الشيخ احمد ياسين، ألشقاقي، دلال المغربي، فخري ألبرغوثي، محمود درويش، سليمان النجاب، المؤرخ الفلسطيني عارف العارف، د.جورج حبش، سعيد العتبة، أبو علي يطا، المطران عطا الله حنا، مي زيادة، د. طلال أبو غزاله، فدوى طوقان، غسان كنفاني، سميحة خليل، كريم خلف، صلاح حكمت المصري، الشيخ عبد القادر عابدين، أنور نسيبه.فهد القواسمي،هند الحسيني، الشيخ محمد أبو صخر ومن الشهداء والأسرى... وغيرهم من الذين لهم بصمات على مسيرة الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة.

نرحب بمساهماتكم لإثراء هذا العمل الثقافي التاريخي التوثيقي بتزويدنا بما لديكم من معلومات وصور خاصة بقادة ومبدعين وشهداء وأسرى حتى نفي لهم بعضا من حقهم علينا على العنوان الكتروني أدناه

تلفاكس: 0097222959942 – 00972598619955 - 00972599677213

للتواصل والمشاركة : Press1955@yahoo.com

رام الله - فلسطين

ولكم الشكر والاحترام



الأوائل

للإمام الحافظ:

أبي عَرُوبةُ الحُسَيْن بن أبي مَعْشَرِ الحرّاني

حققه واعتنى به

أبو المنذر سامي أنور جاهين المصريِ الشافعي

من نوادر التراث الإسلامي

من نوادر التراث الإسلامي

سامي أنور خليل خميس جاهين

مراسل صحفي وكاتب وباحث إسلامي

جمهورية مصر العربية

msamy_21@hotmail.com

- مقدمة المحقق
- مَخْطُوطُ الأوَائِلُ
- ترجمة المصنِّف
- ترجمة رواة المصنّف
- موضوعات كتاب الأوائل
- مجهود التحقيق

مقدمة المحقق

ولَمَا كانَتْ البِدايَة فِكرة مُثِيرة ، وللنفُوسِ إليها وَمَعرِفتِهَا رَغْبَةً كَبيرةً ، فإنَّ فِيهَا كَشْفاً للمَجْهُولِ ، وَتَزْويداً للعُلوم بالأُسُسِ وَالأُصُولِ ، فَقَدْ اهْتَم بالبَحْثِ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنْ العُلَمَاء وَطَرَقُوا هَذَا البَابُ بَحْثاً حَثِيثاً عَنْ أَوَّلِ الأَسْبَابِ ، وَاعْلَم أنَّ بَحْثَ الأَوَائِلِ مِنْ أَبْحَاثِ التَّارِيخِ ، بَلْ إِنَّهُ بِدَايَةُ التَّأرِيخِ ، وَلِذَا يَجِبُ عَلَيْنَا أنْ نَنْظُرُ إِلَيْهِ وَنَتَعَامَلُ مَعَ آثَارِ إِثْبَاتِ الأَوَائِلِ مِنْ هَذِهِ الوَجهَةُ التَّارِيخِية ، وإنَّه البَحْثُ والتَّدوين والإِثْبَاتُ والنَّفي وَالقِصَّةَ وَالحِكَايَةَ وَالزِيَادَةُ وَ النَّقصِ وَالأَخْبَارَ وَالشُّهْرَةُ وَالانْدِثَارُ وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَأَعظَمُ الرِّوَايَاتِ فِي تَارِيخِ البَشَرِيَةِ وَأَثْبَتَهَا وَأَدَقهَا وأضْبَطهَا هي نُصُوصُ القُرآنِ الكَرِيمِ ، وَيَأتِي فِي المَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَهَا حَدِيثُ سَيِّدُ الكُلِّ في الكُلِّ المُصْطَفى عَلَيهِ أَفْضَلِ الصَّلَوَاتِ وَأَكْمَلِ التَّسْلِيمَاتِ ، ثُمَّ تَتَوالى دَرَجَاتِ الوَارِدَاتِ وَتَتَفَاوَتُ مِنْ حَيْثُ النَّفْيِ وَالإثْبَاتِ إلى أبعَدْ الدَّرَجَاتِ ، ثُمَّ لا تَبْقَى بَعْدَ ذَلِكَ إلا القِصَّةَ وَالحِكَايَةَ التي لا يُعْلمُ لَهَا بِدَايَةٌ .

إلا أنَّ عُلَمَاءَ المُسْلِمِينِ – رَحِمَهُم الله تَعَالى وَرَضْي عَنهُم – كَانَ لَهُم اهْتِمَامٌ كَبِيرٌ مِنْ البدايةِ بالبدايةِ ، وَمَنْ بَحَثَ مِنْهُم عَنْهَا أَثْبَتَهَا وَأَسْنَدَهَا ، وَهَذَا يَعْكِسُ مَدَى الحِرْصَ وَالأَمَانَةَ العِلْمِية فِي الحَدِيْثِ عَنْ التُّرَاثِ ، وَيُبَرْهِنُ عَلَى إِنَّه لا يَحِلُّ المِيرَاثِ بِلا نِسْبَةٍ وَأَصْلٍ وَأَسَاسٍ ، وَلَكِنْ شَتَّانَ بَيْنَ مَا بَذَلوهُ مِنْ جُهدٍ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَبَيْنَ كَلامِ النَّاسِ .

إِنَّهَا البِدَايَةُ وَإِنَّهُم الأَوَائِلُ : أَحْدَاثُ وَشَخْصِياتُ كَتَبَ عَنْهَا التَّارِيخ .. لا شَكَ إِنَّهَا الحِكَايَةُ الشَّيِّقَةُ وَالمُثِيرةُ. وَقَدْ اهْتَم بِهَذَا اللَونُ مِنَ التَّصْنِيفِ الكَثِيرِ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ . مِنْهُم :

- ابن قُتَيْبَةَ المُتوفى سَنَة ٢٧٦ هـ .
- ابن أبي عَاصِم المُتوفى سَنَة ٢٨٧ هـ .
- أبو هِلال العَسْكَرِي المُتوفى سَنَة ٣٩٥ هـ . هـ .
- الطَّبَرَانِي المُتوفى سَنَة ٣٦٠ هـ .
- الجَرَاعِي الحَنْبَلِي المُتوفى سَنَة ٨٨٣ هـ .
- السُّيُوطِي المُتوفى سَنَة ٩١١ هـ .

وَقَدْ صَنَّفُوا هُمْ وَغَيْرهِم في هذا البَابُ الشَّيْقِ الكَثِيرِ مِنَ التَّصَانِيفِ ،ولا أُطِيلُ الحَدِيثُ عَنْ ذِكرِ مُوَاصَفَاتِ هَذِه الكُتُبُ وَغَيْرِهَا وَمُصَنِّفِيهَا وَغَيْر ذَلِكَ ، لأَنَنَا لَسْنَا بِأَهْلٍ لِذَلِكَ ، وَهَذَا المَقَامُ لَيْسَ مَحَلَ بَحْثِنَا وَلا الهَدَفُ مِنْ عَمَلِنَا. إلا أَنَّنَا نُحْسِنُ الأَدَبَ بِذِكرِ الجَمِيْعِ بِالخَيْرِ ، وَنَشْكُرُ الجَمِيْعِ عَلَى مَا قَدمُوهُ مِنْ أَخْبَارٍ وَعُلومٍ وَفُهُومٍ أَثْرَتْ الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةِ بِتُرَاثٍ مُنقَطِعِ النَّظِيرِ جَعَلتهَا أُمَّةً عَزِيْزَةً فَرِيْدَةً مُتَمَيْزَةً عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الأُمَمِ. ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلَفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ سورة مَرْيَم [٥٩ – ٦٠]

وَالحَدِيْثُ عَنْ كِتَابِ (الأَوَائِلُ) لأبي عَرُوبَةُ الحُسَيْنِ بن أبي مَعْشَرِ الحَرَّانِي رَحِمَهُ الله تَعَالى لَهُ شُجُونٌ ، فَإِنَّهُ – بحقٍ – كِتَابٌ فَرِيدٌ نَلْمَحُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ لَمَسَاتٍ فَنِيَةٍ بَارِعَةٍ مَيَّزَتْهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الكُتبِ فِي هَذَا البَابُ ، فَتَرَاهُ مَثَلاً يبتدىء كِتَابَهُ بِذِكرِ الأَوَّلُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى ، ثُمَّ التَّسَلسُلُ اللطِيفُ في عَرضِ الأوَائِلُ ، فَيَسْتَعْرِضُ بَعْدَ الخَالِقُ أَوَائِلَ المَخْلوقَاتِ وَالأَنْبِيَاءِ ، وَيُقَدِّمُ في الأَبْنِيَةِ المَسجِدِ الحَرَامِ ، ثُمَّ الخَطَّ وَالكِتَابَةَ وَهِي إِشَارَةٌ إلى العِلْمِ وَمَا لَهُ مِنْ فَضْلٍ عَظِيْمٍ ، ثُمَّ الحَدَّ الفَاصِلَ وَالحَدَثَ الجَلِيلِ بَيْنَ البِدَايَتَيْنِ لِلعَالَمِ الكَائِنِ ألا وَهُوَ طُوفَانُ نُوحٍ عَليْهِ السَّلامِ ، فالبِدَايَةِ الأُولى كانت بِسَيِدِنَا آدم عَليْهِ السَّلامِ ، ثُمَّ البِدَايَةُ الثَّانِيَةِ وَكانت بآدم الثَّانِي وَهُوَ سَيِدِنَا نُوح عَليْهِ السَّلامِ.

وَمِنْ مُمَيِزَاتِ هَذَا الكِتَابُ أَيْضَاً اسْتِعْرَاضُهُ الرَّشِيْقُ المُتَنَاسِقُ وَكَثْرَةُ الشَّرْعِيَاتِ فِيْهِ مِثْلَ : الوضُوء – الصَّلاةُ – الصَّدَقَاتِ – الحِجَ – المُعَامَلاتِ – العِبَادَاتِ – الجِهَادَ – السِّيْرَةُ النَّبَوِيةِ الشَّرِيفَةِ – النِّكَاح – الطَّلاقِ – عَلامَاتُ السَّاعَةُ - الفِرَقِ كالخَوَارجِ وَالقَدَرِيَةِ وَالمُرْجِئَةِ – وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ المُمْتِعِ الكَثِيْرِ الذي يَجْعَلُ هَذَا الكِتَابُ مِنْ أَبْدَعِ مَا اَطَّلَعْتُ عَليْهِ مِنْ كُتبِ الأوَائِلِ مِنْ النَّاحِيَةِ الفَنِيَةِ.

مَخْطُوطُ الأوَائِلُ

أَمَا عَنْ مَخْطُوطِ (الأَوَائِلِ) لأبي عَرُوبَةُ رَحِمَهُ اللهِ : هَذَا الكِتَابُ الفَرِيْدِ فِي عَرْضِ مَوْضُوعِهِ وَشُمُولِيَتِهِ وَصَبْغَتِهِ الشَّرْعِيَةِ الزَّاهِيَةِ ، فَإِنَّهُ يَتَكَونُ مِنْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَرَقَةٍ مِنَ القطعِ الصَّغِيْرِ ، وَالوَرَقَةِ مِنْ صَفْحَتَيْنِ ، الصَّفْحَةُ خَمْسَةَ عَشْرَ سَطْرَاً ، عَلَى الصَّفْحَةِ الأُولى مِنْهُ – كَمَا هُوَ مُصَورُ هُنَا – أَسْمَاءِ رُوَاةِ الكِتَابِ عَنْ مُصَنِفِهِ .

وَعَلَيْهَا : (وعلى هذه النسخة المنقول منها نسخ عديدة بسماع على مشايخ عديدة ا. هـ) ، وقد أتحفني بصورة منها أحد الإخوان النابغين النشيطين في ملاحقة الفريد من مخطوطات التراث ، وصاحب أفضال كبيرة عليَّ منذ أن تشرَّفتُ بمعرفته – نفعنا الله به في الدنيا والدين – وهو فضيلة الشيخ الكريم : صلاح بن محمد بن خراش الشلاحي حفظه الله تعالى ، وهو من أبناء دولة الكويت الشقيقة .

وقد نَسَب كتاب (الأوائل) لأبي عروبة رحمه الله السيد الشريف محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله قائلاً في رسالته المستطرفة: و(الأمثال) و (الأوائل) لأبي عروبة الحسين بن محمد بن مودود بن حماد السلمي الحراني الحافظ ا. هـ.

ولكتاب (الأوائل) مخطوط محفظ في الهيئة المصرية العامة للكتاب (دار الكتب المصرية) تحت رقم (٣٥٨) حديث تيمور.

ترجمة المصنِّف

الإمام الحافظ المعمَّر الصادق أبو عروبة الحسين – وقيل الحسن – بن محمد بن أبي معشر مودود بن حماد السلمي الجزري الحرَّاني .. صاحب التصانيف. وُلِدَ بعد العشرين ومائتين ، وكان أوَّلُ سماعه في سنة سِتٍّ وثلاثين ومائتين.

سمع مخلد بن مالك السلمسيني ، ومحمد بن الحارث الرافقي ، ومحمد بن وهب ابن أبي كريمة ، وإسماعيل بن موسى الفزاري ، وعبد الجبار بن العلاء ، والمسيب بن واضح ، وأحمد بن بكار بن أبي ميمونة ، ومحمد ابن سعيد بن حماد الأنصاري ، وأبا يوسف محمد بن أحمد الصيدلاني ، ومحمد بن زنبور المكي ، وأيوب بن محمد الوزَّان ، وعمرو بن عثمان الحمصي ، وكثير بن عُبَيْدٍ ، وأبا نعيم عبيد بن هشام الحلبي ، ومعلل بن نفيل النهدي صاحب زهير بن معاوية ، ومحمد بن بشار ، وعبد الوهاب بن الضحك ، ومحمد بن مصفى الحمصي ، وخلقاً سواهم بالجزيرة والشام والحجاز والعراق.

حَدَّثَ عنه : أبو حاتم بن حبان ، وأبو أحمد بن عدي ، وأبو الحسين محمد بن المظفَّر ، والقاضي أبو بكر الأبهري ، وعمر بن علي القطَّان ، وأبو أحمد الحاكم ، وأبو مسلم عبد الرحمن بن محمد بن مهران ، وأحمد بن محمد بن الجَّراح المصري ابن النحاس ، وأبو بكر

بن المقريء ، وأبو الحسن علي بن الحسن بن علاَّن الحراني ، وأبو علي سعيد بن عثمان بن السَّكن ، وأبو بكر أحمد بن محمد بن السُّنِّي ، وأبو الشيخ بن حيَّان ، وأبو الحسن محمد بن الحسين الآبُرِّي ، ومحمد بن جعفر البغدادي – غُنْدَرُ الوَرَّاق ، وأبو الفتح محمد بن الحسين بن بُرَيْدَة الأزدي . وخلقٌ سواهم.

قال ابن عدي : كان عارفاً بالرجال وبالحديث ، وكان مع ذلك مفتي أهل حَرَّان. وقال أبو أحمد الحاكم في الكنى: كان من أثبت من أدركناه وأحسنهم حفظاً يرجع إلى حسن المعرفة بالحديث والفقه والكلام.

ذكره أبو القاسم بن عساكر في ترجمة معاوية ، فقال: "كان أبو عروبة غالياً في التَّشَيُّع شديد الميل على بني أميَّة ". وردَّ عليه الإمام الذهبي في السِّير قائلاً : "كل مَنْ أحب الشيخين فليس بغالٍ ، بلى من تعرض لهما بشيء من تَنَقُّصٍ فإنه رافضيٌ غَالٍ ، فإنْ سبَّ فهو مِنْ شِرَارِ الرَّافضة ، فإن كفَّر فقد باء بالكفر واستحق الخزي ، وأبو عروبة من أين يجيئه الغلو وهو صاحب حديث وحرَّاني ، بلى لعلَّه ينال من المروانية . فيعذر " ا.هـ.

صَنَّفَ أبو عروبة رحمه الله تعالى مصنفات جليلةً منها: (الطبقات)و(تاريخ الجزيرة)و(الأمثال)و(الأوائل) هذا الكتاب و(الأمالي في الحديث) و(تاريخ الجزيرتين). وتُوفي رحمة الله تعالى عليه سنة ثماني عشرة وثلاثمائة من الهجرة النبوية الشريفة عن عُمْرٍ يقارب المائة سنةٍ.

ترجمة رواة المصنِّف

أبو بكر محمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم المقريء الأصبهاني

الشيخ الحافظ الجوَّال الصدوق مُسْنِدُ الوقت ، صاحب المعجم والرحلة الواسعة ، وُلِدَ سنة خمسٍ وثمانين ومائتين ، وكان أوَّل سماعه على رأس الثلاثمائة ،سمع من : محمد بن نصير بن أبان المديني ، ومحمد بن علي الفرقدي صاحبي إسماعيل بن عمر البجلي وأول من كتب عن إبراهيم بن محمد بن الحسن بن مَتُّوَيْه الإمام وغيرهم خلقٌ كثير.

حَدَّث عنه : أبو إسحاق بن حمزة الحافظ ، وأبو الشيخ بن حيان وهما أكبر منه ، وأبو بكر بن مردويه وغيرهم خلقٌ كثيرٌ . قال ابن مَرْدَوَيْه في تاريخه : " ثقةٌ مأمونٌ صاحب أصولٍ ". قال أبو طاهر بن سلمة : سمعت ابن المقريء ، يقول : " دخلت بيت المقدس عشر مرات ، وحججت أربع حجات ، وأقمت بمكة خمسةً وعشرين شهراً ". قال أبو طاهر بن سلمة : سمعت ابن المقريء ، يقول : " استلمت الحجر في ليلةٍ مائةً وخمسين مرةً ".

وروي عن أبي بكر بن أبي علي ، قال : كان ابن المقريء ، يقول : " كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ بالمدينة فضاق بنا الوقت فواصلنا ذلك اليوم ، فلما كان وقت العشاء حضرتُ القبر . وقلت : يا رسول الله الجوع .. فقال لي الطبراني : " اجلس فإما يكون الرزق أوالموت " فقمت أنا والشيخ فحضر الباب عَلَوِيٌ ففتحنا له ، فإذا معه غلامان بقفتين فيهما شئٌ كثيرٌ ، وقال : شكوتماني إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم !. رأيته في النوم فأمرني بحمل شئ إليكم. تُوفى رحمه الله تعالى في شهر شوال سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وله ستٌ وتسعون سنةً .

الشيخ العلاَّمة النحوي المفسِّر المعتزلي أبو مسلم محمد بن علي بن محمد بن الحسين بن مُهْرَ بزْدٍ الأصبهاني: صاحب التفسير الكبير الذي هو في عشرين سفراً ، كان آخر من حدَّث بأصبهان عن أبي بكر بن المقريء ، قال الحافظ يحيى بن منده : "كان عارفاً بالنحو غالياً في مذهب الاعتزال " ، قال محمد بن عبد الواحد الدَّقَّاق : " سألته عن مولده " . فقال : " في سنة ست وستين وثلاثمائة " ، ونقل الإمام الذهبي عن الدَّقَّاق : سألته عن مولده . فقال : " في سنة ست وستين وثلاثمائة .. وقال الإمام الذهبي : " آخر من حدَّث عن المعمِّر إسماعيل بن علي الحمامي يروي عنه نسخة مأمون ، وروى عنه ناصر – بضاد معجمة – بن محمد بن محمد المديني وعدد من مشيخة السِّلَفيّ الصغار ". مات رحمه الله تعالى في جمادى الآخرة سنة تسعٍ وخمسين وأربعمائة ، وتفسيره كان بمصر للإمام أشرف المُرْسي .. عاش ثلاثاً وتسعين سنة. ومِمَّن يروي عنه : سعد بن أبي الرجاء الصيرفي ، والحسين الخَلاَّل ، ومحمد بن حمد الكبريتي .

الإمام المحدِّث المفيد الحافظ المسند أبو سعد محمد بن عبد الواحد بن عبد الوهاب بن حسين الأصبهاني الصائغ :

ولد سنة سبعٍ وتسعين وأربعمائة ، سمع من غانم البرجي ، وحمزة بن العباس العلوِيّ ، وجعفر بن عبد الواحد الثقفي .. وغيرهم كثير.

روي عنه : السمعاني ، وعبد الغني المقدسي ، وأبو نزار ربيعة اليمني ، وجماعة ، وبالإجازة كريمة وطائفةٌ. مات رحمه الله في الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة .

الإمام العالم الحافظ الكبير الصادق القدوة العابد الأثري المتَّبَع عالم الحفاظ تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور ابن رافع بن حسن بن جعفر المقدسي الجَمَّاعيلي ثم الدمشقي المنشأ الصالحي الحنبلي :

[صاحب (الأحكام الكبرى)و (الصغرى)] ، ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة بجمَّاعيل ، سمع الكثير بدمشق والأسكندرية وبيت المقدس ومصر وبغداد وحرَّان والموصل وأصبهان وهمدان وكتب الكثير ، سمع أبا الفتح ابن البطي ، وأبا الحسن علي بن رباح الفرَّاء ، والشيخ عبد القادر الجيلاني وغيرهم كثير .

حدَّث عنه الشيخ الفقيه محمد اليونيني ، والحافظ الضياء ، والشهاب القوصي وغيرهم كثير ، من تصانيفه :

– المصباح في عيون الأحاديث الصحاح .
– الآثار المرضيَّة في فضائل خير البرية – أربعة أجزاء .
– اعتقاد الشافعي – جزء . . . وغير ذلك كثير ..

قال ضياء الدين : " كان شيخنا الحافظ لا يكاد يُسأل عن حديثٍ إلا ذكره وبيَّنه وذكر صحته أو سقمه ، ولا يُسأل عن رجلٍ إلا قال : " هو فلان بن فلان الفلاني ويذكر نسبه ". كان يصلي كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة ويقوم الليل ، ويحمل ما أمكنه إلى بيوت الأرامل واليتامى ، وضَعُفَ بصَرُهُ من كثرة البكاء والمطالعة ، وكان أوحد زمانه في علم الحديث.

ومن كراماته رحمه الله كما ذكرها الإمام الذهبي .. قال : قال الحافظ الضياء: سمعت الحافظ أبا موسى عبد الغني ، يقول : كنت مع والدي بمصر وهو يذكر فضائل سفيان الثوري ، فقلت في نفسي : إن والدي مثله ، فالتفت إليَّ ، وقال : أين نحن من أولئك ؟

وسمعت الرِّضِيَّ عبد الرحمن ، يقول : كان رجل قد أعطى الحافظ جاموساً في البَحْرَةِ – مكانٌ قرب دمشق – فقال لي: جيء به وبِعْهُ ، فمضيت فأخذته فَنَفَرَ كثيراً ، وبقى جماعة يضحكون منه ، فقلت : اللهم ببركة الحافظ سَهِّل أمره ، فسقته مع جاموسين فسَهُل

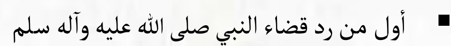
أمره ومشى فبعثه بقرية. تُوفى رحمه الله تعالى يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ستمائة.

الشيخ الفقيه عبد الحميد بن محمد بن ماضي الحنبلي :

ذكره الذهبي في (السير) فيمن تُوفى سنة تسع وثلاثين وستمائة ، قائلاً : والفقيه عبد الحميد بن محمد بن ماضي الحنبلي.

موضوعات كتاب الأوائل

- الأول سبحانه وتعالى
- أول الخلق
- أول جبل وضع في الأرض
- أول ماء وأول شجرة
- أول الأيام
- أول ما خلق من آدم
- أول من قاس
- أول ولد آدم عليه السلام
- أول الأنبياء
- أول الرسل
- أول من سن القتل
- أول مسجد وضع في الأرض
- أول من سكن القباب واقتنى المال
- أول من خط بالقلم
- أول مدينة بنيت بعد الطوفان
- أول من بنى الكعبة
- أول من نصب أنصاب الحرم
- أول من اختتن وشاب وقرى الضيف
- أول من تجبر في الأرض
- أول من ابتلي بشريعة الدين
- أول من اكتحل الإثمد
- أول من غير دين إسماعيل عليه السلام
- أول النسيء
- أول من سن الرحلتين وأطعم الثريد
- أول ما رؤيت الحصبة
- أول من خضب بالسواد
- أول من علم الكتابة
- أول من أحكم قوافي الشعر
- أول من استعمل النورة
- أول من سود الدروع
- أول من سمي يحيى
- أول شيء كسيته الكعبة
- أول شيء ابتدىء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من النبوة
- أول ما أنزل عليه من القرآن
- أول من أسلم
- أول من سل سيفاً في سبيل الله
- أول من رمى بسهم في سبيل الله
- أول شهيد في الإسلام
- أول من أذن في سبيل الله
- أول من جمع الجمعة
- أول من قدم المدينة مهاجراً
- أول من أظهر الإسلام
- أول من عدا بفرسه في سبيل الله
- أول من جهر بالقرآن
- أول من بنى مسجداً يصلى فيه
- أول من حيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتحية الإسلام
- أول من بايع بيعة الرضوان
- أول مولود بالمدينة من أبناء المهاجرين
- أول غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأول لواء عقد
- أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
- أول سورة جهر بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم
- أول من لحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أهل بيته
- أول آية نزلت في القتال
- أول خلع كان في الإسلام
- أول لعان كان في الإسلام
- أول ظهار كان في الإسلام
- أول من رجم في الزنا
- أول من قطع في السرقة
- أول من استقبل القبلة
- أول من بايع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة
- أول من صلى بمكة جماعة
- أول من سن الركعتين عند القتل
- أول من أدوا الصدقة طائعين
- أول من افترض من عمل الدين
- أول آية أطعمت الغنائم
- أول من أعطى الاسترجاع
- أول حي ألقوا مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم
- أول العرب فناءٍ
- أول أشراط الساعة
- أول ما تنشق عنه الأرض
- أول شفيع
- أول ما يقضى فيه بين الناس
- أول من يجثو للخصومة يوم القيامة
- أول من يقرع باب الجنة
- أول من يكسى يوم القيامة
- أول من يكسى من النار
- أول مدعو به يوم القيامة



- أول من يرد الحوض
- أول الأمم تدخل الجنة
- أول ما يأكلون أهل الجنة
- أول من يدخل من هذه الأمة الجنة
- أول من ورث الكلالة
- أول من جمع الوتر ثلاثاً
- أول من جمع بين اللوحين
- أول من دون الدواوين ومصر الأمصار وفرض الأعطية
- أول من اتهم بعمل قوم لوط
- أول من نقل المقام
- أول من صلى خلفه بعد نقله
- أول من صدق الخيل
- أول من عرف بغير مكة
- أول من استعفى من عمال النبي صلى الله عليه وآله وسلم
- أول صبي صلي عليه
- أول من أ شار بالنفى
- أول من اعتق أمهات الأولاد
- أول من سلب خمس في الإسلام
- أول تحصيب المساجد
- أول من جهر بالتسليم
- أول من وضع العشور
- أول فسطاط ضرب على قبر
- أول كتابة التاريخ
- أول من جعل دية المعاهد كدية المسلم
- أول عداوة بين أهل العراق وأهل الشام
- أول من نهى عن متعة الحج
- أول من بوب بيوت الكعبة
- أول من قرن الطواف
- أول من التزم البيت
- أول من استعان بالسحر
- أول من زاد النداء الثالث يوم الجمعة
- أول من قتل صبراً ووضع شرف العطاء
- أول من رفع يديه على المنبر
- أول من قنت في يوم الجمعة
- أول من جلس في الخطبة
- أول من نقض التكبير
- أول من أذن وأقام في العيدين
- أول من خطب في العيد قبل الصلاة
- أول من أخرج المنبر يوم العيد
- أول من عقد قبال نعله عقداً واحداً
- أ ول من سلم عليه المؤذنون
- أول من زكى الأعطية
- أول من رد قضاء النبي صلى الله عليه وآله سلم
- أول من قضى أن يرث المسلم الكافر
- أول من سلم عليه بالإمارة
- أول رأس حمل في الإسلام
- أول من لبس الخز بالبصرة
- أول من لبس الخفاف الساذجة
- أول من رشا في الإسلام
- أول من حج على رحل ليس تحته زاد
- أول من عمل المحامل
- أول من تكلم في الإرجاء
- أول من تكلم في القدر
- أول من حرر الحرورية
- أول من لبس الثياب المدلكة وضرب في الخمر
- أول من أجاز بأربعمائة ألف
- أول من قص بالبصرة
- أول من رؤي يستنجي بالماء باليد
- أول من كتب القرآن على درهم
- أول من تكلمت فيه الخوارج
- أول قبيلة ترجع عن دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم
- أول من عمل الطلاق في مسجد الكوفة
- أول حجزة اتخذت

أوَّل مَن عَلَّم الكتابة

حدَّثنا عبد الجبار وابن وكيع ثنا سفيان عن مجالد عن الشعبي ، قال: قلنا للمهاجرين : مِنْ أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : مِنْ أهل الحيرة. فقلنا لأهل الحيرة : مِنْ أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : مِنْ أهل الأنبار.

أوَّل مَن عَدَا بفرسه في سبيل الله

حدَّثنا محمد بن مِعْدَان ثنا أبو عبد الرحمن المقريء ثنا المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن ، قال: أوَّل مَنْ عَدَا به فرسه في سبيل الله المِقداد بن عمرو رضي الله عنه.

حدَّثنا محمد بن بشَّار ومحمد بن المثنى قالا : ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة ، قال : سمعت أبا إسحق يحدِّث عن حارثة بن مضرب عن عَليٍّ ، قال: ما كان مِنَّا يوم بدرٍ غير المِقداد والنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أوَّل كتابة التاريخ

حدثنا أبو يوسف الصَّيْدلانيّ حدّثنا خالد بن حَيَّان عن فرات بن سلمان عن ميمون بن مهران ، قال: رُفِعَ إلى عمر صَكٌّ مَحِلَّة شعبان. فقال: أيُّ شعبان الذي يَحِقُّ فيه أو الذي مضى أو الذي هو آتٍ ؟ ثم قال أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ضعوا للناس شيئاً يعرفونه مِنَ التَّاريخ.

فقال بعضهم : اكتبوا على تاريخ الروم. فقالوا : إنَّ الروم يطول تاريخهم يكتبون على ذي القرنين. فقال: اكتبوا على تاريخ فارس. فقال : إنَّ

فارس كُلَّما قام مَلِكٌ طرح مَنْ كان قبلة. فأجمع رأيهم على أنَّ الهجرة كانت عشْرَ سنين فكتبوا التاريخ مِنْ هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.[١]

أول من كتب القرآن على درهم

حدَّثنا عبد الجبار بن العلاء ثنا سفيان عن سعدٍ ، قال: كان الحَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ هذه الدراهمَ البيض وَكَتَبَ عليها سورةً من القرآنِ ". فقال القَرَّاءُ : قَاتَلَهُ اللهُ [٢] . كَتَبَ سورةً مِنْ القرآن يَحْمِلُ النَّاس على ما يكرهون يأخذه الجُنُبُ والحائِضُ. حدَّثنا مُؤَمِّلٌ ثنا إسماعيل عن ابن جريج ، قال : كان عطاءُ ، يقول: أَثِمَ النَّاس –يعني بِضَرْبِهِمُ الدَّرَاهِمَ البِيْضَ.

أول من استعان بالسحر

حدَّثنا محمد بن يحيى بن كثير ثنا مؤمل بن الفضل ثنا الوليد عن الأوزاعي عن الزهري قال : رأى رجل رجلا لعابا بالسحر .
فقال : أول رجل يستعين بالسحر في دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقتله ، فأتي به الوليد وهو أمير على الكوفة فأمر بحبسه ، وكان على الحبس دينار بن دينار فسأله فأخبره أنه نظر إلى رجل يستعين بالسحر في دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقتله ، فسرحه دينار بن دينار. فلما بَلَغَ ذلك الوليد صلب دينار بن دينار [٣] .

مجهود التحقيق

قام المحقق بنسخ المخطوط وتدقيقه قدر المستطاع وضبطه ، كما عمد إلى إثبات معاني المفردات الصعبة نسبياً في الحاشية ، وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، بالإضافة إلى التعليق في بعض المواضع.

(١) ولاختيار تأريخ تاريخ المسلمين بالهجرة النبوية الكثير من الإشارات الحكيمة منها أنها الميلاد الحقيقي لدين الإسلام ورسول الإسلام وكيان المسلمين في العالم بوجود دولة إسلامية تحكم بكتاب الله تعالى وسُنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولا يعبد فيها إلا الله ويؤمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأن باستمرارها استمرار الحياة الحقيقية للإسلام والمسلمين وبغيرها فلا حياة لمن لم يحيى دينه.

(٢) (أهلكه الله في رمضان سنة خمس وتسعين كهلاً ، وكان ظلوماً جباراً ناصبياً خبيثاً سفاكاً للدماء) هكذا استهل الإمام الذهبي ترجمته في السير ، وفي آخرها ، قال : " فنسبه ولا نحبه بل نبعضه في الله فإن ذلك من أوثق العرى ا .هـ .

(٣) في هذه القصة درس عظيم يجب أن ندركه : وهو أن الجريمة عندما تكون في المجتمع ويراها غير المفوض بالحساب والعقاب اجتماعيا فليس له أن يتصرف في الأمر من تلقاء نفسه كأنه المفوض ، وإلا فالفوضى الاجتماعية وبعض المجتمع يقتل ويجلد بعضهم البعض ، وذلك فساد عريض ما قال به أحد من أهل العلم قط .
وعلى ما يبدو فإن الوليد حبس الأول لكونه تصرف من نفسه وكأنه صاحب السلطان على المجتمع ، ثم يأتي دينار هذا يكرر نفس الخطيئة مما أغاظه ، وكأنه لم يقتنع بالحبس الذي أمر به الوليد فيفرج عن الرجل ، فإذا بالوليد لا يحبس ديناراً بل يصلبه ، وهذا الحزم لتأكيد مفهوم ذلك الدرس الذي يجب أن ينتبه إليه كل محكوم من الالتزام وعدم الخروج عن قانون أي مجتمع كان وعدم الاستهانة بذي سلطان ، وإن كان هناك ما يجب تغييره فالسعي إلى ذلك بكل آليات التغيير مع الالتزام بالأطر الشرعية والمقامات السلطانية التي تجلب المصلحة وندفع المفسدة بلا مفسدة .



من الكتب التراثية التي حققها الأستاذ سامي أنور:

١- الموطأ- الإمام مالك- المكتب الثقافي- القاهرة.
٢- الملح الغرامية شرح منظومة ابن فرج اللامية- مكتبة ابن حزم- بيروت.
٣- السيرة النبوية- لابن هشام- المكتب الثقافي- القاهرة.
٤- المنتقى من الفوائد الحسان- للمزي- مكتبة الغرباء- المدينة المنورة.
٥- سبل السلام- الصنعاني- المكتب الثقافي- القاهرة.
٦- العرف العاطر بمعرفة الخواطر- العيداروس- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة.
٧- الأربعين النووية- النووي- ستة شروح- المكتب الثقافي- القاهرة.
٨- الأوائل- لأبي عروبة- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة.
٩- تحفة الكرام بخبر الأهرام- السيوطي- مكتبة ابن سينا- القاهرة.
١٠- الفوائد- ابن القيم- المكتب الثقافي- القاهرة.
١١- حالة أهل الحقيقة مع الله- الإمام الرفاعي - دار الصابوني- القاهرة.
١٢- البرهان المؤيد- الإمام الرفاعي - دار الصابوني- القاهرة.
١٣- النور الأسمى في شرح الأسماء الحسنى- سليمان سامي محمود- دار الصابوني- القاهرة.
١٤- الرسالة القشيرية- القشيري- دار الصابوني- القاهرة.
١٥- منتهى المنى بشرح الأسماء الحسنى- البيضاوي- دار الصابوني- القاهرة.
١٦- تراجم أهل البيت- محمد محمود إسماعيل- دار الصابوني- القاهرة.
١٧- شرح العقيدة الطحاوية- ابن أبي العز- دار البيان- القاهرة.
١٨- المشرب الرائق- الإمام الرفاعي - دار الصابوني- القاهرة.

من مؤلفات الأستاذ سامي أنور:

١- سلاح المؤمن- دار الصابوني- القاهرة.
٢- نساء حول الرسول- دار البيان- القاهرة.
٣- مثلث الظلم- دار الصابوني- القاهرة
٤- فتاوى الصحابة- دار الصابوني- القاهرة
٥- صفة صلاة النبي - دار الصابوني- القاهرة.

قراءة في كتاب الأوليات

أحمد محمد أمين .

الأوليات :العرب والأدب والإسلام والجاهلية والشعر/ أحمد محمد أمين.- عمان: منشورات وزارة الثقافة.



أصيل الصيف الأصولي

ماجستير في الأدب العربي ونقده

ahmad1haza@gmail.com



- مقدمة: أصل معنى لفظ (ع ر ب)
- المسألة الأولى: أصل معنى لفظ (العرب)
- المسألة الثانية: أصل معنى لفظ (العاربة)
- المسألة الثالثة: أصل معنى لفظي المستعرِبة والمتعَرِّبة
- المسألة الرابعة: أصل معنى لفظ (الأعراب)

مقدمة: أصل معنى لفظ (ع ر ب)

قلت: وأصل معنى لفظ العرب أنه صفة للماء، فقالوا: (ماء عَرَبٌ) أي ماء صافٍ عذبٌ شديد الجريان في الوديان. قال اللسان: "ماءٌ عَرِب: كثير، والتعريب: الإكثار من شرب العَرِب، وهو الكثير من الماء الصافي، ونهر عَرِبٌ: غُمْر (أي كثير الماء)، وبئر عَرِبة: كثيرة الماء، والفعل من كل ذلك عَرِب عَرَباً، فهو عارِبٌ وعاربةٌ. والعَرَبَة بالتحريك: النهر الشديد الجري...والعَرَبات: طريق في جبلٍ بطريق مصر، قلت: كأنه سمي بذلك لأنه كان فيه مسايل ماء شديدة الجري والإنحدار، وأعربَ سقيُ القوم إذا كان مرة غباً (أي أن يشربوا يوماً ويوماً لا) ومرةً خِمساً، ثم قام على وجه واحد". قلت: ومعنى (ثم قام على وجه واحد) أي كَثُرَ الماء حتى انساب في الأرض فلا يحتاج الناس معه إلى أن يباعدوا في السقي، وسنأتي عما قريب على بيان لم سمي هذا الجيل من الناس بالعرب، والعاربة والمستعربة والمتعربة إن شاء الله.

قال اللسان: العُرْبان والعُرْبون والعَرَبون: كل ما عُقِدَ به البيعة من الثمن، أعجمي أعرب...وقيل: سمي بذلك لأن فيه إعراباً لعقد البيع أي إصلاحاً وإزالة فسادٍ لئلا يملكه غيره باشترائه.

قلت: ويترجح عندي أن الكلمة قديمة، وأن الواو والنون في آخرها؛ إنما جاءت لإفادة التصغير كما في كلمة (عِجْلَون) التي تعني العجل الصغير وأن المراد بالعُرْبون أو العَرَبون هو الماء القليل وهو ذلك الماء الذي يكون في الأكواب الذي يقدم للأضياف، وعادة التعجل بتقديم الماء للضيف سواء أشرب أم لم يشرب عادة ما زالت جاريةً في الناس إلى يومنا، ثم جاز لفظ (العُرْبون) من دلالة الماء الذي يقدم للضيف إلى دلالة الدفعة الأولى من المال الذي يقدم للبائع.

قال اللسان: "عَرِب الرجلُ: إذا غرق في الدنيا" قلتُ: هو على التشبيه بمن غَرِق بالماء العَرِب أي الكثير شديد الجريان.

قال اللسان: "عَرِب الجُرْح عَرَباً وحَبِط حَبَطاً: بقي فيه أثر بعد البُرْء، وعَرِب الرجل عرباً فهو عَرِبٌ: اتَّخَمَ" قلت: وإنما قيل للجرح وللمتخم ذلك لأنهما قد انتفخا كمن شرب الماء العرب حتى انتفخت معدته. وفي اللسان: "العرَّاب الذي يعمل العرابات، واحدتها عرابة؛ وهي شُمُل ضروع الغنم"، قلت: سميت الشملة عِرَابة، لأنها انتفخت بالضرع كما انتفخ بطن من شرب الماء العرِب. و"العَرَبات: سفن رواكد، كانت بدجلة واحدتها عَرَبة"، قلت: وسميت السفن بالعربات؛ لاتساع أجوافها فهي كأنها منتفخة بالماء العرِب.

قال اللسان: أعربَ عنه لسانه، وعرَّب: أي أبان وأفصح" و"عرَّب منطِقَه أي هذَّبه من اللحن" و"عَرُب الرجل يعْرُب عُرْباً وعُرُوباً وعُروبة وعَرابة وعُرُوبيَّة كفَصُح، وعَرِب: إذا أفصح بعد لُكنَة في لسانه ورجل عريبٌ مُعْرِبٌ". قلت: وأصل معنى ذلك أنه جعل الكلام صافياً من كل كدرٍ فهو واضحٌ بيّنٌ كأنه الماء العَرِب الذي من صفاته الصفاء.

وفي اللسان: "وما بالدار من عريب مُعْرب أي أحد، والذكر والأنثى فيه سواء، ولا يقال إلا في النفي". قلت: وأصل معنى "عريبٌ مُعْرِبٌ" أنه الرجل الذي يجعل كلامه صافياً من كل لحنٍ أو عجمة. قال اللسان: خيل عِرابٌ مُعْرِبةٌ، الذي سلِم فيه عرق هجينوإبلٌ عرابٌ كذلك" و"أعرب: صَهَلَ فعُرِف عِتقُه بصهيله" و"أعرب الرجل: ملك خيلاً عراباً وإبلاً عراباً فهو مُعْرِبٌ". قلت: وإنما وصفوا الخيل والإبل بصفة (العِراب) تشبيهاً لها بالماء العَرِب أي الصافي من كل كدرٍ وكذلك هذه الخيل فهي صافية من كل عرقٍ هجين.

قال اللسان: العَرِبة والعَروب: المتحببة إلى زوجها المظهرة له ذلك، وقيل العُرُب الغنجات، وأعرب الرجل: تزوج أمرأةً عروباً، والعِرابة والإعراب: النكاح. قلت: ووصفت المرأة الخالصة من العيوب ذات الدلالة والغنج بالعروب على التشبيه بالماء العَرِب أي الصافي من كل كدر. وفي اللسان: تعرَّبت المرأة للرجل: تغزَّلت، والعَروب: الخائنة بفرجها، الفاسدة في نفسها. قلت: وإنما وصفت المرأة من ذوات الرايات بذلك لما تبديه من غنج من قولٍ أو فعلٍ حين تعرضها للرجل، كمثل غنج الزوجة العروب لزوجها.

قال اللسان: "عَروبة والعَروبة: كلتاهما الجمعة"...وعَروب: اسم السماء السابقة" قلت: اشتقاق الأسمين يدل على الصفاء والنقاء من العيوب فهما كالماء العَرِب الصافي. وفي اللسان: "التعريب: قطع سعف النخل وهو التشذيب". قلت: وإنما سمي قطع سعف النخل تعريباً، لأن قطع السعف يجعل جذع النخلة ناعماً أملس فهو كالخالي من العيوب كأنه صفاء الماء العرب. ثم سمَّت العرب ما قطع من السعف (عِرْباً) بوزن (فِعْل) بمعنى مفعول، فالسعف العِرْب هو (السعف المعروب) أي المقطوع والمُزال، ثم تجاوزت العرب في الكلمة فأطلقت لفظ (عِرْب) على يبيس البقلوشوك الهُمى؛ لأن البقل اليابس يهرُّ من أكامه عند يباسه، وكذلك شوك البُهمى. جاء في اللسان: "العِرْب: يبيس كل بقل، الواحدة عِرْبة، وقيل عِرْب البُهمى شوكها" و"البُهمى: نبت تجد به الغنم وجداً شديداً ما دام أخضر فإذا يبس هرَّ شوكه وامتنع (أكله)".

قال اللسان: "عَرِب عَرابة: نشط، والعَرَب النشط". قلت: وهو على التشبيه بالماء شديد الجريان، وفي اللسان: "العَرَبة: النفس" قلت: سميت بذلك إما لشدة جريان تبدلها وتغيرها فهي كالماء الشديد الجريان، وإما لصفائها الشديد ولطفها فهي لذلك لا تبصر بالعين فهي كالروح. وفي اللسان: عرَّب الدابة: بَزَغها على أشاعرها (أي أسأل دمها) ثم كواها" بحيث لا يؤثر في عصبها وذلكليشتدَّ شعرها.

قلت: وإنما قيل: "عرَّب الدابة" لأنه أسال دمها فسال كالماء العرِب شديد الجريان. قال اللسان: "التعريب: تمضير (الرجل) العَرِب، وهو الذَرِب المعدة (أي من استطلقت معدته) يقال: "عَرِبت معدته عَرَباً: فسدت مما يحمل عليها مثل ذَرِبت ذَرَباً فهي عَرِبة وذَرِبة". قلت: وإنما وصفت المعدة بذلك لأنها لما استطلقتجرى ما كان فيه جرياً شديداً. "والتعريب والإعراب والإعرابة والعِرَابة بالفتح والكسر: ما قبح من الكلام وأعرب الرجل تكلم بالفحش". قلت: نهملي الفحش من الكلام تعريباً على التشبيه بمن فسدت معدته لجامع التَّأذي منهما، وقد أشار الأزهري إلى هذا المعنى فقال: "ويحتمل أن يكون التعريب على من يقول بلسانه المنكر من هذا (يقصد من ذربت معدته) لأنه يفسد عليه كلامه كما فسدت معدته".

وسمت العرب بعض النباتات التي تنمو إلى جانب الماء العَرِب باسم من حروفه، فالعَبْرَب هو السُّماق، والعَرَبيَّ: شعير أبيض وسنبلة حرفان عريض، وحبُّه كبار، أكبر من شعير العراق، وهو أجود الشعير قلت: سمي بذلك إما نسبة إلى العرب وهم هذا الجيل من الناس، وإما لأنه قد سقي بالماء العَرِب فلذلك كَبُر حبُّه، والعَرَاب: شجر يفتل من لحائه الحبال، الواحدة عرابة، تأكله القرود، وربما أكله الناس في المجاعة". قال اللسان: و"عَرابة، بالفتح: اسم رجل من الأنصار من

الأوس ، قال الشماخ: إذا ما رايةٌ رفعت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمين ، قلت: سمي الرجل باسم الشجرة.

المسألة الأولى: أصل معنى لفظ (العرب)

قال اللسان: اختلف الناس في العرب لِمَ سموا عرباً (إلى مذهبين): فقال بعضهم: أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب يعْرُب بن قحطان ، وهو أبو اليمن كلهم ، وهم العرب العاربة ، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام معهم ، فتكلم بلسانهم فهو وأولاده العرب المستعربة.

الثاني: قيل إن أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤوا بعَرَبةٍ وهي من تِهامة فنسبوا إلى بلدهم ، و(عَرَبة) هي مكة. قال اللسان: "أقامت قريشٌ بعَرَبة فتنَّخت بها ، وانتشر سائر العرب في جزيرتها فنسبوا كلهم إلى (عَرَبة) لأن أباهم إسماعيل عليه السلام ، بها نشأ ورَبَل أولاده فيها ، فكثروا ، فلما لم تحتملهم البلاد انتشروا وأقامت قريش بها. و"قال الأزهري: والأقرب عندي أنهم سُمُوا عرباً باسم بلدهم العَرَبات".
قلت: أما من قال: سمي العرب بذلك نسبة إلى يَعْرُب بن قحطان. فقول ضعيف عند التحقيق ؛ ذلك أن أسم (يَعْرُب) يرجع في أصله إلى (الماء العَرِب) ، وأصل الإسم أنه منقول من الفعل المضارع من نحو قولهم "فلانٌ يَعْرُب من الماء" أي يتناول من الماء العَرِب.

وأما من قال: إنهم سموا عرباً نسبةً إلى بلدهم (عَرَبة) أو (عَرَبات) فقد باعدَ أيضاً ؛ ذلك أن اسم هذا الجيل من الناس وهم (العرب) ، واسم البلدة وهي (عَرَبة) يرجعان إلى شيءٍ واحدٍ ، وهو الماء العَرِب الذي هو الماء الصافي الكثير الشديد الجريان. فالعَرَبة كما في اللسان: "هو النهر الشديد الجري" ، وعَرَبات جمعها ، فالعَرَبات هي الأنهار الشديدة الجريان ، وإنما سميت مكة المكرمة بذلك لوجود نهر أو أنهارٍ كانت شديدة الجريان فيها.

غير أننا نعلم أن مكة وادٍ غير ذي زرع ، فمن أين جاءت هذه الأنهار الشديدة الجريان حتى سميت مكة باسمها. قلت: كان ذلك في زمن العصور المطيرة ، إذا كانت شبة الجزيرة ذات أنهار شديدة الجريان ثم جفت بإنقضاء العصور المطيرة ، وذلك قبل عشرين ألف عام. (انظر مادة أدب).

وأما علة تسمية هذا الجيل من الناس بالعرب ، فمردُّ ذلك أن لفظ العرب في أصله صفة للماء ، إذ قالوا: "هذا ماء عَرَبٌ" أي كثير صافٍ شديد الجريان بالأنهار ، ثم نقلت الصفة وهي (عرب) إلى العلمية فقالوا: (هذا عربٌ) أي هذا نهر كثير الماء شديد الجريان ، ثم أضافت كل قبيلة اسمها إلى أحد هذه الأعراب (الأنهار) لتمييز الملكية فقالوا: "هذا عَرَب قبيلة كذا" و"هذا عرب قبيلة كذا" يريدون (هذا نهر أو ماء قبيلة كذا) و(هذا نهر أو ماء قبيلة كذا). ثم جاز اللفظ مجازاً مرسلاً علاقته المحلية إذا اكتفوا بذكر المحل وهو (العرب) أي النهر ، وأرادوا من حلت إلى جواره ، وهي القبيلة فقالوا: (هذه عرب كذا) أي (هذه قبيلة كذا) ، وقالوا: (من أي العرب أ نت؟) .أي (من أي القبائل أنت) ثم غلب لفظ (العرب) فصار اسم جنس لهذا الجيل من الناس الذي يجمعه لغة واحدة ، وأعراف واحدة ، ودين واحد ، والحمد لله ربَّ العالمين.

وما زال لفظ (عرب) يستخدم بمعنى قبيله إلى يومنا هذا ، فيقال: (عرب التعامرة) أي قبيلة التعامرة. ويقال للبدو خاصة "العرب" .قلت: أصل ذلك أن لفظ العرب كان يُعَرَّف بالإضافة فيقال: "عرب البدو" أي قبائل البدو ، ثم حذف المضاف إليه وهو (البدو) وعرِّف المضاف بالألف واللام تعريفا بالعهد الذهني ، فإذا قال المتكلم من أهل الحضر: (ذهبت إلى العرب) انصرف ذهن السامع إلى عرب البدو أي قبائل البدو. ومجمل الأمر أن لفظ (العرب) لفظ قديم يرجع عند التحقيق إلى زمن العصور المطيرة قبل عشرين ألف عام.(انظر مادة الأدب).

المسألة الثانية: أصل معنى لفظ (العاربة)

قال اللسان: العرب العاربة: هم الخُلَّص منهم ، وأخذ من لفظه فأُكِّد به كقولك ليل لائل ، تقول: عرب عاربة وعرْباء: صرحاء ، ومُتَعَرِّبة ومستعربة دخلاء ليسوا بخلَّص.

قلت: والقول إن معنى (العرب العاربة: هم الخلص منهم) وأن معنى (العرب المستعربة هم الدخلاء) تفسير يجعل التسمية قائمة على النقاء العنصري وهو أمر بعيد ، ذلك أن العرب المستعربة وهم أبناء أسماعيل عليه السلام متجذّرون في العروبة وليسوا بدخلاء ، وأما أصل هذه الأسماء فهو ذو علاقة بالماء العَرِب ، وسنزيد شرح هذا الأمر في المسألة الثالثة إن شاء الله.

قلت: العرب العاربة: هي القبائل صاحبة الأعراب (الأنهار) حيث كان الماء يجري في الأودية الشديدة الجريان ، و(العاربة) هي صاحبة الماء العرِب ومثلها التامر واللابن أي صاحب التمر وصاحب اللبن.

إذاً ، فمصطلح (العاربة) يقصد به تلك القبائل التي سكنت الجزيرة العربية في زمن العصور المطيرة قبل عشرين ألف عامٍ ، فلما انقضت العصور المطيرة بدأت أنهار الجزيرة بالجفاف فخرجت القبائل إلى مصر والعراق واليمن والشام حتى خلت الحجاز من الناس ، فلما شاء الله تعالى أن يُحيي الحجاز بذرية جديدة ، جمع في تلك الذرية أمشاجاً من مصر والعراق واليمن والشام. فكانت جدتهم هاجر عليها السلام مصرية ، وكان جدهم إبراهيم عليه السلام عراقياً ، وكان أبوهم إسماعيل عليه السلام شامياً ، إذ إنما ولد في الشام ثم حُمِل هو وأمه إلى مكة المكرمة كما هو معلوم ، والإنسان إنما ينسب إلى مسقط رأسه. وكانت أم هذه الذرية وهي زوج إسماعيل عليه السلام من جرهم من اليمن. فكانت تلك الذرية هي أول إعمار للجريزة بدأ من مكة المكرمة في الحجاز حتى إذا ضاق بهم المكان خرجوا إلى سائر الجزيرة (لسان العرب: عرب).

وإذا كان لنا أن نتأوَّل ترتيب زمن خروج هذه القبائل من الجزيرة وصولاً إلى تلك البلاد المحيطة بها ، بحيث يكون الترتيب من الأبعد زمناً إلى الأدنى ، فكيف يكون هذا الترتيب ؟

قلت: إذا كان الأصل في الأبن أنه ينسب إلى أبيه وأمه ثم إلى جده وجدته ، ثم كان كل واحد من هؤلاء الأقارب يمثل قبائل بلد ، فالجدة تمثل القبائل التي خرجت إلى مصر ، والجد يمثل القبائل التي خرجت إلى العراق ، والأم تمثل القبائل التي خرجت إلى اليمن ، والأب يمثل القبائل التي خرجت إلى الشام ، فقد أشعرنا هذا أن القبائل التي خرجت إلى مصر هي أبعد القبائل زمناً في الخروج من الجزيرة ؛ لأن موضع الجدة هو الأبعد في خط النسب قياساً من موضع الأبن. ثم كانت القبائل التي خرجت إلى العراق هي الثانية في الخروج ؛ لأن الجد أقرب من الجدة في خط النسب ، ثم كانت القبائل التي خرجت إلى

اليمن هي الثالثة في الخروج ؛ لأن الأم أقرب من الجد في خط النسب ، ثم كانت القبائل التي خرجت إلى الشام هي آخر القبائل خروجاً من الجزيرة ؛ لأن الأب أقرب من الأم في خط النسب قياساً من موضع الإبن - والله أعلم

المسألة الثالثة:

أصل معنى لفظي (المستعربة والمتعرّبة)

قال اللسان: تقول عرب عاربة وعرْباء: صرحاء ، ومُتَعَرِّبة ومُسْتَعْرِبة: دخلاء ليسوا بخلَّص.

قلت: وقد سبق أن ناقشنا قول اللسان الآنف في أول المسألة الثانية فارجع إليه. ومما ينبغي علينا أن نعلمه قبل الخوض في بيان أصل معنى لفظ (العرب المستعربة) أن نعلم أن هذا المصطلح قد صار علماً على أبناء إسماعيل عليه السلام ، وهو الذي يرجع في وجوده التاريخي إلى عام (٢٠٠٠) قبل الهجرة ، وهو زمن كانت الجزيرة تعيش فيه عصور الجفاف كما هو في هذا العصر وذلك بسبب انقضاء العصور المطيرة ، وإن من أبرز سمات الجفاف قلة الماء ، وهي المسألة التي تعنينا في هذا الموضوع.

قلت: وأما أصل معنى لفظ (المستعربة) ، فنحن نعلم أن صيغة (استفعل) تفيد أحد معنين إما الصيرورة نحو (استحجر الطين) أي صار حجراً ، وإما الطلب نحو (استفهم الرجل) أي طلب الفهم ، وقد فسر اللسان معنى (المستعربة) على معنى الصيرورة ، إذ جعل معنى (المستعربة) هم الأقوام الذين صاروا عرباً ولم يكونوا كذلك في أصلهم.

قلت: وهذا قول غير صحيح ، فليس للمسألة علاقة بالنقاء العنصري ، وإنما علاقتها بالماء العَرِب. فالعرب المستعربة: هي القبائل التي تطلب (العَرِب) ، إذ جاز لفظ (العَرِب) إلى مطلق الماء ، وإنما طلبت القبائلُ (العَرِب) أي الماء ، بسبب القحط والجفاف ، وذلك باستخراجه من (الأشعار) أي الآبار.

وأما مصطلح (المتعرِّبة) فهو علم على أبناء إسماعيل أيضاً ، وهو على صيغة اسم الفاعل من الفعل (تَعَرَّب) بوزن (تَفَعَّلَ) نحو تَصَبَّر وتَشَجَّع ، وهي صيغة تفيد التكلف أي تكلف الصبر وتكلف الشجاعة.

ومعنى (تَعَرَّب) أي تكلف طلب (العَرِب) أي الماء ، واسم الفاعل منه (المتعرِّبة) وإنما تكلفت القبائل طلب (العَرِب) أي الماء بسبب الجفاف والقحط في الجزيرة ، بعد أن كانت أنهاراً وجناتٍ في زمن العصور المطيرة.

المسألة الرابعة: أصل معنى لفظ (الأعراب)

قلت: الأعراب: جمع عَرَب ، نحو نَبَطٌ أنباط ، وقلم أقلام ، والعَرَبُ هو الماء الكثير الشديد الجريان في الوادي.

ثم وصف الناس الذين فيهم سرعة الإنفعال والطيش بالأعراب فقيل (فلان أعرابي الخلق) أي شديد الإنفعال سريع الغضب فهو كالماء الشديد الجريان الذي يجرف ما وقع أمامه. ومن ثَمَّ حملت هذه الصفة دلالة الذم ، ثم غلب لفظ (الأعراب) على أولئك الناس الذين تلك صفاتهم ، فصار لفظ (الأعراب) بذلك اسم جنس. والمفرد منه (أعرابي).

ثم وصف الناس الطائش بصفة الجاهلي نسبة إلى (الجاهل) وهو (التنور) في مرحلة لاحقة.



صدر العدد الأول من دورية كان التاريخية يوم الجمعة الموافق ٥ سبتمبر ٢٠٠٨ م/ ٥ رمضان ١٤٢٩ هـ برعاية سلسلة المؤرخ الصغير.

سلسلة المؤرخ الصغير، هي سلسلة كتب علمية تاريخية، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية حول الموضوعات التاريخية التي تهم الباحثين، بأسلوب أكاديمي موثق يتوافق مع متطلبات البحث العلمي.

وتستهدف السلسلة الطلاب والباحثون لإرشادهم في طريق البحث العلمي، والإعلامي والمعلم، والمثقف العربي لمساعدتهم على نشر الوعي التاريخي.

صدرت السلسلة يونيو ٢٠٠٧ بكتاب "الآثار الباقية عن البيروني"عن دار النشر الإلكتروني "كتب عربية"، حيث تناولت أولى كتب السلسلة صفحات عن العالم الجليل "البيروني" – وهو من علماء القرن الحادي عشر– حيث فاق علماء عصره فقد كان طبيباً وفلكياً وفيلسوفاً ورياضياً وشاعراً وفيزيائياً وكيميائياً وجغرافياً ومؤرخاً.



برعاية كريمة من دار ناشري للنشر الإلكتروني تتوفر أعداد كان التاريخية للقراءة والتحميل بموقع الدار على شبكة الإنترنت منذ منتصف يناير ٢٠٠٩.

دار ناشري للنشر الإلكتروني تأسست في يوليو٢٠٠٣ وهي أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية وغير ربحية. توفر ناشري العديد من الكتب الإلكترونية، المقالات والبحوث العلمية في كثير من المجالات المعرفية.

www.nashiri.net



تسعون عامًا على ثورة ١٩١٩
١٠ : ١٢ مارس ٢٠٠٩
المجلس الأعلى للثقافة - قاعة المؤتمرات

تحت رعاية

الفنان/ فاروق حسنى

وزير الثقافة ـ رئيس المجلس الأعلى للثقافة

يشرف

الأستاذ / على أبو شادى

الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة

و

الأستاذ الدكتور/ عادل غنيم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

بدعوة سيادتكم لحضور ندوة

تسعون عاماً على ثورة ١٩١٩

١٠ ـ ١٢ مارس ٢٠٠٩

قاعة المؤتمرات ـ بالمجلس الأعلى للثقافة

برنامج الندوة

اليوم الأول **الثلاثاء ٢٠٠٩/٣/١٠**

الجلسة الافتتاحية (١١ ـ ١٢,٣٠)

- كلمة مقرر الندوة

الأستاذ الدكتور / عاصم دسوقى

- كلمة الجمعية

الأستاذ الدكتور / عادل غنيم

- كلمة المجلس الأعلى للثقافة

الأستاذ / على أبو شادى

- المحاضرة الافتتاحية

الأستاذ الدكتور / جابر عصفور

"التنوع الثقافى"

استراحة

الجلسة الأولى (١,٠٠ : ٢,٣٠)

رئيس الجلسة: أ.السيد يسين

- د. العفيف الخضر

الثورة فلسفيًا وتاريخيًا

- أ. محمد يوسف

محمد فريد المناضل المنسى: الإرهاص الأول للثورة

- أ. د. محمد نصر مهنا

ثورة ١٩١٩ فى الوثائق البريطانية

اليوم الثانى **الأربعاء ٢٠٠٩/٣/١١**

الجلسة الثانية (١١,٠٠ : ١,٠٠)

رئيس الجلسة: أ.د. رفعت السعيد

- أ.د. محمد عبد الرحمن برج

المثقفون وثورة ١٩١٩

- أ.د. سيد عشماوى

البلشفية وثورة ١٩١٩

- د. جينادى جارياتشكين

ثورة ١٩١٩ فى كتابات روسية

- أ.د. مجدى عبد الحافظ

مقاربة صبرى السوربونى لأحداث ثورة ١٩١٩

استراحة

الجلسة الثالثة (١,٣٠ : ٣,٠٠)

رئيس الجلسة: أ.د. على بركات

- د. محمد عزيز

الدوافع الذاتية للقوى الاجتماعية فى ثورة ١٩١٩

- د. حسام عبد المعطى

نمو فكرة الوحدة الوطنية فى ثورة ١٩١٩

- د. سليمان محمد حسين

حمد الباسل فى ثورة ١٩١٩

استراحة

الجلسة الرابعة (٣,٣٠ : ٥,٠٠)

رئيس الجلسة: أ.د. صلاح فضل

- د. حسن مرسى

دور المرأة فى ثورة ١٩١٩

- أ. فايز على

تجليات ثورة ١٩١٩ فى الشعر

- د. عماد أبو غازى

الثورة والفن

اليوم الثالث **الخميس ٢٠٠٩/٣/١٢**

الجلسة الخامسة (١١,٠٠ : ١٢,٣٠)

رئيس الجلسة: أ.د. عبد الوهاب بكر

- أ.د. عبد المنعم الجميعى

لجنة ملنر والتفاوض من أجل استقلال مصر

- د. خلف الميرى

موقف البوليس من أحداث ثورة ١٩١٩

- د. نبيل الطوخى

من فظائع الاحتلال الإنجليزى فى مواجهة الثورة

استراحة

الجلسة السادسة (١,٠٠ : ٢,٣٠)

رئيس الجلسة: المستشار. طارق البشرى

- أ.د. أحمد الشربينى

قيادة ثورة ١٩١٩ بين الاعتدال والتطرف

- د. صفاء شاكر

انشقاقات ثورة ١٩١٩: إسماعيل صدقى نموذجًا

- أ.د. عبد العليم أبو هيكل

سعد زغلول وفيصل الأول فى مؤتمر فرساى ١٩١٩

استراحة

الجلسة السابعة (٣,٠٠ : ٥,٠٠)

رئيس الجلسة: د. على سليمان

- د. أحمد حلمى

أثر ثورة ١٩١٩ على نظام الرى

- د. محمد عبد المؤمن

صدى ثورة ١٩١٩ فى جريدة النيويورك تايمز

- أ.د. حمادة إسماعيل

حصاد ثورة ١٩١٩

- د. ناصرية بغدادى
- د. لخميس شبيبى

تداعيات الثورة فى النشاط الاقتصادى والاجتماعى



برنامج ندوة

تسعون عاماً على ثورة ١٩١٩

١٠ - ١٢ مارس ٢٠٠٩

قاعة المؤتمرات بالمجلس الأعلى للثقافة

الحقبة الهوهنشتاوفنية في الإمبراطورية الرومانية المقدسة

الملف



أشرف صالح
عضو إتحاد كُتاب الإنترنت العرب
عضو الإتحاد العالمي للمدونين
عضو جمعية الإنترنت العالمية
عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
جمهورية مصر العربية
mr.ashraf.salih@gmail.com

The Holy Roman Empire

During The Era of Hohenstaufen

هوهنشــــــــتاوفن Hohenstaufen أو "هوهينســــــــتاوفن" Hehencsteufan أسرة مـن الأمـراء فـي ألمانيـا خـلال العصـور الوسطى ،اعتلت العرش الإمبراطوري بين عامي ١١٣٨ و١٢٥٤م. وقد استمدت الأسرة اسمها من قلعة عتيقة شُيّدت في ستاوفن بجنوبي ألمانيا في القرن الحادي عشر الميلادي.ففي عام ١١٣٨م اعتلى أحد أفراد أسرة هوهينستاوفن عرش ألمانيا ،وهو كونراد الثالث ، كما كان من حكام آل هوهنشتاوفن أيضاً فريديك الأول بارباروسا[1] ، وهنري السادس[2] ، و فريديك الثاني[3] .

الجـدير بالـذكر ؛ أن الحقبـة الهوهنشـتاوفنية ارتبطـت بالمرحلـة الأخيرة مـن تفت الإقطاع في ألمانيـا ، وانهيـار السيادة الألمانيـة في إيطاليا. ولو حاولنا أن نستقرىء تـاريخ الإمبراطورية الرومانية الآتي مـن خلال الأحداث ،لأدركنا أن الحقبة التاريخيـة كانت صراعاً بـين أباطرة الهوهنشتاوفن والبابويـة ، أمـا إذا تخطينـا هـذه الأحـداث إلى خلفياتهـا البعيدة لبدا لنا الواقع صراعاً بين مفهومين للسيادة الواحدة ، أحدهما سياسي والآخر روحـي ، وكـان هـذا نتيجـة حتميـة لمفهـوم أكثـر عمقـاً واتساعاً مما كان يقتتل من اجله هنري الرابع وجريجوري السابع ،ذلك أن الطرفين أضحى كل منهما يحمل الإدعاء الكامل بالعالمية.

وإذا كانـت المشكلات مـع الباباوات بـدأت في منتصـف القـرن الحادي عشر الميلاديّ ، عندما حاول كل من هنري الرابع الإمبراطور الروماني ، والبابا جريجـوري السابع ،بسط سلطته على الآخر ، فـإن الصراع من أجـل السلطة ظل قائمًا بين الأباطرة والباباوات حتى عام ١٢٥٠م ، كما قوى نفوذ النبلاء الألمان خلال هذا الصراع.

ففي عام ١١٢٥م عندما توفي هنري الخامس ، عزم حزب الإصلاح الكنسي في ألمانيا على أن يبعد عـن العرش الألمـاني الوريث الشرعي فردريك الهوهنشـتاوفن دوق سوابيا ، وابـن أخ هنـري الخامس ، وذلـك خشية ان يسير على نفس السياسة العدائية تجاه الكنيسة والبابويـة. وقـد لقيـت هـذه الرغبـة تشـجيعاً مـن جانـب نـبلاء ألمانيـا الـذين كـانوا يريدون القضاء على مبدأ وراثة العرش الألماني. وهكذا ؛ تآلفت الرغبتان لتزكية الحقوق القديمة للأمراء في اختيار الملك ، ولتأكيـد نفوذ رجـال الاكليـروس ،وتم اختيـار لوثيـود دوق سكسـونيا ملكـاً فـي ألمانيـا ، والقضاء على محاولات فردريك لترشيح نفسه للعرش الألماني.

وكان لوثيود ابناً باراً بالكنيسة ، وحتى قبل أن يصبح ملكاً لم يكن ليعصى للأساقفة أو رؤسائهم أمراً ، فلما اعتلى العرش الألماني سلك نفس السبيل راضياً. وكان لوثيود أول ملك ألماني يطلب من البابوية التصديق على اختيـاره. غير أن التحـالف الـذي نشـأ بـين الاكليـروس والنبلاء الألمان عند وفاة لوثيود ، أعاد مرة أخرى تأكيد ادعاءاتهم حول حقوقهم في اختيار الملك الألماني ، ومن ثم وقع اختيارهم على كونراد الثالث Conrad III دوق سوابيا ، وهو أول ملوك أسرة الهوهنشتاوفن على عرش ألمانيا.

لقد تسلم كونراد العرش الألماني وهو مثقل بالاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية ، والحقيقـة أن كونراد الثالث كـان الملك الأول بـين ملـوك ألمانيـا منـذ هنـري الصـياد الـذي لـم يحمـل لقـب الإمبراطـور الروماني ، فلـم يـذهب كـونراد مطلقـاً إلى إيطاليـا ، كـما كانـت الأخيـرة آنذاك أخذت تشق طريقها نحو نسيان السيادة الألمانية.

وفـي عـام ١١٥٢م أدرك كـونراد الثالـث قبـل وفاتـه ومعـه النـبلاء الضرورة الحيوية لاختيـار ملك يستطيع أن يقضي على هذه الصراعات الداخلية التي تعبث بألمانيا ، وأن يعيد إلى الإمبراطورية ذلك المجد الضائع. فتغاضى كونراد عـن ابنه الأكبر واختار فردريك دوق سوابيا ، الذي أصبح الملك الجديد سنة ١١٥٢م.



الإمبراطورية الرومانية المقدسة

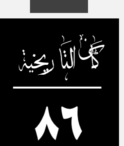
---

(١) فريدريك الأول (١١٢١- ١١٩٠م) يدعى بارباروسا ، وتعني ذو اللحية الحمراء: تولى الحكم بعد عمه كونراد الثالث ملكًا لألمانيا عام ١١٥٢م وأصبح إمبراطور روما المقدس عام ١١٥٥م. وقد أُعجب به الشعب الألماني واحترمه بوصفه بطلاً قوميًا شهيرًا. وفي عام ١١٨٠م هزم منافسه على السلطة في ألمانيا هنري الأسد دوق ساكسونيا وبافاريا ، وقد فرض سلطانه في ألمانيا وأراضي الحدود السلافية الشرقية. وكان نجاحه أقل في معركة مريرة ضد ألكسندر الثالث واتحاد لومبارد للمدن الإيطالية الشمالية ، وهزم الاتحاد فريدريك في معركة ليجنانو عام ١١٧٦م ، وكانت هذه المعركة أول انتصار كبير للاتحاد ضد الفروسية الإقطاعية. أجبرت مدن لومبارد فريدريك على أن يمنحها الحكم الذاتي في عام ١١٨٣م. وفي عام ١١٨٩م بدأ فريدريك الحملة الصليبية الثالثة إلى الأرض المقدسة ، وكان هدف الحملة استعادة القدس من صلاح الدين.ولكن فريدريك غرق في العام التالي وهو يعبر نهرًا في أسيا الصغرى.

(٢) هنري السادس (١١٦٥-١١٩٧م): أحد أعضاء أسرة هوهينستاوفن ، خلف والده فريديك بارباروسا سنة ١١٩٠م. وقد شجعه زواجه من كونستانس أميرة صقلية على المطالبة بمُلكها ، كما حصل على فدية كبيرة من ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا الأسير لدى دوق النمسا. ودعم هنري مركزه في إيطاليا من خلال البابا العجوز سلستين الثالث ، ووضع الخطط المتعلقة بإبقاء العرش الإمبراطوري في أسرة هوهينستاوفن واتخاذ القدس ذريعة لبدء حرب صليبية جديدة. غير أن هذه المشاريع توقفت بموت هنري وهو في سن الثانية والثلاثين.

(٣) فريدريك الثاني (١١٩٤- ١٢٥٠م): ويدعى أعجوبة العالم وكان أحد أذكى حكام العصور الوسطى الأوروبية. كان إداريًا ممتازًا وجنديًا قديرًا وعالمًا رائدًا في عصره ، ألمّ بلغات عديدة وشجع تطوير الشعر والنحت ، ومازال كتابه عن الصقور مرجعًا للخبراء. وينتمي فريدريك للعائلة الملكية هوهينستوفن وكان ابن هنري السادس إمبراطور روما المقدس وحفيد فريدريك الأول ، تُوج فريدريك الثاني ملكًا لألمانيا ، حينما كان عمره عامين وملكًا لإيطاليا وعمره أربع سنوات ، وأصبح إمبراطور روما المقدس عام ١٢١٥م ، ونصّب نفسه ملكًا على القدس عام ١٢٢٩م. حكم فريدريك مملكة صقلية حكمًا جيدًا ، وأسس جامعة نابولي عام ١٢٢٤م وجعل من جامعة ساليرنو أفضل مدرسة طب في أوروبا ، وكان طوال حياته في خلاف مع الباباوات والمدن الناهضة في ألمانيا وإيطاليا.

أعجب فريدريك الثاني بالثقافة العربية الإسلامية وشجع دراستها والترجمة منها. وأصبحت صقلية في عهده مركزًا هامًا لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا. وقد أغضب اهتمامه هذا رجال الدين النصرانيين فاتهموه بالهرطقة أو الخروج عن الدين.



وكان أول شيء أقدم عليه الملك الجديد هو إحلال السلام، والسعى نحو إعادة بناء الملكية الألمانية، كما بذل جهوداً مضنية في سبيل تدعيم وزيادة أراضي التاج. أما فيما يختص بعلاقته بالكنيسة؛ فقد أعلن عزمه على التمسك بكل الحقوق التي أعطيت للتاج بمقتضى اتفاقية وورمز التي عُقدت بين البابوية والإمبراطورية سنة ١١٢٢م.

وفي أكتوبر سنة ١١٥٧م كان فردريك في بيزانسون Besancon ليتلقى ولاء برجنديا بعد زواجه من بياتريس Beatrise وريثة كونتية برجنديا، عندما ظهر مندوبو البابا وعلى رأسهم الكاردينال رولان "رولاند Roland" (٤)، والذي يحمل رسالة شديدة اللهجة يحتج فيها البابا هادريان الرابع Hadrian IIII على الهجوم الذي قام فرسان فردريك على إحدى الأسقفيات أثناء عودته من روما إلى ألمانيا.

وراح الكاردينال يتلو رويداً رسالة البابا، بينما تولى رينالد Reinald – رئيس أساقفة كولوني-صديق فردريك المحبوب مهمة الترجمة، وقد سيطر على المكان جو من التوتر العام ووقعت كلمات الكاردينال من أذن الإمبراطور وقع الصاعقة اتقدت له بالغيظ عيناه، على حين كان الكاردينال يقرأ "لعله لم يغب عن ذهنك، أيها الابن الكريم كيف أن الكنيسة الرومانية المقدسة.. قد أنعمت عليكم مؤخراً بالتاج الإمبراطوري.. وسوف تكون أكثر سعادة لو أنا أنعمنا عليك بجميل Benefieia أكبر إذا كان ذلك ممكناً".

ولم يذهب الكاردينال أبعد من ذلك في قراءته، إذا أن رينالد Reinald ترجم كلمة Benefieia بأنها إقطاع "هبة موقوتة Beneficium" وليس جميل Benefieia، وأحدث هذا القول ردفعل عنيف في قاعة الاجتماع، إذا قفز على الفور أحد فرسان الملك المقربين، واستل سيفه وتقدم ليغمده في حلق المندوب البابوي غير أن فرديك كان أسرع منه، فألقى بردائه على مندوب البابا، وأعيد رسل البابا إلى روما وسط حراسة مشددة. وسميت هذه الوقعة بحادثة بيزانسون.

لقد كان أكثر شيء مقتاً إلى نفس الإمبراطور تلك الكلمة التي جعلت من الإمبراطورية إقطاعا بابوياً، فرسالة البابا – مع الخطأ في الترجمة-تعني أن الإمبراطورية إقطاع مؤقت، كما أن التاج الذي على رأس الإمبراطور هبة من البابوية. ولذلك جاء البيان الذي أصدره فردريك رداً على رسالة البابا عنيفاً يمتلئ غيظاً، فأعلن أن قول البابا "**محض زيف وإدعاء**"، وأضاف "لقد تملكنا هذه الإمبراطورية بطريق الانتخاب من جانب الأمراء تنفيذاً لإرادة الله وحده".

لقد كانت رسالة فردريك تعني أن كل من يقول بأن التاج الإمبراطوري إقطاع من البابا، فهو يتحدى بذلك النظم والقوانين الإلهية، وإذا كانت البابوية مقدسة من السماء، فإن الإمبراطورية مقدسة من السماء أيضاً. والحقيقة أن هذا النداء الذي صدر عن فردريك لقي التأييد بالكامل من قبل الكنيسة الألمانية خاصةً وأنه كان قد سعى بجهده ليحررها من سطوة روما ونفوذها. كما عُرفت الإمبراطورية منذ ذلك الوقت بالإمبراطورية الرومانية المقدسة.

الجدير بالذكر؛ أن أعظم الانتصارات التي حققها فردريك برباروسا في نظر معاصريه هو ما أقدم عليه سنة ١١٨٤م من زواج أبنه الأكبر هنري على الأميرة كونستانس وريثة عرش وليم الثاني ملك جنوب إيطاليا وصقلية وكانت العروس تكبره بعشرين سنة، وكان هذا زواج سياسي، ذلك أن الابن بهذا الميراث إن لم يكن الأب، كان يطمح في أن يضم إلى بقية الإمبراطورية تلك الدولة النورمانية البحرية، ذات الثراء العريض والتنظيم الدقيق. ولما رفض البابا أن يتوج هنري، أعلن فردريك ابنه إمبراطورا شريكاً وخلع عليه لقب القيصر.

ومما لا شك فيه؛ أن هذه الزيجة التي تمت في احتفال مهيب شهدته ميلانو عام ١١٨٦م كانت تشكل خطراً محدقاً للبابوية، فالوحدة بين الإمبراطورية الألمانية ومملكة النورمان الإيطالية كانت تهديداً مباشراً لاستقلال البابوية بصورة لم تحدث من قبل، وذلك في أشد أيامها حرجاً، فقد شاء القدر أن يحرم البابوية آنذاك من شخصية قوية تعتلي كرسي القديس بطرس، إذا تعاقب على هذا الكرسي عدد من الباباوات الضعاف.

وواقع الأمر؛ إن البابوية عاشت حتى لا يتحقق هذا التحالف بين ألمانيا وصقلية، فمشكلة البابوية أن تسيطر عليها قوة خارجية، فالبابوية تريد إمبراطور صنيعتها، وتريد أن تخلق قوة سياسية كبيرة قادرة على حمايتها، لكن في نفس الوقت أضعف من البابوية، وتلك معادلة صعبة.

ومن ناحية أخرى؛ يدرك الإمبراطور الروماني أنه لا يمكن أن يصبح إمبراطور بدون نفوذ له في روما، أو تكون تحت سيطرته وسلطته، ولكي يكون الإمبراطور الألماني عنيفاً في سيطرته على البابوية عليه أن يضع قدميه واحدة في ألمانيا والأخرى في صقلية.

وفي عام ١١٨٨م أقدم الإمبراطور العجوز على خطوة أخيرة ليضع بها نفسه على رأس الشئون الأوربية، فقد كانت قيادة الحركة الصليبية دائماً تتركز في يد البابوية، إلا أنه في ذلك العام حمل الصليب ليقود الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة (٥). وقد اختار فردريك الطريق البري

---

(٤) البابا اسكندر الثالث Alexander III فيما بعد.

(٥) كانت معركة حطين في ٤ يوليو ١١٨٧م/٥٨٣هـ واسترداد المسلمين بعدها لبيت المقدس بمثابة ضربة قاصمة للكيان الصليبي في بلاد الشام الذي بدأ في الانهيار ذلك لأن المدن الصليبية كانت تتهاوى واحدة تلو الأخرى في يد المسلمين. ولهذا حشدت أوربا قواتها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وذلك في صورة حملة صليبية جديدة وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة. وقد قاد هذه الحملة ثلاثة من أبرز ملوك وأباطرة أوربا في ذلك الوقت وهم فردريك برباروسا إمبراطور ألمانيا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ثم ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا.
والواقع أن؛ أول من حمل منهم الصليب وتوجه إلي الشرق كان الإمبراطور الألماني علي رأس جيش ضخم،إلا أن هذا الإمبراطور عندما عبر بقواته إلي أسيا الصغرى غرق في أحد الأنهار هناك. فتفرق أغلب أفراد هذه الحملة ولم يصل سوي عدد قليل إلي مدينة عكا الساحلية للمشاركة في حصارها وذلك بجانب قوات الملك الفرنسي الذي سارع بالقدوم للمنطقة بعد الكارثة السابقة وفقد الصليبية الثالثة للدعم الألماني. أما الملك الإنجليزي فقبل أن يصل إلي الشرق عرج في الطريق علي جزيرة قبرص واستولى عليها ،وذلك لموقعها الفريد في مواجهة الساحل الشامي والذي يمكن الصليبيين من التزود بالمؤن قبل قدومهم لبلاد الشام.
وهكذا؛ تقابلت القوات الإنجليزية والفرنسية عند أسوار مدينة عكا وذلك بقصد إسقاطها في القبضة الصليبية لأنها جوهرة الساحل الشامي والتي يمكن من خلالها استرداد بقية المدن الصليبية لاسيما بيت المقدس وهي الغرض الأساسي من الحملة. ودار الصراع الحربي بين المسلمين والصليبيين بشأن المدينة، وتخلل هذا بعض الاتصالات للتفاوض من أجل عكا إلا أن هذا لم يمنع حامية المدينة من الاستمرار في مقاومة الصليبيين. وقد استمر حصار عكا كما استمرت المعارك المتصلة بين الجانبين لمدة عامين كاملين ١١٨٩-١١٩١م إلا أن المدينة سقطت في النهاية في أيدي الصليبيين. وبهذا انتهت معركة عكا لتبدأ أحداث معركة جديدة لا تقل ضراوة عن المعارك الحربية وهي المفاوضات الأيوبية-الصليبية والتي استمرت عاما كاملا ١١٩١-١١٩٢م وانتهت بعقد هدنة الرملة.

الوعر متجهاً نحو الشرق ، وفي عام ١١٩٠م لقي حتفه غرقاً في أحد أنهار أسيا الصغرى.

وخلف هنري السادس Henry VI أبيه فرديك على العرش ، وخلال العهد القصير لهنري (١١٩٠-١١٩٧م) يمكن القول أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد وصلت إلى منتهى ارتقائها في العصور الوسطى. فقد كان هنري دبلوماسياً داهية يعرف كيف يحصل على أكبر الامتيازات بأيسر السهل ، وكان الهدف الأساسي الذي يملك عليه كل فكره هو أن يجعل الإمبراطورية أكثر اتساعاً وأشد قوة مما كانت عليه زمن أي من أسلافه ، وما من شك في ؛أن الوسيلة الرئيسية لبلوغ هذا المأرب هو أن يتمسك بإصرار بميراث زوجته كونستانس في جنوب إيطاليا وصقلية.

وفي يوم عيد الميلاد سنة ١١٩٤ -في الكاتدرائية التي يرقد فيها جثمانه إلى الآن-في بالرمو ، توج هنري السادس الملك الألماني والإمبراطور الروماني ، ملكاً على صقلية وأبوليا وكالابريا. وفي نفس العام ولد له من زوجته كونستانس ابنه فردريك ، الذي عُرف فيما بعد بفردريك الثاني ، فأراد هنري أن يحتفظ بالتاج لطفله عن طريق قيام البابا بتتويجه دون مراسم الاختيار الألمانية أو الصقلية. غير أن المعارضة لهذا الأمر ظهرت في ألمانيا يقودها رئيس أساقفة كولوني ، الذي كان من حقه نظرياً ، إن لم يكن أمراً واقعاً ، المشاركة في عملية اختيار الملك الألماني وتتويجه ، وقد صعب ذلك أيضاً رفض البابا القيام بعملية تتويج هذا الرضيع إمبراطور ، ومن ثم عصفت هذه الاعتراضات بخطة هنري السادس.

الجدير بالإشارة ؛ أن فردريك عندما بلغ عامه الثاني تم اختياره على يد الأمراء الألمان ملكاً على الرومان ، وقد رضي هنري السادس بذلك بدلاً من أن يفقد كل شيء ، كما أن فردريك بأي حال هو وريثه الشرعي على مملكة النورمان.

وفي بالرمو سبتمبر سنة ١١٩٧م أتى الموت فجأة لهنري السادس وهو في ريعان شبابه ، إذا لم تكن سنون عمره قد تجاوزت العام الثاني والثلاثين ، وقد علق أحد المؤرخين الألمان على موته قائلاً أنه كان: **"أفجع نازلة حلت بالتاريخ الألماني طيلة العصور الوسطى"**.

أما في إيطاليا ؛ فإنه عقب وفاة هنري السادس ، ارتفعت موجة العداء تجاه الألمان ، وكان هذا نتيجة لطبيعة السياسة التي جرت عليها ألمانيا في إيطاليا. على حين عمت الفوضى صقلية بعد سنة ١١٩٧م وعملت كونستانس جاهدة على الاحتفاظ بالمملكة لصغيرها فردريك الثاني ، ولما توفاها الموت سنة ١١٩٨ تركت وليدها تحت وصاية البابا الجديد أنوسنت الثالث Innocent III ومجلس وصاية من رجال الكنيسة. ولما كانت البابوية في شغل شاغل بنفسها وسموها عن من سواها ، تدس أنفها في الصراع الأهلي الطاحن في ألمانيا حول العرش ، فإنها لم تلتفت إلى ذلك الصبي فردريك ، وأصدرت وثيقة رسمية سنة ١٢٠١م بأحقية الطفل في العرش وأنها لا تمتلك الوقت الكافي لرعايته.

وهكذا ؛ ترك الصبي فردريك وشأنه ، شأن أي غلام صقلي يتخبط في شوارع بالرمو وأسواقها العامة ، فشب في حارات صقلية وشوارعها ، ليعتمد على نفسه وليفتح عينيه على كل ما خلفه المسلمون في الجزيرة من جوانب حضارية راقية ، حتى لقد أصبح فردريك على حد تعبير المؤرخ البريطاني ستيفن رانسيمان "يمتلك قدراً عالياً من الفكر والثقافة الواسعة ، يعرف ست لغات هي الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية. جمع أصول المعرفة في الفنون وصاحب مدرسة في فن النحت. شاعراً ودبلوماسياً.. ومهندساً معمارياً".

لهذا كله لم يكن غريباً أن يحظى فردريك الثاني بلقب **"محير العالم"** أو **"أعجوبة الدنيا"** Stupor Mundi الذي أطلقه عليه معاصروه ، تعبيراً عن هذه الصفات المتعددة التي اجتمعت في شخصه.

زد على ذلك ؛ أن هذه النشأة كان لها أثر عليه في الحملة الصليبية المعروفة بالسادسة[٦] ، فلم يكن يكافأ له في ذلك الوقت في سعة الأفق إلا الملك الكامل الأيوبي في مصر ، فقد كان معاصراً وصديقاً حميماً له ، حتى شبههما الأستاذ كانتروفتش بأنهما وجهين لعملة واحدة ، معبراً عن ذلك بقوله **"كان الكامل هو الوجه الشرقي للإمبراطور ، بينما كان فردريك هو الوجه الغربي للسلطان"**.

أما بالنسبة للعرش ؛ فقد خلف هنري السادس أخوه فيليب السوابي "دوق سوابيا" ، واختار الأمراء أوتو دوق برنسويك Brunswick ، وكان هنري السادس قبل موته أخذ البيعة لأبنه ، فأصبح على العرش ثلاثة ملوك ، الطفل فردريك في صقلية ، وفيليب السوابي ،وأوتو الرابع دوق برنسويك ، فمن هو الملك!

واشتعلت نار الحرب الأهلية بين فيليب وأوتو المختار من قبل الأمراء عام ١١٩٨م ، وبعد ثلاث سنوات كاملة من الحرب أصدرت البابوية عام ١٢٠١م وثيقة خطيرة من قِبل البابا أنوسنت الثالث ، جاء فيها " أنا رجل صالح لأني خليفة المسيح ولا يمكن أن يكون خليفة المسيح رجلاً آثماً ، وسوف أحكم بالعدل في هذه القضية على مبدأين هما الشرعية والصلاحية". ومعنى هذا مَن له شرعية في الحكم ومَن يصلح للحكم ، وكلاهما متناقضان ولا يتفقان ، فكانت هذه الوثيقة في جوهرها تحريضاً على إثارة الفتنة والحرب الأهلية في ألمانيا ، وهذا ما تريده البابوية وتسعى إليه لتظل سيادتها على الإمبراطورية.



Pope Innocent III

(٦) الحملة السادسة (٦٢٦-٦٢٧هـ، ١٢٢٨ - ١٢٢٩م)، قادها الإمبراطور فريدريك الثاني الذي أغضب البابا بتوقيعه اتفاقًا مع سلطان المسلمين الملك الكامل قضى بسيطرة النصارى على بيت لحم والقدس ، وظلت بقبضتهم حتى استعادها المسلمون عام ٦٤٢هـ، ١٢٤٤م.

وقد أوضح البابا في وثيقته الحكم على النحو التالي:

الطفل فردريك الثاني ؛ من حيث الشرعية هو أحق الثلاثة بالعرش ، لأنه ابن الإمبراطور وجده الإمبراطور ، ولأن أباه أخذ له البيعة من الأمراء دون إكراه ، وهم غالبية الأمراء وأكبرهم ، ولكنه لا يصلح لأنه مازال طفلاً والبابوية غير متفرغة لرعاية هؤلاء الأطفال.

فيليب السوابي ؛ يأتي في المرتبة الثانية من حيث الشرعية بعد ابن أخيه ، لأنه أقرب الناس للملك الذي مات ويصبح بحق الوراثة الملك الشرعي ، كما أنه من الأسرة الحاكمة الجالسة على العرش "الهوهنشتاوفن" ، ولكنه لا يصلح ، لأنه قديماً أغضب البابا فحرمه ثم عفى عنه ، وبما أنه سبق حرمانه قبل ذلك فهو لا يصلح.

أوتو الرابع ؛ ليس له الحق مطلقاً في العرش لأنه ليس من الأسرة الحاكمة ، ولأن الأمراء الذين اختاروا هم الأقلية عدداً وشأناً "من الدوقيات الصغيرة" ، ولكنه أصلح الثلاثة.

كان هذا هو الفكر السياسي البابوي في العصور الوسطى ، فالبابوية تريد بجانبها إمبراطورية قوية قادرة على حمايتها ، ولكنها أضعف منها ، والإمبراطور في نفس الوقت يريد روما داخلة في سلطانه ، ويريد السيطرة على البابوية ، لذا لا يتفق الاثنان.

وهكذا ؛ تولى أوتو العرش ، ولكن لقد اختاره البابا ، فما الذي سوف يقدمه هو للبابا ، لقد طلب منه الأخير ثلاثة مطالب:

- التخلي عن صقلية وفسخ عقد الشركة بين ألمانيا وصقلية ، لكي لا تصبح للإمبراطورية قدم في ألمانيا والأخرى في صقلية وروما في المنتصف.
- حمل الصليب والتوجه إلى الشرق في حملة صليبية جديدة ، بعد فشل الحملة الثالثة ، وقيام الحملة الرابعة بإسقاط القسطنطينية.
- يُمنح رجال الدين والاكليروس الكنسي امتيازات هائلة تؤهلهم للخروج عن سلطان الملك "استقلال الكنيسة عن الدولة".

وفي الحقيقة ؛ وافق أوتو على مطالب البابا ، واشتعلت نار الحرب بينه وبين فيليب السوابي من عام ١٢٠١ حتى ١٢٠٥م ، ولم يقم أوتو بشيء مما وعد به البابا ، فتخلى الأخير عنه ووقف بجانب فيليب السوابي ، ودخل في مفاوضات معه حول الاعتراف به وتتويجه إمبراطوراً ، كما تغاضى عن قرار الحرمان ، ولا عجب في الأمر ، فالبابا هو الذي يمنح وهو الذي يمنح ، وهو صاحب نظرية الشمس والقمر ، ونائب المسيح على الأرض ، فهو في مرتبة بطرس الآن وليس خلفاً له.

أما فيليب السوابي ؛ فقد وعده بتنفيذ كل شيء ، إلا أن الأحداث لم تمهله فقد أغتيل عام ١٢٠٨م نتيجة عداء شخصي ، وبذلك أصبح أوتو ملكاً منفرداً ، استبد بالسلطة وراح يعاند البابوية. فتذكرت البابوية في عام ١٢١٢م الطفل فردريك الثاني في صقلية ، فجاءت به وأعلنته ملكاً على ألمانيا ، مما يعني تجدد الحرب الأهلية بين أوتو وفردريك الثاني. والتقى الاثنان في معركة حدثت عام ١٢١٤م كان النصر فيها حليف فردريك ، فأصبح إمبراطور بشرط تنفيذ الشروط الثلاثة للبابا أنوسنت ، والتي وافق عليها دون تردد.

غادر فردريك ألمانيا عام ١٢٢٠م إلى روما ليتلقى التاج ، فقد كانت نظرته إلى ألمانيا لم تكن تتعدى كونها إحدى أقاليم الإمبراطورية ، وترتبط بالقلب في جنوب إيطاليا وصقلية عن طريق وسط إيطاليا وشمالها. وقد بدا ذلك واضحاً في أنه لم يعد إلى ألمانيا منذ غادرها سنة ١٢٢٠م إلى روما وحتى وفاته إلا مرة واحدة.

ومن الملاحظ ؛ أن البابوية منذ تتويج فردريك وهي تدعوه للقيام بحملة على الشرق ، ولكنه لم يقم بشيء فهذا العم توج إمبراطوراً رومانياً ، وفي عام ١٢٢٥م رأت البابوية -ممثلة في البابا هونوريوس الثالث- أن تزوجه من وريثة مملكة بيت المقدس ، وكان فردريك مزواجاً ، وكان هذا الزواج الثاني له ، ولم يجد ضرراً من هذا الزواج ،لأن البابوية هي التي ستتكفل بتزويجه ، كما أنه سيحصل على مملكة بيت المقدس.

وعندما طلبوا منه الذهاب للعروس ، فطلب أن تأتي هي ، وتزوجها في قبرص ، ثم طلبوا منه العودة بها لعكا ، فقد كانت بيت المقدس في ذلك الوقت هي صور وعكا ، ويطلق عليها تجاوزاً اسم بيت المقدس الذي كان في قبضة المسلمين ، فذهب فردريك لألمانيا ولم يذهب لعكا ، ومكث هناك عام واحد بعد أن تعهد للبابا بالخروج بهذه الحملة سنة ١٢٢٧م ، فإذا لم يفعل استحق اللعنة والحرم الكنسي.



وأبحر فردريك بالفعل في العام الذي حدده ، ولكن المرض داهمه ، وبناءاً على نصيحة أطبائه رجع من حيث أتي. وقد جرت الأحداث التي تلت ذلك بصورة ساخرة ، كانت كافية لأن تحيل الأمر إلى مأساة درامية أو ملهاة كوميدية ، فسرعان ما تعرض الإمبراطور لقرار الحرمان الكنسي الذي أصدره ضده البابا جريجوري التاسع ، والذي رأى في عودة فردريك خداعاً متعمداً من جانبه ، غير أن الإمبراطور لم يلق بالاً لهذا القرار ولم يجعل منه عقبة تقف في طريق حملته الصليبية.

فبعد سبع سنوات من المماطلة ، والتعلل بالمرض ، وعدم الاستعداد ، وحالة البحر ، قرر فردريك الخروج بعد أن شعر بمقدرته على الرحيل ، أو بالأحرى بعد صدور قرار الحرمان ، إلا أن ذلك وضع البابوية في موقف غاية في الحرج ، ومن الصعوبة بمكان ، فلا يجوز أن

يخرج في حملة وهو يحمل لعنة الحرمان ، فكيف سيحمل الصليب! كان لا بد أن تعفو عنه البابوية ، ولكن ليس لها ضامن إذا فعلت ذلك أن يذهب إلى الشرق ، فلم تعفو عنه.

وهكذا ؛ لم يجد فردريك بداً من الخروج حاملاً الصليب بيمينه واللعنة على كتيفيه! والحق يقال أنه لا يمكن اعتبار الحملة الصليبية التي قام بها فردريك حملة عسكرية بالمعنى المفهوم ، فقد خرج في صحبة (٥٠٠) جندي وكأنه خرج للتنزه ، كما أنه حصل على مملكة بيت المقدس عن طريق المفاوضات الهادئة مع سلطان مصر الملك الكامل الأيوبي.

الواقع أن ؛ الملك الكامل أعطى له الأماكن المقدسة في القدس وليس القدس نفسها ، وسمي هذا تدويل مدينة القدس ، وقد كانت فكرة الكامل أن مصر أولاً والباقي بعد ذلك ، لأن مصر هي القلب. ويتضح ذلك من وثيقة للملك الصالح أيوب إلى أبنه تورانشاه يقول له فيها: "وهذا العدو المخذول ، إن عجزت عنه ، وخرجوا من دمياط وقصدوك ، ولم يكن لك بهم طاقة وتأخرت عنك النجدة ، وطلبوا منك الساحل وبيت المقدس وغزة وغيرها من الساحل أعطيهم ولا تتوقف ، على أن لا يكون لهم في الديار المصرية قعر قصبة ، أعلم يا وليدي أن الديار المصرية هي كرسي المملكة ، وبها تستطيل على جميع الملوك. فإن كانت بيدك ، كان بيدك جميع الشرق".



فردريك الثاني يقابل الملك الكامل الأيوبي

وعلى الرغم من ؛ النجاح الساحق الذي حققته هذه المفاوضات فإن ذلك لم يرضي البابا ، فقد خرج فردريك وهو يحمل الحرمان ، بالإضافة إلى أنه تفاوض مع الملك الكامل –الذي يعد في نظر البابا كافر- بدلاً من أن يحاربه ويقضي عليه.

وتحدد هذه الأحداث البداية الطبيعية للحرب القادمة والدائمة بين الباباوات وفردريك ، والتي شغلت ما بقى له من عمره ، حتى عاجله الموت نتيجة إصابته بالدوسنتاريا في جنوب إيطاليا عام ١٢٥٠م. وبعد وفاة فردريك بثمانية عشر عاماً تم إعدام آخر الأباطرة الرومان من أسرة الهوفنشتاوفن ، الإمبراطور كونرادينو ، الذي قطعت رأسه في مدينة نابولي بموافقة البابا كلمنت الرابع عام ١٢٦٨م.

وهكذا ؛ كُتب لقصة الصراع الطويل بين الإمبراطورية والبابوية أن تنتهي لصالح الباباوات. كما يمكن اعتبار سنة ١٢٦٨م نهاية للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وفي نفس الوقت ، نهاية لحكم أسرة الهوهنشتاوفن.

وبذلك ؛ خلت الساحة للبابوية لتعربد في أوربا حتى القرن التاسع عشر ، فلم يكن هناك ملوك وأباطرة أقوياء يسيطرون على البابوية ، التي أصبحت تتحكم حتى في المسائل الشخصية ، فتجبر الملوك على طلاق زوجاتهم والزواج من أخريات ، وأصبح البابا هو السلطان الزمني والروحي ، وأصبحت صكوك الغفران تباع بالنقود في أوربا.

وهذا ما سمي بالعصور المظلمة من ١٢٦٨م وحتى عام ١٥٠٠م ، لأن الكنيسة أصبحت ذات سلطة مطلقة ، ولم يُسمح لأحد أن يقول رأي يخالف رأي الكنيسة ، ولا يعارض الكنيسة أحد وإلا سيكون الإعدام نهايته.

المراجع العربية والمترجمة

- رأفت عبد الحميد ، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، الطبعة الأولي ، القاهرة ١٩٩٨.
- رأفت عبد الحميد ،الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى ، دار قباء للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ٢٠٠١.
- محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٦.
- موريس بيشوب ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى / ترجمة علي السيد علي ،الطبعة الأولى ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٥.

المراجع الإلكترونية

- أشرف صالح محمد سيد ، الدبلوماسية الأيوبية –الصليبية (١١٩١-١١٩٢): دراسة تاريخية تحليلية.-الطبعة الالكترونية الأولى.-بيروت: شركة الكتاب الإلكتروني العربي ، ٢٠٠٧. (سلسلة المؤرخ الصغير ، ٢).
- أشرف صالح محمد سيد ، قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى.- الطبعة الالكترونية الأولى .-بيروت: شركة الكتاب الإلكتروني العربي ،٢٠٠٨. (سلسلة المؤرخ الصغير ، ٤).

المراجع الإنجليزية

- Barraclough (G.),Mediaeval Germany (911-1250); essays by German Historians, Translated and ed. By Barraclough, Oxford 1948.
- Brook (CH.), Europe in Central Middle Ages (962-1154), London 1966.
- David Abulafia, Frederick II: A Medieval Emperor,Oxford University Press, first published, USA 1998.
- Kanntorowicz (E.), Frederick the Second, London 1931.

الموسوعات

- الموسوعة العربية الميسرة
- الموسوعة العربية العالمية
- الموسوعة الحرة ويكيبيديا (www.wikipedia.org)
- The Catholic Encyclopedia
- www.britannica.com

لا تبتسم أيها العربي... إلا إذا

حتى نلتقي

بقلم

أحمد عـــادل
عضو هيئة التحرير
كاتب وباحث –جمهورية مصر العربية
ahmed1292005@hotmail.com

لا تبتسم أيها العربي إلا إذا.. انتقلت من خانة المتفرجين الخائبين إلى خانة الفاعلين المؤثرين، ففي أثناء الحرب على غزة كان أغلب العرب يتابعون ما يجري هناك عبر شاشات التلفاز مثلهم مثل الأوروبيين والأمريكيين. وأنا لا أطالب العرب الآن بكفاح مسلح ومغامرات غير محسوبة ونتيجتها قطعاً ليست في صالحنا على الأقل في الوقت الحالي، ولكني أطالبهم بأضعف الإيمان وهو الدعاء والتبرع مع تحريك الدعاوى القضائية ضد مجرمي الحرب في إسرائيل أمام كل محاكم الدنيا.

لا تبتسم أيها العربي إلا إذا.. رأيت رفقاء الكفاح والمقاومة في فلسطين وسلاحهم في أيديهم موجه إلى عدوهم المحتل الغاصب، وليس إلى صدور بعضهم البعض، ويكفي أن تعرف أن هناك الآن دولتين فلسطينيتين إحداهما في "رام الله" والأخرى في "غزة"، أما "القدس الشريف" فبعيدة عن الأنظار يتلاعب بها بني صهيون كيفما يشاؤن، والسؤال هل سنسير في الطريق الصحيح أم أننا سنسمع في القريب العاجل عن دول فلسطينية وهمية أخرى هنا وهناك، فالفصائل والحركات والأحزاب كثيرة هناك وشهوة الحكم والسلطة تُذهِب العقول والأرض أيضاً وتاريخ العرب تحديداً شاهد على ذلك بقوة. (لاحظ أن المعارك قد بدأت بضراوة على تحديد من سينفق حصيلة التبرعات لغزة.. لنا الله في الدنيا والآخرة نحن العرب).

لا تبتسم أيها العربي إلا إذا.. سعيت وجاهدت وعملت بنية صادقة على أن يتولى أمور العرب خيارهم وليس شِرارهم، فقطعاً هناك من بين ٣٤٠ مليون نسمة –هم عدد سكان الوطن العربي بالتقريب –من يصلح كثيراً لأن يعيد إلى هذه الأمة عزتها ومجدها، فالخير موجود في أمتنا إلى يوم الدين.

لا تبتسم أيها العربي إلا إذا.. رأيت النشء الصغير والشباب في هذه الأمة يتنفسون نسيم التربية الصالحة القويمة مسلحين بالدين والعلم معاً، ويكفي العلم بأن العدو المزروع غصباً في أراضينا رصد في عام ٢٠٠٩ ميزانية للتعليم الديني فقط تبلغ ١٠٠ مليون شيكل (ما يقرب من ٢٥ مليون دولار) تهدف إلى تلقين الأطفال هناك دروس تأمرهم بقتل العرب أعدائهم الأزليين وتحرير أرض الميعاد من أياديهم لكي يرضى الرب عن شعبه المختار. هذه هي القاعدة الحقيقية التي تنطلق منها الصواريخ والقنابل الفسفورية التي حرقت أجساد ألف شهيد ويزيد من أبناء غزة. أما البحث العلمي فميزانيته في إسرائيل تعادل ١٠ أضعاف ميزانيته في كل الدول العربية مجتمعة، ولعلّي أتساءل هنا: أين تذهب فوائض النفط العربي الطائلة؟ وهل يتم رصدها فقط لبناء ناطحات السحاب وإنشاء فضائيات من التي تشغل بال المواطن العربي بكل ما هو تافه وفج؟!! رأس المال البشري يحتاج أكثر للاستثمار فيه فهو الباقي، أما ما تحت الأرض فسينضب لا محالة مهما طال الزمان.

لا تبتسم أيها العربي إلا إذا.. غادرتنا العقول والأفواه التي تسمي الهزائم والنكسات والنكبات نصراً مبيناً، وكفانا ما وصلنا إليه من ضعف وهزال دمر الأمة عقوداً طويلة. لابد من البحث عن أسباب النصر والأخذ بها بدلاً من هذا الهراء. (أثناء الحرب الأخيرة على غزة شاهدت تليفزيونياً أحد أعضاء حركة المقاومة في غزة يتحدث –وهو خارج فلسطين –قائلاً لقد حققنا نصراً ساحقاً على إسرائيل، وبعد قليل وعلى نفس الشاشة شاهدت فتاة فلسطينية في العاشرة من عمرها تقف وسط أنقاض منزلها وهي تنتحب لاستشهاد ٣٠ شخصاً من عائلتها وحدها فقط.. أهذا هو النصر؟!! على العرب أن يعرفوا معنى النصر ووسائله أولاً قبل الحديث عنه وإلا لن تقوم لنا قائمة).

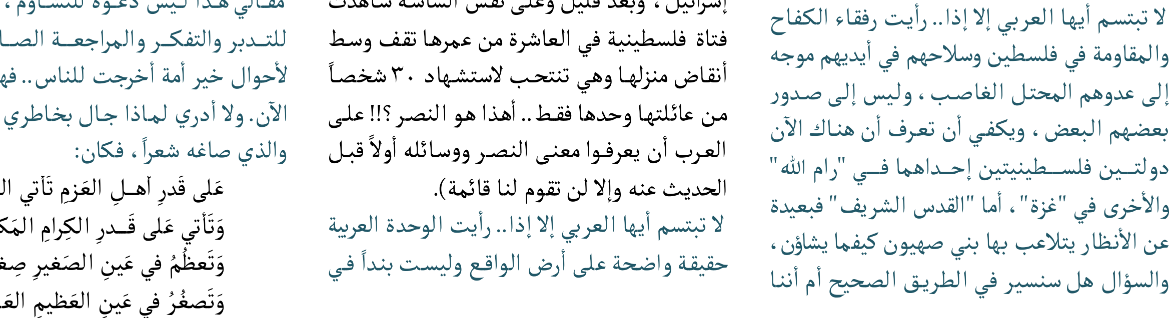
لا تبتسم أيها العربي إلا إذا.. رأيت الوحدة العربية حقيقة واضحة على أرض الواقع وليست بنداً في جدول أعمال القمم العربية مطروحاً للمناقشة والتصويت. (عقدت ثلاث قمم في ثلاث دول عربية لبحث موضوع الحرب على غزة، كل هذا في أسبوع واحد فقط وظهر خلالها –بالصوت والصورة –التمزق الشديد الذي أصاب الوطن العربي ... فعلاً شر البلية ما يضحك حتى تدمع العين بغزارة، ومسرح العرائس العربي مازالت عروضه متواصلة حتى الآن وبنجاح ساحق).

لا تبتسم أيها العربي إلا إذا.. رأيت وجوهاً في فلسطين لم يتسلل إليها اليأس أبداً تصر على استعادة أراضيها المحتلة حتى الموت وعلى استعداد تام للتضحية بالنفس والولد من أجل تحرير الأرض المقدسة. (الجزائر ضحت بمليون شهيد من أجل الاستقلال عن فرنسا وحصلت عليه، وقد رأيت شاباً فلسطينياً فقد إحدى قدميه في العدوان الأخير على غزة يقول لوسائل الإعلام: سأعود.. سأعود ولو فقدت قدميَّ الاثنتين، قالها وقد شوهد أثناء إسعافه وهو حاملاً بين يديه قدمه المبتورة، ولم يكن جالساً في القصور والمكاتب المكيفة أو مختفياً في الخنادق والسراديب مثل من يجاهدون بارتداء الكوفية الفلسطينية وتهريب الدولارات عبر الأنفاق، واعلموا أن التاريخ يسجل كل شيء أيها العرب).

لا تبتسم أيها العربي إلا إذا.. وجدت نشراً لمبادئ العدل والحرية والديمقراطية وحرباً على القهر والخوف والجهل والفقر والمرض، واعلم أن الله لينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة، ولا ينصر الأمة الظالمة ولو كانت مسلمة، فالدولة العبرية تقدم الفاسدين فيها للمحاكمة أمام القضاء مهما علا شأنهم وجاههم وسلطانهم، ورئيس الوزراء هناك لازال يخضع للمساءلة القانونية بسبب اتهامات بالفساد والاحتيال، أما الصورة العربية الحالية فهي باهتة الألوان والملامح ولا تبشر بخير آتٍ في الطريق.

لا تبتسم أيها العربي إلا إذا.. استيقظت يوماً من الأيام على وطن عربي موحد متماسك، فخورٌ بانتمائك إليه، يرفض الانقسام والتشرذم، ويحارب الفتن المذهبية والطائفية والدينية التي خارت قواه بسببها، ويلفظ من يدَّعون الوطنية ويحتكرونها وكأنها امتياز حصري لهم وما هم في الحقيقة سوى قطع من الشطرنج يتم التلاعب بها بأصابع غير عربية تريد دمار وخراب الأمة.. نريد هذا الوطن واقعاً وليس حلماً من الأحلام.

مقالي هذا ليس دعوة للتشاؤم، ولكنه دعوة للتدبر والتفكر والمراجعة الصادقة والأمينة لأحوال خير أمة أخرجت للناس.. فهل نحن كذلك الآن. ولا أدري لماذا جال بخاطري قول المتنبي والذي صاغه شعراً، فكان:



عَلى قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِمُ
وَتَأتي عَلى قَدرِ الكِرامِ المَكارِمُ
وَتَعظُمُ في عَينِ الصَغيرِ صِغارُها
وَتَصغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ



اللهم عليك باليهود .. اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف .. اللهم اهزمهم وزلزلهم ..
اللهم اشدد وطأتك عليهم .. اللهم خالف بين كلمتهم .. وألق في قلوبهم الرعب .. وألق عليهم
رجزك وعذابك إله الحق ..اللهم إن بإخواننا في (غزة) من الشدة والبلاء ما لا يعلمه إلا أنت .. ولا
يقدر على كشفه غيرك .. اللهم ارفع عنهم ما نزل بهم من البلاء .. واكشف عنهم ما أصابهم
من الضر .. إنك على كل شيء قدير .. وبالإجابة جدير